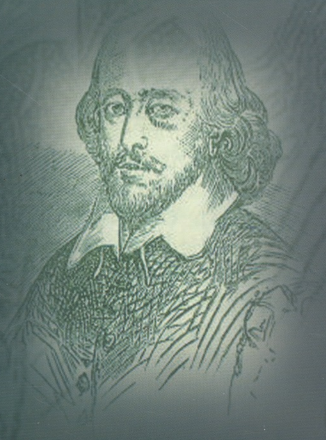
نواف نصار

أعلام الأدب الانجليزي

في كل العصور





أعلام الأدب الانجليزي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ر.أ: (٢٠٠٨/١١/٤٠٦٦)

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبرّ هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

دار المعتز للنشر والتوزيع

الأردن - عمان - وسط البلد - مجمع الفحيص التجاري ط١

تلفاكس :٩٦٢٦ ٤٦٢٠٩٩٠ +

Email:daralmuotaz@yahoo.com

نواف نصار

أعــلام الأدب الانــجليزي

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م

فهرس

مقدمة

أما بعد:

فهذا الكتاب محاولة متواضعة لتقديم كوكبة من أعلام الأدب الإنجليزي للقراء العرب خاصة أولئك الذين لا يعرفون اللغة الإنجليزية، فيجدون فيه تراجم لعشرين علماً هم أبرز أولئك الأعلام وأشهرهم.

وقد حاولت فيه جاهداً أن استعرض العصور الستة مع أشهر أعلامها، وقد نال العصر الفيكتوري نصيب الأسد، اعتقاداً مني أن هذا العصر هو أغنى العصور الإنجليزية على الإطلاق أدباً وفكراً.

ويجد القارئ متابعة دقيقة لكل أديب في مراحل حياته المختلفة،وتناولاً لأعماله وتعليقاً عليها ، مما يلقي الضوء على حياة الأديب ونتاجه ، وهذا مفيد لطلاب الأدب الإنجليزي في الكليات والجامعات كونه يقدم صورة شاملة مفصلة عن كل أديب ،كما يحث القارئ المهتم على طلب المزيد ـ إن أراد الاستزادة ـ في الموسوعات وأمهات الكتب والمراجع المتوفرة في المكتبات العامة أو الخاصة.

وللإفادة، فقد كانت أهم مراجعي في كتابة هذه السير ما يلي:

1. The Encyclopedia Britannica .
2. New Standard Encyclopedia .
3. The Encyclopedia Americana .
4. World Book .
5. The Norton Anthology of English literature .
6. Dictionary of National Biography .
7. Readers Digest Great illustrated Dictionary .
8. Aconcise Treasury of Great Poems .

هذا إضافة إلى عشرات المراجع باللغتين العربية والإنجليزية في أدب التراجم والنقد الأدبي.

وفقنا الله لما فيه خير الأمة جمعاء

نواف نصار

٢٨تشرين أول ١٩٩١م

العصر الوسيط
(١٠٦٦ ـ ١٥٠٠م)

يبدأ هذا العصر بانتصار دوق نورمانديا ـ الذي لقب فيما بعد بوليم الفاتح ـ على الإنجليز عام ١٠٦٦ في معركة هستنغز على القنال الإنجليزي وتتويجه ملكاً على إنجلترا منهياً بذلك الحكم السكسوني وبادئاً الحكم النورمندي الفرنسي،وقد عزز وليم النظام الإقطاعي لامتلاك الأراضي التي كان يقوم على خدمتها العبيد، إلا أن هذا النظام أخذ يتلاشى في القرنين التاليين بظهور الأسلحة الجديدة وأهمها المدفع مما أدى إلى القضاء على سلاح الفرسان، وتلاشي أهمية القلاع.

أما سلطة الكنيسة،فقد تراجعت كثيراً وتعرضت للانقسام نتيجة الصراع على الخلافة البابوية. وقام ويكلف (١٣٢٩ ـ ١٣٨٤) الأستاذ في جامعة أكسفورد بترجمة الإنجيل إلى الإنجليزية ـ وكان ذلك محظوراً ـ وأرسل أنصاره لنشر فلسفته في الأقاليم القائلة بنفي سيادة البابا، وأن الله يباشر سيادته على الأرض بدون وسيط، لذا على السلطة الدينية أن لا تتدخل في الشؤون الدنيوية، وقد كان هذا الاجتراء على تلك السلطة في جانب ملوك أوروبا في صراعهم ضد سلطة البابا.

على الصعيد الأدبي، عادت اللغة الإنجليزية لتأخذ مكانتها بعد الطغيان اللاتيني والفرنسي اللذين داما أكثر من قرنين، بدأ الكتاب يكتبون باللغة الإنجليزية، وفي مقدمة كتاب هذا العصر جيوفري شوسر (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠) صاحب حكايات كانتربري، ومن معاصريه الشاعر جون جوور (١٣٣٠ ـ ١٤٠٨) الذي عبر في أعماله عن موقف الطبقة الحاكمة من الطبقة الفقيرة ، والشاعر وليم لانجلاند (١٣٣٢ ـ ١٤٠٠) الذي يعتقد أنه أحد مؤلفي قصة "مشهد وليم وليومان" الناقدة للنفوذ الكنسي والطبقية وغياب المساواة.

ومن أهم خصائص هذا العصر ظهور القصيدة القصصية The Ballad التي تحكي قصص أبطال الإنجليز،وقد مارس هذا الفن شعراء كثيرون في إنجلترا، كما ظهرت المسرحية الخلقية Morality play وموضوعها الصراع بين الخير والشر، وتفوق الخير في النهاية ، وإنقاذ الروح الإنسانية.

على صعيد آخر أدى اختراع الطباعة في ألمانيا إلى أن يقوم وليم كاكستون (١٤٢١ ـ ١٤٩١) بتأسيس أول مطبعة في إنجلترا، وذلك في عام ١٤٧٦م، فتم طباعة حكايات كانتربري وموت آرثر للسير توماس مالوري ، وغيرها من الأعمال الأدبية المحلية والأجنبية المترجمة التي صارت في متناول القراء.

ولا نغفل في هذا العجالة أثر أعلام الأدب الإيطالي على الأدب في إنجلترا، وفي طليعة هؤلاء بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) الذي يعتبر أبو النثر الإيطالي الكلاسيكي، والشاعر دانتي (١٢٦٥ـ ١٣٢١) صاحب الكوميديا الإلهية، والشاعر والعالم بترارك (١٣٠٤ـ ١٣٧٤) .

عصر التجارة والاستعمار: كان هذا العصر عصر الحركة والازدهار والتجارة الدولية، وبذلك ظهرت طبقة ثرية مرفهة تقابلها طبقة فقيرة مثقلة بالضرائب،وقد أدى هذا الوضع إلى صراع بين الطبقتين، وقد عبر عن هذا الصراع الشعراء جون بول ولانجلاند وجوور.

وارتفعت في هذا العصر الروح الوطنية الإنجليزية وبلغت أوجها في عصر إدوارد الثالث وولده الأمير الأسود (إدوارد أمير ويلز) وذلك بانتصاراتهما التي حققاها على الأراضي الفرنسية في معارك كريسي (١٣٤٦) وبويترز (١٣٥٦) وهذا أدى إلى انفصال جزئي لإنجلترا عن كنيسة روما، وانفصال تام عن الارتباط السياسي بفرنسا.

١- تشوسر
(١٣٤٠م؟ ـ ١٤٠٠م)

يعد شوسر أعظم شعراء الإنجليز قبل شكسبير، وكذلك يضعه النقاد بين الشعراء البارزين في عصور الأدب الإنجليزي كلها.

وبالرغم من أن تاريخ ولادة جيوفري شوسر الدقيق لا زال غير مؤكد، فإن لدى الدارسين كمية مدهشة من المراجع التي تخبرهم عن حياته وعمله الحكومي، فهناك أكثر من ٣٠٠ مرجع في السجلات الحكومية الرسمية تخبرنا عنه.

ولد الشاعر جيوفري تشوسر في لندن عام ١٣٤٠ (وهو التاريخ الأرجح لولادته)، أما والده فهو جون تشوسر وكان تاجراً يعمل في تجارة الخمور والجلود، وذا علاقة بالبلاط الملكي، فقد كان وكيلاً لكبير خدم الملك، وفي عام ١٣٣٨ اشترك في حملة الملك إدوراد الثالث على منطقة فلاندرنر (جزء من بلجيكا اليوم) وكانت له أملاك في ابسويتش ولندن،وقد توفي جون تشوسر عام ١٣٦٧ وعمره ٥٣ عاماً.

ولا تكاد المراجع تذكر شيئاً عن طفولة جيوفري تشوسر ولا عن تعليمه، فحياته حتى عام ١٣٥٧ مجهولة، ولكن مؤرخي حياته يتوقعون أنه التحق ببعض المدارس المتوسطة التي كانت موجودة آنذاك، كذلك يتوقعون التحاقه بجامعة كامبردج لأنه ذكرها في شعره في قصته ''قصر الحب ''،وهناك ذكر لجامعة اكسفورد في قصائد أخرى، إلا أن أعماله لاحقاً تدل على إتقانه التام للغة الفرنسية إتقانه للإنجليزية، كذلك كان متفوقاً في الإيطالية واللاتينية، كما يدل إنتاجه الأدبي على اطلاعه الواسع العميق على أشهر الأعمال الأدبية في عصره والعصور التي سبقته.

ويظهر تشوسر عام ١٣٥٧ خادماً في منزل ليونيل دوق كليرنس (١٣٣٨ ـ ١٣٦٨) ، الذي كان يكبره بعامين أو ثلاثة، وهو الابن الثالث للملك إدوارد الثالث، ولعل تجارة الخمر المزدهرة في ذلك الزمن سبب هذا التطور، كذلك علاقة أبيه

بالبلاط التي مهدت علاقاته المبكرة بالقصور والملوك، وخلق مثل هذه الفرص لا شك أنه كان يحتاج إلى تعليم مسبق لا جدال أن تشوسر قد حصل عليه في وقت سابق.

وفي عام ١٣٥٩ اشترك تشوسر في حملة الملك إدوارد الثالث على فرنسا خلال الحرب المقدسة، وقد أسر تشوسر أثناء حصار فاشل لمدينة ديمز، إلا أن الملك افتداه، وعاد تشوسر يعمل بين الدولتين خلال مباحثات السلام عام ١٣٦٠.

وتختفي آثار تشوسر مدة ٦ ـ ٧ سنوات فلا نعرف عنه شيئاً،في حين توفي والده عام١٣٦٧، وتزوجت أمه على الفور،أما تشوسر فيبدو أنه كان يعمل في خدمة الملك، بدليل أن الملك هو الذي افتداه وليس الأمير ليونيل، والدليل الآخر إصدار الملك له جواز سفر مع ثلاثة مرافقين لدخول إسبانيا في شباط ١٣٦٦ في بعثة دبلوماسية، وفي حزيران من العام ذاته أهداه الملك منزلاً، وفي هذا العام تزوج تشوسر ''فيلبيا دي روت'' والتي كانت تعمل في خدمة الملكة، ولهذه الفترة تنسب زمنياً ترجمته للقصيدة الفرنسية '' **قصة الوردة** '' التي نظمها في القرن الرابع عشر غليوم دي لوري باستعماله المجاز والكتابة، والتي تروي ـ في شكل حلم ـ تطور قصة حب، ولما مات دي لوري، أكمل القصيدة جين دميون، وفي هذا الجزء يتمكن المحب من الحصول على حبيبته الوردة، ويتخلل أحداث القصيدة وتضامينها وصف ساخر لقضايا الحياة في العصور الوسطى.

وفي عام ١٣٦٧ تلقى إعانة سنوية مدى الحياة وذلك مقابل عمله مساعداً للملك، وفي السنة التالية وضع ضمن قائمة فرسان الملك الذين يعملون في البلاط ويؤدون واجبات ذات أهمية وتحظى بالاحترام، وباختصار كانت أحواله مزدهرة في هذه الفترة، ولعل أول قصيدة مهمة له ـ **كتاب الدوقة** ـ دليل واضح على علاقاته وصلاته بأناس من طراز رفيع، وهي قصيدة تقع في ١٣٠ بيت كتبت على الأرجح في أواخر عام ١٣٦٩ ومطلع العام التالي رثاء للسيدة بلانش دوقة لانكستر التي ماتت بالطاعون في أيلول عام ١٣٦٩، وفي هذه القصيدة يستعمل تشوسر ''منظر الحلم ''

ذلك الأسلوب الأدبي المستعمل في العصور الوسطى والذي كان فيه الشاعر يدعي ويروي ما شاهده في منامه شعراً،ويبدو في هذه القصيدة تأثره الواضح بالشعر الفرنسي، وكذلك بشاعره الروماني المفضل "أوفيد"، ومع أن القصيدة ليست فلسفية ولا دينية مهيبة، إلا أن معالجة الشاعر لموضوع الحلم بصوره وأخيلته يبدو مفعماً بالحياة مؤثراً خلاقاً، ويبرز الشاعر وأبدع في وضعه الصور المتناقضة بجانب بعضها مثل (غابة خضراء، رجل بثياب سوداء)، ويؤذن هذا العمل بمهارة تشوسر في تقديم الإيقاع والأوزان المحدثة في حدود شعر العصر الوسيط،وفي خلق شخصيات واقعية ضمن تقاليد شعرية تليق بالبلاط، وإجمالاً.. العمل كله كان ناجحاً وأصيلاً خاصة أنه العمل الأول للشاعر.

ويشتغل في السبعينات من هذا القرن ببعثات ومهام دبلوماسية وتجارية وعسكرية عدة يكلفه بها القصر إلى إيطاليا وفرنسا وفلاندرز، ففي عام ١٣٧٢ كلف بزيارة إيطاليا لإجراء مباحثات حول الحصول على ميناء تجاري إنجليزي، وقروض للملك إدوارد الثالث، وفي عام ١٣٧٧ قام بمهمة سرية إلى فلاندرز مع السير توماس بيرسي، وفي عام ١٣٧٨قام برحلة إلى فرنسا وقابل بعض السفراء في مفاوضات لزواج ريتشارد الثاني من أميرة فرنسية، وفي العام ذاته قام بزيارة أخرى إلى إيطاليا وأجرى مباحثات عسكرية في ميلان، ولعل هذه الزيارات قد أتاحت له الإطلاع على أعمال بترارك وبوكاشيو ودانتي وغيرهم من جهابذة الأدب الإيطالي، وكانت هذه الفترة فترة رخاء مالي بالنسبة له، فقد صدر أمر بأن يعطى نصيباً من الخمور التي تخص الملك ليستلمها من كبير خدم الملك في الميناء، ثم استبدل هذا العطاء بمبلغ مالي، وفي العام التالي منح منزلاً ومبلغاً سنوياً، كما فرض له أدموند حاكم كنت مبلغاً سنوياً لرعاية أراضيه وأملاكه ، وفي عام ١٣٧٦ منحه الملك مبلغاً كبيراً من المال، وكان الملك قد أمر عام ١٣٧٤ بتعيين تشوسر مسؤولاً لجمارك الصوف والجلود في ميناء لندن.

ومع كل هذه المشاغل يجد شاعرنا وقتاً للكتابة، ففي هذه الفترة نظم" **بيت الشهرة**" في ألفي بيت، وهي كسابقتها نظمت على طريقة الحلم، إذ يحلم الشاعر أنه في معبد الآلهة فينوس حيث الجدران مزينة بقصة أنياد لفرجيل، فيلخص الشاعر القصة، وعندما يغادر المعبد، يجد نفسه أمام نسر ذهبي ثرثار، فيحمل الشاعر إلى السماء، ومن خلال حديثه مع النسر يكتشف أنه قضى عمره في القراءة بدون أن يحس بما يجري في العالم، وبالذات هو جاهل بالحب ومكائده، فيخبره النسر أنه سيستمع إلى أخبار عن أهل الحب، ولخدمته فينوس وكيوبيد فسوف يحمل إلى بيت الشهرة ليعرف أكثر من الحياة، ولما وصل إلى معبد الآلهة **Fame** وجد الآلهة تمنح الشهرة وتمنعها بشكل عشوائي، فتوجه إلى بيت الأخبار المليء بالتقارير الصحيحة والكاذبة، وبينما هو يبحث في أخبار الحب برز له رجل ذو نفوذ عظيم ، وهنا تتوقف القصيدة بدون سبب واضح ربما لضياع الباقي، أو أن الشاعر لم يجد ما ينهيها به.

ولا يعد هذا العمل ناجحاً كثيراً، فمغزاه غير واضح، واختلاف أجزائه ضيع هدفه، ولكنه يقدم دليلاً على تقدم تشوسر في قدرته كشاعر، بجانب سخريته وتهكمه خاصة في تقديمه للحب والشهرة اللذين بدلاً من أن ينيرا للحالم ويهدياه، نراهما تقاوماه، فلا الشهرة ولا الحب يصيبان نجاحاً لتحسين صورتهما عند تشوسر، فهما كأي شيء دنيوي، نزوي زائل.

وفي مطلع الثمانينات يضاف إلى عمل تشوسر في الجمارك مهمة أخرى وهي جمارك الخمور وبضائع أخرى، ولكنه في تشرين أول ١٣٨٦م يعطي منزله لشخص آخر، كذلك في كانون أول من العام ذاته تمنح أعماله في الجمارك لآخرين ربما لاستقالته أو لنقله إلى عمل آخر، وفي عام ١٣٨٥عين قاضياً للصلح لمنطقة "كنت" ليحضر جلسات البرلمان في تشرين أول، وانتقل إلى السكن في " كنت" ، مما يشير إلى نواياه لترك الجمارك، وفي هذا العام تمكن توماس أوف ورد ستوك ايرل بكنجهام (١٣٥٥ ـ ١٣٩٧)(وهو الابن السابع والأصغر للملك إدوراد الثالث) وأعوانه من

هزيمة ريتشارد الثاني، وقبض على سلطة الملك وإدارته، مما سبب طرد عدد من أعوان الملك السابقين ومنهم تشوسر، ولعل هذا من أسباب تركه لندن، وفي العـام التـالي توفيت زوجته.

وكانت الفترة الواقعة بين عام ٨٦ ـ ١٣٨٩ صعبة على تشوسر بـالرغم مـن إعادته قاضياً للصلح، إلا أنه لم يعد إلى البرلمان، ومنح جوازاً لمدة عـام للرحيـل إلى كالايس (ميناء في فرنسا) إلا أنه لم يفعل، ولاحقه الدائنون، فاضطر لبيع منزله الملكي، وفي شباط عام ١٣٨٨، بدأت حملة مطاردات لأنصار الملك السابق، وأعدم عدد من أصدقاء تشوسر، ولما استعاد الملك ريتشارد الثاني عرشه في أيار عام ١٣٨٩، أعيد إلى البلاط ككاتب لأعمال الملك ومسؤول عن صيانة مباني الدولة.

ورغم هذه الأحوال العاصفة في هـذا العقـد، إلا أن تـشوسر لم ينقطـع عـن الكتابة، فقد كانت بالنسبة إليه الأمل الـذي يفـزع إليـه في سـاعات الـضيق، إلا أن الشيء الغريب في كتاباته هذه أنها لم تعكس الواقع السياسي لإنجلترا الـذي عايـشه الشاعر، فقصيدته ''**برلمان الطيور**'' التي تقع في ٦٩٩ سطراً ـ التي هجر فيها الطريقة الفرنسية ذات المقطع ذي الثماني سطور على أسلوب ابتدعه وهو المقطع ذو السبعة سطور ـ يربط فيهـا بـين الأحـلام والكتـب ـ كعادتـه ـ مكتـشفاً الطبيعـة اكتـشافه للتشعبات الاجتماعية في الحب، فبعد قراءته ''حلم سيبو'' للشاعر سيسيرو، يحلم الراوي باجتماع أسراب من الطيور في يـوم القـديس فـالنتين أمـام الآلهـة لاختيـار أصدقائها، وتحت لحن القصيدة المرح الساخر، يمتحن الشاعر أنواع الحب، باحثاً ـ بلا جدوى ـ عن جواب، ويقنع نفسه أنه يجب أن يبحث في كتب أخرى،وتـشوسر هنـا مدين بدرجة كبيرة للشاعرين بوكاشـيو ودانـتي، ويـربط الدارسـون بـين القـصيدة وأحداث وقعت في القـصر، وبالـذات زواج ريتـشارد الثـاني مـن الأمـيرة آن ابنـة إمبراطور بوهيميا عام ١٣٨٢، إلا أن هذا الربط يفتقر إلى الأدلة والبراهين لإثباته.

وبعض النقاد يعتبرون قصيدته **كرويلوس وكريسيدا** ذات الـ ٨٥٠٠ سطر أعظم أعماله وأروعها ـ رغم اقتباسه حوالي ثلثها من عمل لبوكاشيو ـ وفيها يعود تشوسر إلى سجلات التاريخ ، ويستلهم من حرب طروادة قصة الحب هذه، هذه الحرب التي ألهمت أدباء أوروبا العديد من قصص الخرافات، حتى شكسبير نفسه نحا هذا النحو في أصعب مسرحياته لاحقاً، وكرويلوس هو ابن الملك القرطاجي ''بريام '' وكريسيدا ابنة الكاهن المحارب '' كالكاس'' وبمساعدة باندوراس عم كريسيدا يتحد العاشقان حباً ووفاء في منتصف القصيدة، ولكن كريسيدا تتسلل لتنضم إلى أبيها في معسكر اليونانيين خارج قرطاجة، ووعدت بالعودة خلال عشرة أيام، إلا أنها وجدت ذلك مستحيلاً كون حبيبها لا يرغب في الهروب معها إلى صف اليونانيين، لذا لا تبر بوعدها، وتمنح حبها ''لديومين'' اليوناني، بينما يقتل ترويلوس في أحد المعارك بعد يأسه منها.

في هذا العمل يكشف تشوسر ببراعة وتعاطف معاً، التعقيد الواسع لعلاقة الحب، فقد كان ـ كشاعر وكإنسان حساس ـ واعياً المشاكل التي يرويها في تقديم هذه العلاقة بأمانة وصدق، أما المغزى ـ وهو عدم إخلاص النساء ـ فلم يكن تراجيدياً فحسب، بل مليئاً بالسخرية والتهكم، وفي حين كان الاستبطان النفسي مروعاً حديثاً يحث على أن تقرأ القصيدة كرواية معاصرة.

وفي هذه الحقبة، أتيح لتشوسر أن ينظم عمله الرابع والأخير من مشاهد الأحلام، إنه قصيدته ''**أسطورة النساء الطيبات**'' التي لم ير فيها الدارسون شيئاً من النجاح مثلما رأوا في سواها من أعماله، وهو يبدأ بمقدمة للقصيدة يتبعها بتسع قصص،وفي المقدمة تسخط الآلهة على الشاعر لأنه كتب الكثير عن النساءالخائنات ولم يكتب عن الطيبات، لذا كتب هذه الأسطورة ككفارة لما جنته يداه، والقصص التسع عن شخصيات قديمة أمثال كليوبترا، ديدو، لوتريس، فيلويلا، وغيرهن من ضحايا الحب والعشق، إلا أن هذه الأقاصيص آلية مختصرة، لذا بدا العمل أسطورة الرجال

الخونة أكثر من كونه عن النساء الطيبات، وكان الشاعر ينوي نظم عشرين قصة على هذا المنوال إلا أنه توقف بعد القصة التاسعة، إذ يبدو أنه قد مل تكرار هذه القصص على نفس النسق والمغزى، ولكن الشاعر حصل على التدريب اللازم في العمل القصصي لعمله الأعظم الخالد "**حكايات كنتربري**" .

وحكايات كنتربري ـ التي يقترن اسم تشوسر دائماً بها ـ مجموعة ـ الحكايات، اثنين وعشرون منها وضعها شعراً، واثنتين نثراً، ويرويها عدد من الحجاج الذاهبين إلى مقام القديس توماس في كنتربري، إذ يشير عليهم صاحب المنزل ـ الذي تجمعوا فيه قبل الرحلة ـ بأن يقص كل واحد منهم قصتين ذهاباً وقصتين إياباً، وذلك تخفيفاً لوعثاء السفر ومتاعبه، ووعد صاحب المنزل راوي أفضل قصة بغداء فاخر في نزله حين العودة،وبالطبع فإن هؤلاء الحجيج من مستويات اجتماعية مختلفة، فمنهم التاجر والمحامي والكاتب والراهب والمتسول والفارس والنجار والحائك.. الخ، ولكن تشوسر لم يكمل هذا العمل الكبير، ذ لم يكتب شيئاً عن رحلة الإياب، ولا يثبت من رحلة الذهاب سوى ٢٤ قصة ولا أثر لأقاصيص الإياب.

وكبقية أعماله، فإن تشوسر متأثر بسواه من الأدباء،فهو هنا ينقل عن بوكاشيو، فقصص الموظف والملاك والنوتي منقولة عن "ديكامرون" لبوكاشيو، إلا أن الأصالة غير مفقودة في عمله هذا، فظاهر للقارئ المتمعن أن تشوسر قد قرأ كثيراً فأعطته قراءاته وثقافته أفكاراً، ومعرفته العميقة بأصناف البشر في مختلف مستوياتهم وبيئاتهم ونشاطاتهم البشرية أعطته شخصيات يعرف أساليب تفكيرها وهمومها ومواقفها من القضايا التي تشغل المجتمع الانجليزي،فكانت "حكايات كنتربري"نتيجة لهذا الدمج الرائع الذي استغرقه وقتاً طويلاً قد يصل إلى ١٤ عاماً (١٣٨٦ ـ ١٤٠٠) .

وكان تشوسر عام ١٣٨٩ قد عمل كاتباً للملك ما بين تموز ١٣٨٩ وحزيران ١٣٩١، وفي هذه الفترة تعرض للسرقة عدة مرات، وفي إحداها اعتدي عليه، وبعد

ذلك عين مسؤولاً عن منتزه الملك في"سوسرست" وهو عمل بقي يمارسه حتى وفاته، وتوضح سجلات الدولة أنه كان في هذه الفترة على علاقة وطيدة بالملك هنري الرابع، وتلقى الكثير من الأعطيات والهدايا الملكية، ولما أطاح الملك ريتشارد الثاني بهنري الرابع وتولى العرش، دعم تشوسر ووطد مكانته في القصر، وفي كانون أول عام ١٣٩٩ استأجر بيتاً في حديقة وستمنستر أبي،ولكنه توفي في الخامس والعشرين من تشرين أول ١٤٠٠ ودفن في وستمنتسر مقبرة العظماء والمشاهير.

ومع أن السجلات لا تذكر شيئاً عن فن تشوسر، أو أي نقد لأعماله، فإن عدداً من شعراء عصره امتدحوه وأثنوا عليه، ومنهم: توماس أسك وجون جوور، ومن الفرنسيين أستاش ديشامبس، ويعتقد أنه قد تعرف بالشاعرين الفرنسيين جليوم ديشانت وجين فروسارت.

أما عن أسرته فلا تثبت المراجع عنها الشيء الكثير سوى ذكرها ولده لويس الذي ترجم له والده مقالة عن آلة الإسطرلاب الفلكية، أما ولده الأكبر توماس (١٣٦٧ ـ ١٤٣٤) فكان من رجال الدولة، وتلقى أعطيات ملوك زمانه،وكان على جانب من الثراء.

من شعره

حكايات كنتربري

المقدمة (1)

عندما أدركت أمطار نيسان شهر أذار
نافذة إلى جفاف الجذور العطشى
ساقية كل عرق بتلك الدفقة من القوة
لتبدأ قوة جديدة في الزهرة
ولما تنفس الهواء الغربي بدفء لطيف
موقظاً في كل غابة ومرج قاحل
الأوراق الغضة،ولما ظهرت الشمس الربيعية
آخذة سبيلها في أول طلوعها
وعندما بدأت الطيور الصغيرة تعرف ألحانها
بعد أن نامت طوال الليل بعيون مفتوحة
بعد ذلك،اشتاق الناس للذهاب إلى الحج
وسار الحجاج إلى الشواطئ الغربية
إلى الأضرحة المشهورة، ومهما كانت الأراضي بعيدة
خاصة عند نهاية كل مقاطعة من إنجلترا
إلى كنتربري مضى الحجاج
باحثين عن الشهيد المقدس المبارك
الذي يساعدهم ويشفي عللهم،ويمنحهم الراحة

---

(1) Great Poems by Louis Untermeyer. 23rd printing , page 16 .

عصر النهضة
(١٥٠٠م ـ ١٦٦٠م)

البدايات:

بدأت النهضة في إنجلترا بحكم الملوك من أسرة تودور (١٥٠٠ ـ ١٥٥٨) وخلال ذلك حصل التخمر الفكري للنهضة،وازداد عدد السكان بسرعة، وكثرت المدن، وانقضى عصر الإقطاع، وساهمت الطباعة في التقليل من الأمية بظهور الكتب التثقيفية وكتب التسلية، وأضحت كتب الأدب متاحة للجميع، ومنها تراجم هومر وفرجيل وبلوتارك، هذه التراجم أرست قواعد الأدب الإنجليزي الذي ازدهر وترعرع خلال العصر الاليزابيثي، وأصبح البلاط مركزاً لرعاية الأدب الذي يمجد الأمة والأسرة الحاكمة، لذا ظهر شعر البلاط مقلداً مُثّله في أشعار البلاط في الدول الأخرى.

ومن أهم أعلام هذه الفترة هو السياسي والكاتب توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) صاحب ''يوتوبيا'' أو ''المدينة الفاضلة'' التي تصور المجتمع المثالي حيث لا وجود للشر، وروجر اسكام (١٥١٥ ـ ١٦٠٣) مؤلف ''مدير المدرسة''و''الرسالة التعليمية '' التي تصور المجتمع المثالي أيضاً .

العصر الإليزابيثي :

سمي كذلك لاقترانه بحكم الملكة إليزابيث الأولى (١٥٣٣ – ١٦٠٣) ابنة الملك هنري الثامن من زوجته آن بولين، والتي يعتبر عصرها أزهى عصور التاريخ الإنجليزي، فقد أوجدت نوعاً من التوازن بين البروتستنت والكاثوليك،وكسياسية واعية اتخذت أفضل المستشارين. وبالتالي أسست حكومة قوية قادرة،وفي عهدها امتلكت إنجلترا أقوى الأساطيل، وسحقت الأسطول الإسباني في موقعة الأرمادا الشهيرة عام ١٥٨٨،واشتهر في عصرها الأميرال فرانسيس دربك الذي دار حول العالم وحظي بتقدير كبير من الملكة.

ازدهر الأدب في هذا العصر، ورعت الملكة الأدباء، وقد كانت هي نفسها شاعرة متذوقة للآداب والموسيقى والرقص، واشتهر في بلاطها الشاعر فيليب سدني (١٥٥٤ ـ ١٥٨٦) الذي ربط بين نثره وشعره في رومانسية رعوية دعاها ''اركاديا''، كما نظم ''استروتل وستيلا'' على طريقة السونيتا.

كما اشتهر في عصرها أدموند سبسنر (١٥٥٢ ـ ١٥٩٩) الذي نظم أول ملحمة شعرية إنجليزية بعنوان'' **ملكة الجن** ''كما نظم مجموعة من أشعار الحب بطريقة السونيتا بعنوان '' **أموريتي**''.

أما الفن المسرحي فقد حقق نجاحاً كبيراً في العصر الإليزابيثي، فقد أنشأ جيمس بربيج عام ١٥٧٦ أول مسرحية إنجليزية دعاها ''**المسرح**'' تلاه مجموعة من خريجي جامعتي كمبردج وأكسفورد،هم روبرت جرين وتوماس كيد وجون ليل وتوماس ناش وجورج بيل، هذه المجموعة أسست أسلوب المسرح الإليزابيثي المعروف ''**بماساة الدم**'' المثير المرعب، وكانت ترى أنها أعلى من الأحوال البدائية للمسرح الإنجليزي، فتوماس كيد مثلاً ألف ''**المأساة الإسبانية**'' التي ظلت تفتن الجمهور لعدة عقود تلت إنتاجها عام ١٥٨٧.

أما كريستوفر مالرو (١٥٦٤ ـ ١٥٩٣) الحاصل على البكالوريوس والماجستير من جامعة كمبردج والذي عاش حياة قصيرة صاخبة غامضة، فقد ساهم في جعل الشعر الحر شعبياً بإنتاجه ثلاثة مسرحيات تراجيدية وهي: **ترامبولين، دكتور فاوست، يهودي مالطة**، وعاصره صديقه بن جونسون (١٥٧٢ ـ ١٦٢٧) الذي لم يتح له الالتحاق بالجامعة لفترة، وكان صديقاً لشكسبير منافساً له، وكان مقلداً بحزم لأسلوب المسرح القديم، وألف: **الثعلب، والكيميائي**، وهما كوميديتان .

أما شكسبير (١٦٦٤ ـ ١٥١٦) فلا تكاد السطور القادمة تفيه شيئاً من حقه، فهو كبير مسرحيي العالم بدون منازع، وقد عمل كاتباً ومديراً وممثلاً، وبدأ

بالمسرحيات التاريخية مثل: هنري السادس، ريتشارد الثالث، ثم الكوميديات مثل: **سيدان من فيرونا، ترويض الشرسة، الصاع بالصاع، جلبة بلا سبب**، ثم جاءت الفترة الثالثة وهي قمة نضوجه وفيها كتب التراجيديات الكبرى مثل: **الملك لير، مكبث، عطيل**،وأشهر مسرحية في التاريخ: **هاملت**، وقد كان مجموع أعماله المسرحية ٣٧ مسرحية شعرية إلى جانب إنتاجه الشعري الضخم.

عصر الإنحدار: أما الفترة الثالثة فهي فترة إنحدار النهضة في عهد ملوك آل ستيوارت: جيمس الأول (١٥٦٦ ـ ١٦٢٥) وحكم فيما بين (١٦٠٣ – ١٦٢٥) وشارلز الأول (١٦٠٠ ـ ١٦٤٩) وحكم ما بين (١٦٢٥ ـ ١٦٤٩)، وشارلز الثاني (١٦٣٠ ـ ١٦٨٥) وحكم ما بين (١٦٦٠ ـ ١٦٨٥).

فبينما استطاعت اليزابيث إيجاد التوازن بين الكاثوليك والبروتستانت، جاء الملك جيمس وشارلز الأول لينحازا ضد البروتستانت واضطهداهم، مما أدى إلى حرب أهلية وفرار عدد كبير من البروتستانت إلى أميركا الشمالية، وبلغ السخط بهم أن حاول جماعة منهم تفجير البرلمان بمجلسيه خلال وجود الملك وعائلته معهما، وقد اكتشفت المؤامرة في اللحظة الأخيرة، وسميت لاحقاً ‘‘بمؤامرة البارود‘‘ وقد أعدم بعض المتآمرين.

وقد خاض الملكان جيمس وشارلز الأول صراعات كثيرة مع البرلمان على خلافات مالية، وألغى شارلز الأول الحياة البرلمانية عام ١٦٢٩متبعاً المبدأ الذي ساد أوروبا آنذاك وهو: ‘‘الحق الإلهي للملوك‘‘ وبعد أن نشبت الثورة في إيرلنده عام ١٦٤١ تبعتها الحرب الأهلية بين الملك وفرسانه ضد البرلمان ومؤيديه عام ١٦٤٢، وأعلن شارلز إذعانه للبرلمان عام ١٦٤٧ ثم أعدم عام ١٦٤٩، وألغيت الملكية في إنجلترا وأعلنت الجمهورية ونصب كرومويل ـ عضو البرلمان ـ نفسه وصياً على عرش البلاد عام ١٦٥٣حتى وفاته عام ١٦٥٨،وخلفه ابنه ريتشارد الذي حكم عاماً ثم استقال، وخلال فترة الأزمات هذه ظل البرلمان يحكم إنجلترا حتى عودة آل ستيوارت

بتنصيب شارلز الثاني ملكاً عام ١٦٦٠ حتى وفاته عام ١٦٨٥.في هذه الفترة امتد نشاط شكسبير ـ كما أسلفنا ـ ونظم تراجيدياته حتى وفاته عام ١٦١٦.

وقد عكس الأدب في هذه الفترة الصراع بين أنصار الملك وأنصار البرلمان، ولما انتهى الصراع بتغلب أنصار البرلمان أقفلت المسارح، ثم أعيد فتحها بعودة الملكية.

أهم شاعرين ظهرا في هذه الفترة هما:

١. **جون ملتن**:(١٦٠٨ ـ ١٦٧٤)،أصيب بالعمى وهو في الرابعة والأربعين وكان مؤيداً لأنصار البرلمان، صاحب العمل الخالد الموسوم باسمه: **الفردوس المفقود**.

٢. **جون دن**: (١٥٧١ ـ ١٦٣١) كتب في مواضيع شخصية ودينية أثرت في الشعراء المعاصرين له، عرف بريادته للشعر الميتافيزيقي: ما وراء الطبيعة.

ومن الشعراء الآخرين : اندرو مارفل ، روبرت هريك، وجون بنيان صاحب: رحلة الحاج.

٢- وليم شكسبير
(١٥٦٤م - ١٦١٦م)

يواجه الباحث العناء في ترجمة شكسبير، إذ لم يكتب أحد سيرته خلال حياته، ولا بعدها بفترة قصيرة، لذا يعتمد الدارسون ومترجمو حياته على مصادر أربعة هي:

أولاً: الوثائق الرسمية التي توثق تواريخ التعميد والزواج والوفاة.

ثانياً: ما يرويه الرواة - قد بدأت رواياتهم بعد مئة عام من وفاته.

ثالثاً: أدب معاصريه.

رابعاً: أعمال شكسبير الأدبية.

ولد وليم شكسبير في الثالث والعشرين من نيسان ١٥٦٤م، عرف ذلك من سجل التعميد في كنيسة الثالوث المقدس في ستراتفورد، أما والده فهو جون ريتشارد شكسبير، الذي بدأ حياته مزارعاً ثم تحول إلى تجارة القفافيز والصوف والأخشاب ، وقد درت عليه تجارته أموالاً رفعت من شأنه الاجتماعي في البلدة، فانساق مع العمل السياسي مؤثراً إياه على أعماله الخاصة، وأصبح عمدة البلدة، وقد أثر هذا الاهتمام الجديد على تجارته مما أدى به إلى الإفلاس خاسراً المنصب والتجارة معاً.

أما أم الشاعر فهي ماري روبرت آرون، وهي ابنة مزارع ثري من منطقة ولمكوت، وهي الأخت الصغرى لست أخوات يكبرنها، وقد تم زواجها بوالد الشاعر في خريف ١٥٥٧ كما ثبت في سجلات كنيسة ولمكوت،وكانت ماري قد حصلت شيئاً من العلم والثقافة ساهماً في تعليم ولدها وليم وليدها الثالث بعد ابنتها البكر جوان المولودة عام ١٥٥٨ ومارغريت المولودة عام ١٥٦٢، وكلاهما مات في طفولته، كما أنجبا الابنة آن عام ١٥٧١ (ماتت عام ١٥٧٩) والذكور جيلرت (١٥٦٦) وريتشارد (١٥٧٤) وإدمون (١٥٨٠) والابنة جوان (١٥٦٩) .

أرسل وليم إلى مدرسة ستراتفورد وهو في السابعة، ومكث بها ثماني سنوات تعلم فيها اللاتينية، ولا يظهر في أعماله أي إعجاب أو حب للمعلمين، بل ما يظهر

هو العكس، ويثبت ذلك النظرية القائلة أن ما استفاده من علم وأدب كان من مطالعاته لأعمال الكتاب القدماء أمثال: أوفيد وبلوتس وهوراس وسيسيرو وفرجيل.

وقد أدى إفلاس الوالد إلى ترك وليم المدرسة وانخراطه في العمل، وتختلف آراء المؤرخين في تحديد العمل الذي مارسه، فمنهم من قال أنه عمل في متجر أبيه، وآخرون زعموا أنه عمل مدرساً في الأرياف، وبعضهم قال أنه عمل لدى أحد المحامين مستدلين على ذلك باستعماله إشارات وتشبيهات في مسرحياته تدل على معرفة وثيقة بالقوانين.

ولكن كل من أرخوا لحياته لا يختلفون على أنه قد تزوج عام ١٥٨٢ ''آن هاثواي'' ابنة أحد المزارعين، وكان هو في الثامنة عشرة، وهي في السادسة والعشرين و أنجبا سوزان عام ١٥٨٣، والتوأمين جوديت والابن هانت عام ١٥٨٥ (الذي توفي عام ١٥٩٦) .

ويكتنف الغموض حياة شكسبير بعد هذا التاريخ مدة ست سنوات، فقد تواترت الروايات، وتعددت الأقاويل ، وتشعبت الآراء في ملء هذا الفراغ في ترجمته،وجاء أكثرها رجماً بالغيب بدون استناد إلى وقائع ثابتة أو وثائق تؤكدها.

فمن المؤرخين من يقول أنه غادر بلاده في رحلة بحرية إلى إيطاليا، يشهد بذلك أوصافه لهذه البلاد وصف مشاهد خبير، وآخرون زعموا أنه قد انضم إلى فرقة تمثيلية زارت بلدته ورافقها إلى العاصمة لندن، ورواية أخرى يقول أصحابها أن الحاجة قد دفعته إلى العمل في التدريس في مدرسة بلدته ستراتفورد، ورواية رابعة يقول رواتها أنه قد رحل إلى لندن هرباً من عقوبة كانت ستقع عليه لممارسته الصيد في حمى النبيل توماس لوسي، وكان هذا ممنوعاً في عصره.

ويتفق المؤرخون على أنه كان يمارس التمثيل في لندن مع فرقة ''لسستر'' التي أصبحت تدعى بعد تولي الملك جيمس العرش فرقة الملك التمثيلية، وكانت أولى

بواكيره قصيدته ''**فينوس وآدونس**'' وتلاها بقصيدة ''**اغتصاب لوكريس**''وأهدى القصيدتين إلى النبيل ''ايرل ساوثمبتن'' طمعاً في رعايته، فأغدق هذا عليه المال.

المرحلة الأولى البدايات حتى عام ١٥٩٤: من الثابت أن عمله التاريخي ''**ثلاثية هنري السادس**'' كانت تعرض في لندن عام ١٥٩٢ فلا بد أن الشاعر قد مارس العمل الأدبي مدة طويلة حتى ألف هذه المسرحية، كذلك لا بد أنه قد عمل في المسرح ممثلاً مدة أخرى سبقتها حتى أدرك كنه العمل المسرحي وأسراره، مدة ٥ ـ ٧ سنوات كافية لهذا النضج الذي كان عليه قبل أن تقنع أعماله أهل هذا الفن لعرض هذا العمل الثلاثي.

ومن أعماله في هذه الفترة: '' **كوميديا الأخطاء**'' وهي عمل كلاسيكي ملتزم شكلاً ومضموناً بالوحدات الثلاث، ويبنيها شكسبير على التنكر، فيجعل من الشخصيات المغلوطة مجالاً ومصدراً للفكاهة، وهو هنا يقتبس من ''بلوتوس''، مع إضافات لا بأس بها منه كمبتدئ.

كما كتب في هذه المرحلة في الكوميديا ''**سيدان من فيرونا**'' و''**خاب سعي العشاق**'' و''**ترويض النمرة**'' **والعمل التاريخي**'' **ريتشارد الثالث**''ومأساته الميلودرامية'' **تيتس وأندرونكس**'' الحافلة بالعنف والحرب والجريمة والاغتصاب، وفيها يبدو تأثره واضحاً بأوفيد وسينيكا.

ودليل واضح على نجاح شكسبير في هذه المرحلة، تلك الوصية التي كتبها الكاتب المسرحي الشعبي (روبرت جرين) وهو على فراش الموت، ووجهها إلى رفاقه كتاب المسرح المعروفين في زمنه: ''مارلو'' و''ناش''و''بيل''يقول فيها محذراً من الخطر الداهم الذي يكاد يطيح بهم: هذه الدمى التي تتحدث بأفواهنا، تزدان بألواننا الجميلة،فيها غراب يرتدي ريشنا، هو قادر على صياغة الشعر المرسل أفضل منكم''، كما يشير إليه بأنه قادر على تغيير أوضاع المسرح.

وتتحسن أحوال الشاعر المادية بشكل ملحوظ في النصف الأول من التسعينيات، وذلك لأنه أصبح شريكاً في فرقته، وأخذ يكسب من التمثيل والكتابة ومن نصيبه في الفرقة، فها هو عام ١٥٩٤ يشتري ثاني أكبر بيت في ستراتفورد، ويتقدم في العام نفسه بطلب إلى كلية الشعارات للحصول على شعار خاص بأسرته، فحصل عليه، وأصبح هو وأفراد أسرته يحملون لقب ''جنتلمان''.

المرحلة الثانية ١٥٩٥ ـ ١٦٠٠ : الكوميديات البهيجة ـ وكان وباء الطاعون الذي اجتاح البلاد وقتل الألوف قد انتهى عام ١٥٩٤، ليعود لشكسبير نجاحه وتألقه، فكتب''**حلم ليلة صيف**''التي لم يكتب مثلها حتى ذلك الوقت على الأقل، في أصالتها وإتقانها وتفوقها، إذ يلعب العامل الرومانتيكي بخفة وجذل من خلال العشاق ـ أبطال المسرحية ـ الذين لا يتركهم الشاعر يذهبون بعيداً في حبهم وغرامهم، بل يقطع استرسالهم فيها بأمور مضحكة ونكات تبقي الجمهور متابعاً للمسرحية، ولكنه ـ الشاعر ـ يبقى متعاطفاً مع أبطاله مخلصاً لهم، ولا ينسى أن يسبغ على أجوائه الرومانتيكية أجواءً من السحر والجن التي استوحاها من الفلكلور الإنجليزي الغني بذلك.

أما مسرحيته الكوميدية ''**تاجر البندقية**''فيعود فيها إلى التنكر، ويبالغ فيه بحيث أن أقرب الناس إلى المتنكر لا يستطيعون تمييزه أو حتى معرفة جنسه الحقيقي ذكراً أم أنثى، ولكنه يبالغ حين يجعل رطلاً من لحم البطل أنطونيو ثمناً لعدم وفائه بدين اليهودي شيلوك، فهل يصدق أحد أن أنطونيو التاجر الكبير يوقع عقداً كهذا، وهل يمكن لشيلوك أن يأخذ اللحم بدون إراقة دماء، فمن ذا يقول أن اللحم يباع خالياً من الدم؟ ولكن المسرحية نجحت في تصوير الشخصية اليهودية في جشعها وقسوتها، لذا لا غرابة أن يعترض زعماء الصهيونية على هذا العمل الأدبي المتميز.

وبالإضافة إلى أعماله الكوميدية في هذه الفترة كتب أعمالاً أخرى مثل: ''**جلبة من غير طائل**''و''**سيدات وندسور المرحات**''، ويستوحي التاريخ فيكتب: ''**ريتشارد**

الثاني''و''**هنري الرابع**''و''**هنري الخامس**''،ويدع مجالاً تراجيدياً فيكتب مأساة الحب الغنائية الشهيرة: ''**روميو وجوليت**'' وهي أولى أعماله التراجيدية العظيمة، إنها قصة الحب المخلص النقي الذي يجمع بين شابين من أسرتين متعاديتين، وقد انطلق البطلين القصائد الطويلة التي تصلح لفن الأوبرا اليوم، ويكون موت العاشقين في نهاية المسرحية النهاية الطبيعية لحب لا أمل فيه، ومع أن القصة كانت معروفة في الفلكلور الإنجليزي، إلا أن اللمسات الشكسبيرية لم تبرحها خاصة بإضافته شخصية الثالثة ١٦٠٠ المربية وشخصية مركوشيو صديق روميو الساخر.

الفترة الثالثة ١٦٠٠ ـ ١٦٠٨ ـ مرحلة التراجيديات العظمى: وهي أخصب الفترات في حياة المسرحي العظيم، وكتب فيها، **الليلة الثانية عشرة** (كوميدية) **هاملت** (مأساة) **الأمور بخواتيمها** (كوميديا حرة) ،**ترويلوس وكرسيدا** (كوميديا حرة) ، **الملك لير** (مأساة)، **تيمون الأثيني** (مأساة) **مكبث** (مأساة) ، بركليس (كوميديا حرة) ، **كليوبترا** (مأساة) ، **كوريلانوس** (مأساة) .

ولن تستطيع في هذه العجالة التوقف عن كل هذه الأعمال لهذا النبع الثر، ولكننا نتناول أشهر أعمال هذه الفترة وهي: هاملت (١٦٠١) ومكبث (١٦٠٦) .

هاملت: قصة الابن الشاب هاملت الذي يشك أن عمه كلاديوس هو الذي قتل أباه الملك بالاتفاق مع أمه ـ أم هاملت ـ لينال العرش، وقد خلف كلاديوس أخاه القتيل وتزوج زوجته الملكة، ويظهر شبح الملك المغدور ليلاً ليخبر الأمير الحائر بأن كلاديوس هو القاتل، وطلب منه الانتقام ولكنه ينهاه عن قتل أمه لتموت ضحية الندم والأسف، ولكن هاملت يعود إلى تردده: هل قال الشبح الحقيقة؟ ويحصل أن تزور فرقة مسرحية القصر لتعرض مسرحية ''جريمة جونزاجو'' التي يقتل فيها الدوق جونزاجو ويتزوج قاتله أرملته، ويضيف هاملت سطوراً إلى النص ليطابق ذلك قصة مقتل أبيه، ويضطرب كلاديوس خلال العرض وكذلك الملكة، ويغادران المسرح

في وجل واضطراب واضحين للجميع، ويحاول الملك التخلص من هاملت بطرق عدة يكشفها هاملت الذي لا يبقى لديه شك في الحقائق الثابتة، وتبقى المؤامرة الأخيرة حين عقد الملك مبارزة بين لورتس ـ الذي قتل هاملت أباه ـ وهاملت، ويعطي الملك سيفاً مسموماً للورتس تكفي وخزة منه لموت هاملت، وإذا لم يحدث ذلك، فقد أعد الملك شراباً مسموماً لهاملت إن فاز بالمبارزة، ولكن يحصل أن تشرب الأم كأس السم بدون أن تعرف ما يحوي فتموت وتكشف المؤامرة ولكن بعد أن جرح هاملت وكذلك خصمه ـ بعد أن تبادلا السيوف ـ ولما أخبره خصمه بالحقيقة قتل هاملت عمه على الفور، وطلب وهو يلفظ أنفاسه من صديقه هوراثيو أن يعلن القصة كاملة على الملأ.

وتعد هاملت أشهر مسرحية في التاريخ، وقد ترجمت إلى معظم اللغات وشغلت النقاد والكتاب على مر السنين وفي معظم الأمم، ولا يكاد يمر عام إلا وتصدر دراسة ما عن هاملت تضيف جديداً ـ أو لا تضيف ـ إلى ما كتب عنها، كذلك جرد النفسيون من هاملت شخصية حقيقية راحوا يحللون أمراضها وعللها ناسين أو متناسين أن الرجل محض خيال.

ولكن شكسبير لا يعد المبدع المبتكر لهذه المسرحية، فقد وردت القصة كاملة بكل تفاصيلها في كتاب باللاتينية بعنوان ''تاريخ الدنمارك'' للكاتب الدنماركي ''ساكسون جرمتكيس'' وقد طبع الكتاب عام ١٥١٤، ولم يزد شكسبير على القصة إلا القليل، إلا أن هذا لا يقلل منه كشاعر نظم القصة التي حدثت ورويت، أو ألفها غيره.

مكبث: مسرحية من خمسة فصول تروي قصة القائد مكبث الذي كان عائداً مع صديقه بانكو من الحرب، فصادفتهما ثلاث ساحرات تنبأن لمكبث بأنه سيصبح ملكاً، أما بانكو فسوف يصبح أولاده ملوكاً، واستعجل مكبث تحقيق النبوءة، فقتل ـ بتحريض من زوجته ـ ضيفه الملك دونكان، واستلب عرشه، وفر ابنا دونكان خارج

البلاد، ثم قتل صديقه بانكو الذي فر ابنه إلى إنجلترا وأصبح وأولاده ملوكاً فيما بعد، إلا أن مكبث ندم على ما اقترفته يداه،وأرهقه ندمه وحزنه، وظهر له شبح ضحيته الملك في مكان من القصر، رغم محاولات زوجته تهدئته وتخفيف روعه، إلا أنها هي الأخرى أصبحت ضحية الندم والخوف والهذيان، ثم انتحرت، وفي النهاية قاد ماكدوف ابن دونكان جيشاً هزم به مكبث وقتله في مبارزة.

استمد شكسبير هذه المسرحية من تاريخ هولنشيد، والعمل على قصره يطاول هاملت تصويراً وإبداعاً،حقاً إنها أشد تراجيدياته عنفاً وتركيزاً.. ولكنها تكشف خشونة الطبع البشري، وما تؤدي إليه المطامع من فواجع وكوارث، وأضاف الشاعر إلى كل ذلك أجواء الظلام والسحر والضباب والعواصف فخيمت على العمل أجواء القلق والرهبة التي تليق بالأحداث الرئيسية للقصة.

المرحلة الرابعة والأخيرة ١٦٠٩ ـ ١٦١٣ : في عام ١٦١٠ عاد شكسبير ليستقر في بلدته ـ ستراتفورد ـ ولكنه ظل يزور لندن من وقت لآخر ليتابع مصالحه فيها، كما زاره زملاء كثيرون في بلدته، وفي هذه المرحلة كتب آخر مسرحياته التي ابتعد فيها عن العنف والمآسي، فكتب الأعمال الكوميدية الثلاثة: **سيمبلين، حكاية الشتاء، العاصفة**، في حين اشترك مع جون فلتشر في كتابة: الغريبان النبيلان، وهنري الثامن التاريخية عام ١٦١٣، وهو الذي احترق فيه مسرح جلوب عن آخره في يوم العرض الأول لهنري الثامن، وأعيد بناؤه بسرعة، ولكن شكسبير كان قد توقف عن الكتابة، وقبل ذلك وفي عام ١٦٠٣ كان قد توقف عن التمثيل.

وإلى جانب مسرحياته، كان شكسبير قد نظم السونيتات، وعددها ١٥٦ سونيتة، وقد طبعت أثناء حياته وذلك عام ١٦٠٩،والسونيتة قصيدة غنائية تتألف من أربعة عشر بيتاً، وتلتزم ترتيباً خاصاً لقوافيها، وتعالج مواضيع وجدانية عاطفية حياتية، أما أصولها فأوروبية، وأشهر من كتب فيها الشاعر الإيطالي بترارك.

ومن بين سونيتاته المئة وست وخمسين، مئة وست وعشرون سوتينة يخاطب فيها الشاعر شاباً جميلاً لا يعرف أحد هويته، ولم يذكره شكسبير مطلقاً، أما الباقي فيخاطب فيها امرأة سمراء يصفها بعدم الإخلاص.

وقد شغل النقاد بتحديد هوية الفتى الجميل الذي توله به الشاعر وتغزل به أعذب الغزل، ولما كان شكسبير قد أهدى هذه السونيتات إلى (و.هـ) فقد ذكر البعض أنه "هنري ريوذسلي" (ريوذسلي تبدأ بحرف W بالإنجليزية) وهو ايرل ساوثهامبتن ، وآخرون يرون أنه وليم هربرت إيرل بمبروك، وكلاهما بسط حمايته على شكسبير وفرقته ، وكلاهما كان جميلاً يسر الناظرين، أما الفتاة السمراء فيذهبون إلى أنها "ماري فيتون" حبيبة بمبروك، ويرشح آخرون أخريات لهذه "السيدة السمراء".

من كتب مسرحيات شكسبير: وجد عدد كبير من الدارسين والكتاب أنه يصعب تصديق الزعم القائل أن شكسبير هو الذي ألف مسرحياته لأسباب منها أنه فتى ريفي ساذج غير مثقف لا يستطيع إبداع مثل هذه المسرحيات، ولأن مسرحياته تفيض بعبارات قانونية وفلسفية تحتاج إلى كاتب فيلسوف أو محام ليعرف كل ذلك، وكاتبها لا بد أن يكون أرستقراطياً من علية القوم يعرف أحوال الملوك وأخلاقهم وأبهتهم، وينظر إلى العامة نظرة احتقار وازدراء، لذا يستبعد أن يكون شكسبير هو صاحبها.

ولا يجد الشكسبيريون صعوبة في تفنيد هذه المزاعم، فكم من أديب كبير تربى في الأرياف في أسرة فقيرة بسيطة ليكبر ويصبح ذا شأن عظيم في مجال الأدب والفن، فهل العلم حرام على الفقراء حلال للأغنياء.

أما ما ورد في مسرحياته من عبارات تدل على علم وثقافة،فهي عبارات يمكن لشكسبير الإحاطة بها ومعرفتها من خلال عمله في المسرح، ومخالطته أعيان الناس وأغنيائهم ومثقفيهم، وبالتالي أدرك ما يستكثره عليه خصومه، ومن ذا يستطيع أن

يقنعنا أو يثبت لنا أن شكسبير لم يكن مثقفاً قرأ الكتب ووعى علوم عصره وألم بها، وهل الثقافة محصورة في الجامعات فقط.

أما عن شخصياته، فمسرحياته حافلة بكل أنواع البشر، الملك والقائد والجندي والمهرج والمغني والسفير والوزير والجاسوس والراهب والماجن، والأشباح والأرواح والسحر والجن والآلهة... لذا لا غرابة أبداً أن يكون هناك طبقة ما أو شخص ما في أعماله ينظر إلى العامة بازدراء وتعال ساقه السياق والعمل الدرامي، ولا يثبت ذلك أو يشير إلى أن المؤلف من الطبقة الأرستقراطية.

أما أقوى المرشحين لتأليف أعمال شكسبير فهو المحامي الفيلسوف السياسي الإنجليزي فرانسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) ويليه المرشح إدوارد ويفير الايرل السابع عشر لإكسفورد، وتتضمن القائمة الشاعر مارلو (١٥٦٤ ـ ١٥٩٣) ثم روبرت بيرتون الايرل السادس لمنطقة دربي.

ولو كانت مسرحيات شكسبير أقاصيص وحكايات يرويها الناس مشافهة جيلاً بعد جيل لربما ظن ظان أنها ليست له، ولكن المجموعة الأولى لمسرحياته طبعت عام ١٦٢٣ وعليها اسمه، أي بعد وفاته بسبع سنين فقط، فهل كان بيكون أو سواه يقبل أن ينتحل أحد مسرحياته، كذلك طبعت أعمال شعرية عظيمة لشكسبير وهو على قيد الحياة ولم يتدخل أحد لينكرها عليه وينسبها لنفسه.

وفاته: ومع بداية عام ١٦١٦ بدأت صحة شكسبير بالتراجع، فطلب من المحامي فرانسيس كولتز كتابة وصيته والتي وقعها في ٢٥ كانون ثاني، وفي العاشر من شباط تزوجت ابنته الصغرى جوديت رجلاً يدعى توماس كويني وهو ابن صديق الشاعر، أما الكبرى سوزان فقد تزوجت في ٥ حزيران ١٦٠٧ طبيباً معروفاً يدعى جون هول، وفي شباط ١٦٠٨ انجبت حفيدة الشاعر اليزابيث هول.

ويقول القسيس جون وورد أن الشاعر في ربيعه الأخير قد قضى وقتاً ممتعاً في منزله مع صديقين هما بن جونسون وميشيل درايتون، وشرب كثيراً مما أدى إلى علة

وفاته،وهذه دعوى شعبية تناقلها الناس، ولكن سبب وفاة الشاعر غير معروف ،وقد توفي في ٢٣ نيسان ١٦١٦ وهو يوم ميلاده الثاني والخمسين، أما زوجته فقد توفيت في السادس من آب عام ١٦٢٣، وكان والده قد توفي عام ١٦٠١، أما والدته فقد توفيت عام ١٦١٣.

كلمة أخيرة : هذا هو شكسبير، تفوق درامي شامل: المبدع، الخلاق في الفن التراجيدي، المحلق الذي لا ينافس في الكوميديا والكوميديا الحرة، تساوق هذا وذاك موهبة شعرية فياضة، ومعرفة عميقة بالتاريخ. حتى تكاد تقول أنك أمام عدد من الكتاب في كاتب واحد.

ويصبح شكسبير تراثاً عالمياً لا يحتكره أحد، فأعماله مترجمة إلى معظم اللغات، إن لم يكن إليها كلها ـ وتمثل مسرحياته في سائر الأوطان والبلدان بلغات أهلها، فيقبل عليها الناس بكافة مشاربهم ومعتقداتهم، ويقرر على طلاب الآداب في سائر الجامعات، ويقبل عليه الدارسون في غير كلل أو ملل، انظر إلى هذه القائمة لجهابذة الأدب ـ على اختلاف أزمانهم ـ الذين كتبوا عنه:

- الشاعر الناقد درايدن (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) أشعار درامية ـ مقدمة لمسرحية ترويلس و كرسيدا (١٦٦٨) .
- الشاعر الكسندر بوب (١٦٨٨ ـ١٧٤٤) مقدمة لأعمال شكسبير (١٧٢٥) .
- الناقد المعجمي صاموييل جونسون (١٧٠٩ ـ ١٧٨٤) اقتراحات Proposals (١٧٥٦) وكتاب مقدمة لمسرحيات شكسبير (١٧٦٥) .الروائي ريتشارد سون: (١٦٨٩) ـ (١٧٦١) مقالة عن بعض شخصيات شكسبير (١٧٦٥) .
- الكاتب هازلت (١٧٧٨ ـ ١٨٣٠) شخصيات مسرحيات شكسبير (١٧٨٤) وكتاب: فن شكسبير الدرامي (١٨٧٣) .

- الناقد والشاعر الكبير كولردج (١٧٧٢ ـ ١٨٣٤) ملاحظات ومحاضرات عن شكسبير (١٨٤٩) .
- الناقد دي كوينزي (١٧٨٥ ـ ١٨٥٩) شكسبير (١٨٦٤) .
- الناقد الشاعر سوينبرن (١٨٣٧ ـ ١٩٠٩) دراسة عن شكسبير (١٨٨٠)
- الروائي الروسي الشهير تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) شكسبير والدراما.
- صامويل بتلر (١٨٣٥ ـ ١٩٠٢) إعادة النظر في سونيتات شكسبير (١٨٩٩) .
- الناقد الفيلسوف عباس محمود العقاد (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) ''التعريف بشكسبير''.
- الناقد الدنماركي جورج برانديز (١٨٤٢ ـ ١٩٢٧) ''حياة شكسبير''.
- الناقد النرويجي لورنز اكمورف (؟ ـ ؟) شكسبير ناطق الطبقة الثالثة.
- الناقد اللبناني إيليا حاوي: شكسبير والمسرح الإليزابيثي (١٩٨٠) .
- الناقد الإنجليزي أ. س برادلي (١٨٥١ ـ ١٩٣٥) تراجيديات شكسبير (١٩٠٤) .

وغير هؤلاء كثيرون جداً لا يحصرهم عد في أزمنة عدة ومن أمم شتى.

وليم شكسبير

خطاب أنطونيو[1]

أيها الأصدقاء،أيها الرومانيون، أعيروني أسماعكم

لقد جئت لأدفن القيصر لا لأعدمه

إن الشر يبقى بعد الإنسان

أما الخير فيدفن معه

وكذلك كان قيصر

والنبيل بروتوس يقول إن قيصر كان طماعاً

وإذا كان الأمر كذلك،فإنها غلطة خطيرة

وقيصر استجاب لها بخطورة أيضاً

هنا بأمر من بروتوس،وأنتم ترون

فبروتوس رجل شريف

وكذلك هم جميعاً،الرجال الشرفاء

لقد أتيت لأتكلم في جنازة قيصر

لقد كان صديقي مخلصاً عادلاً

ولكن بروتوس يقول إنه كان طماعاً

وبروتوس رجل شريف

لقد أحضر قيصر إلى روما الكثير من الأسرى

وفديتهم ملأت الخزانة العامة بالمال

هل دلّ هذا المال أن قيصر رجل طماع

لقد كان يبكي لبكاء الفقراء

والطماع يجب أن يكون من طينة قاسية

---

(1)Great poems. p 67

ولكن بروتوس يقول أنه كان طماعاً
وبروتوس رجل شريف
كلكم رأيتم كيف عرض عليه تاج الملك عدة مرات
في لوبركال ولكنه أبى
ويقول بروتوس أنه كان طماعاً
مؤكد أنه رجل شريف
أنا لا أقول ذلك لأكذّب ما قاله بروتوس
ولكني أقول ختاماً ما أعرفه
لقد أحببتم قيصر،ولم يكن ذلك بلا سبب
فما الذي يمنعكم الآن من البكاء عليه
أيتها العدالة،لم هربت إلى القلوب المتوحشة
ولماذا فقد الرجال عقولهم
عفواً أيها الرومانيون
إن قلبي في كفن قيصر
وعلي أن أصمت حتى يعود إلي.

٣- جون ملتون
(١٦٠٨ - ١٦٧٤)

يقف جون ملتون بقامته السامقة بعد شكسبير مباشرة بين الأدباء الإنجليز،فمؤلفاته المتعددة المناحي،وما تركته من أثر في أدب بلاده وما جاورها،بوأته هذه المكانة المرموقة، هذا إلى جانب اشتغاله بالسياسة وما كتبه فيها،والنزاعات الدينية والسياسية التي خاضها أربعة عقود ونيف.

ولد الشاعر والكاتب والمؤرخ واللاهوتي جون ملتون في التاسع من كانون أول عام ١٦٠٨ في لندن لأسرة عريقة من أكسفورد شير، أما أبوه فكان موسيقياً وكاتباً عمومياً تيسرت أحواله بعد شروعه في أعمال خاصة به،أما والدته فهي سارة ابنة تاجر يدعى بول جفري، وقد أنجبت ولدين وابنة، وقد نذر الأب ولده جون للثقافة والكنيسة، وقد استجاب جون لذلك مبكراً، فاستقدم له أبوه معلماً خاصاً به، كما علمه الموسيقى بنفسه، فأصبح عازفاً بارعاً على الأورغ، ولما بلغ الثانية عشرة أُرسل إلى مدرسة سنت بول حيث تعلم اللاتينية واليونانية بالإضافة إلى الفرنسية والإيطالية والعبرية، وفي المدرسة أظهر ميولاً أدبية، وبدأ يقرض الشعر، وعندما بلغ الخامسة عشرة كانت إحدى محاولاته الشعرية وهي إعادة صياغة المزامير ١١٤ و١٣٦ بسطور مقفاة، وفي المدرسة أظهر اجتهاداً واضحاً ومثابرة على دروسه، فلم يكن يأوي إلى فراشه إلا بعد منتصف الليل.

وفي التاسع من نيسان ١٦٢٥ تم قبوله في كلية المسيح في جامعة كامبريدج، وحصل على البكالوريوس في الأدب في آذار ١٦٢٩، والماجستير في تموز ١٦٣٢، ونظراً لوسامته ووقاره وحسن سلوكه دعاه زملاؤه: سيدة الكلية، إلا أنه لا يبدو أن ذلك أزعجه أو أقلقه، فقد كان ذا شخصية متميزة متفردة، فلم يحب الأسلوب المدرسي التقليدي الذي سيطر على المناهج ووصفه بأنه عقيم، وقد تشاجر في الكلية

مع أستاذه وليم شابل، وتلقى عقاباً بسبب ذلك، واضطر لمغادرة كامبريدج فترة قصيرة ثم عاد بدون أن يفقد فصله الدراسي، ولكن تم نقله إلى صف استاذ آخر هو ناتينال تروفوي، وبعد ذلك لم يحصل أي خلاف بينه وبين أحد في الكلية.

وفي هذه الفترة ينتج ملتون بعض القصائد مثل: ‘‘**مرثاة طفل جميل**’’ يرثي بها ابنة أخته، وكتب ست قطع باللغة الإيطالية،وسونيتة ‘‘ **العندليب** ’’، وباللاتينية نظم سداسية على نهج أوفيد أسماها ‘‘**مؤامرة ملح البارود**[1] ’’ والمرثية الرابعة، أما أروع قصائده الإنجليزية في هذه الفترة فهي ‘‘في صباح ميلاد المسيح ’’ يظهر فيها أنه بدأ يمتلك أدواته الفنية من شكل ومضمون وخيال وإيقاع ،معلناً قدومه الوشيك كشاعر كبير، كما كتب في عطلة عام ١٦٣١ قصيدتين ‘‘**الرجل السعيد** ’’و ‘‘ **الرجل الحزين**’’ ولكنهما كانتا أقل مستوى من قصائده السابقة، كما نظم القصائد ‘‘أغنية صباح أياري’’ و‘‘تأبين الركيزة ونشستر ’’ و ‘‘ إلى شكسبير ’’.

وبعد تخرجه عاد إلى منزل والده في هورتون حيث اعتكف ست سنوات تقريباً بدون أن يمارس أي عمل،فقد كفته أملاك والده ذلك، وفي رسالة إلى صديق له أوضح ملتون سبب بطالته هذه بأنها ليست ابتعاداً عن واجبات الحياة وأنشطتها، بل هي تحضير لها، ففي سونيتة نظمها قال أنه ما زال بحاجة إلى التعلم والتطور والنضج.

إلا أنه في وقت لاحق من فترة الاعتكاف هذه في هورتن، يعود عن قراره السابق بالعمل في السلك الكنسي، ففي رسالة لوالده يوضح فيها قراره بالانقطاع للشعر قائلاً أنه يود اتباع نهج والده الذي احترف الفن، ولعل مطالعاته الأدبية ومثابرته على أعمال سابقيه من اليونانيين والرومان وسواهم كانت وراء قراره ذاك، وقد عثر في الكتب التي قرأها على حواش دقيقة تدل على غزارة علم وعمق معرفة بالأدب والأديان، كما يستشف منها اهتمامه بالفكر الديني في بداية تلك الفترة.

---

(١) المؤامرة الفاشله لقتل الملك جيمس الأول وأعضاء مجلس اللوردات بقصف دار البرلمان عام ١٦٠٥ أنتقاماً للقوانين ضد الرومان الكثوليك .

ومن ثمار هذه الفترة مسرحية ''**كومس**'' التي كتبها عام ١٦٣٤، والتي تحكي قصة الساحر كومس الذي يحول ضحاياه إلى حيوانات، ولكنه يلتقي بفتاة عذراء جميلة لا يقدر عليها بسحرة، وتقهرة هي بطهرها وقوتها المستمدة من فضيلتها، وقد مثلت كومس في احتفال تعيين جون اجرتون ايرل بريدج ووتر رئيساً لمجلس ويلز.

ويلحق بكومس في الفترة ذاتها مرثاة ''**ليسيدياس**'' يرثي بها إدوارد كبنج زميله في كامبردج الذي مات غرقاً في تحطم سفينة في البحر الإيرلندي في آب ١٦٣٧،وواضح أن العلاقة لم تكن قوية بين الشاعر والمرثي لذا وجدها ملتون فرصة لرثاء من يموتون صغاراً قبل تحقيق أمانيهم في الحياة، لذا جاءت القصيدة إنسانية مؤثرة، ومع أنها حملت ميزات مراثي العصر الإليزابيثي،إلا أنها تميزت وتفوقت على قصائد عصرها.

وفي أيار ١٦٣٨ يشد ملتون الرحال إلى فرنسا حاملاً معه كلفة رحلته مدة عام ومصطحباً خادماً،وأقام فترة قصيرة في باريس ثم في نيس، ولكنه لم يحب فرنسا، فيمم شطر إيطاليا بحراً وزار فلورنسا وأقام فيها شهرين، ومنها إلى روما حيث أقام شهرين آخرين، ثم إلى نابولي حيث وردته أخبار الاضطرابات في سكوتلنده، فرأى أنه ليس من الوطنية أن يتمتع بالتجوال بينما أبناء وطنه يقاتلون من أجل الحرية، فعاد سريعاً إلى بلاده، لكنه ارتحل ثانية إلى إيطاليا وزار معظم مدنها، وأحاطه الكتاب والشعراء وعشاق الأدب في كل مكان حل فيه، ودعي مرتين لإلقاء الشعر، وفي إحداهما عقدت له أمسية مع شاعر شاب يدعى كارلو روبرتوداني، فكسب كل منهما صداقة طويلة مع الآخر، كما لقيت قصائده إعجاب أهل الأدب ومتذوقيه، وفي طريق العودة مر على جنيف وباريس، وعاد إلى بلاده في تموز ١٦٣٩ بعد غياب دام ١٥ شهراً، وقد أطال في وصف رحلته هذه في كتابه ''**الدفاع الثاني عن أهل إنجلترا**'' (١٦٥٤) ،وأثنى طويلاً على أدباء إيطاليا في رسائل أرسلها إلى الشعراء وحماة الأدب هناك.

ويشرع في اهتمامات جديدة صرفته عن الشعر، فقد استأجر بيتاً في لندن وشرع في التدريس مع ولدي أخيه جون وإدوارد فيلبس، وفي الوقت ذاته شغل بكتابة بعض الكراسات تتناول الموضع الذي كان يسود الشارع السياسي، ألا وهو إلغاء حكومة الأساقفة،ومن هذه الكتيبات: ''**إصلاح النظام الكنسي في إنجلترا**'' و''**أسباب الحكومة الكنسية**'' و''**اعتذار إلى سكتيمنس**''، وكلها تشرح وجهة نظره المناهضة للحكم الأسقفي الذي رأى فيه طغياناً يشكل حاجزاً دون الإصلاح الحقيقي، وقد كان في أعماله هذه عنيفاً متحمساً، إلا أن الأسلوب كان رائعاً جميلاً أظهره سيداً في تآلف الإيقاع والتناغم النثري.

ويتزوج ملتون عام ١٦٤٢ ماري ابنة السير ريتشارد بول، إلا أن التباين بين الزوجين كان كبيراً في السن والثقافة والطباع،فلم تتحمل ماري مزاجه وصرامته وانشغاله بالكتابة وشجونها، وبعد وقت قصير عادت إلى بيت أهلها وقررت عدم العودة إلى زوجها، ولم يكن هناك نظام يبيح الطلاق إلا في حالة ثبوت جريمة الزنا، فكتب ملتون بحث: ''**عقيدة الطلاق ونظامه**'' هاجم فيه الوضع الكنسي السائد بدون أن يلمح إلى حالته الخاصة،وأدى هذا إلى انضمامه لحزب المستقلين وأصدر عدة كتيبات مدافعاً عن وجهة نظره، وفي عام ١٦٤٥ عادت زوجته إليه طالبة الصفح فقدم لها ولأهلها المأوى بعد أن صادر الحزب الحاكم ـ حزب ملتون ـ ممتلكاتهم.

وكان عام ١٦٤٤ قد أصدر ''**رسالته في التعليم**'' و''**اريباجتيكا**'' وكلا الكتابين أقل تأثراً بأساليب الجدل المعاصرة، أما ''اريباجتيكا'' فقد وجهه إلى البرلمان مطالباً فيه بحرية الصحافة، وطالب بإلغاء قانون الصحافة الصادر عام ١٣٤٣، وقد جمع في هذا الكتيب كل قواه: حماسته وصدقه وسخريته وفصاحته، عارضاً فيه فلسفته الأخلاقية والسياسية،وقد أثبت أن مبادئه هذه تصلح لكل زمان ومكان، لذا يعد كتيبه أحد الدساتير العالمية للفكر الديموقراطي.

وبعد ثورة القائد كروموبل، ومحاكمة الملك تشارلز الأول، يعود ثانية إلى عمله في الشؤون العامة ـ بعد توقف ٤ سنوات وقبل أن تصدر المحكمة حكمها - ويكتب رواية الملوك والحكام، قائلاً بحق الشعب في محاسبة الحكام وخلعهم وإعدامهم إذا أثبت طغيانهم، وبعد إعدام الملك تشارلز يعين ملتون سكرتيراً للجنة الشؤون الخارجية ومترجماً للرسائل اللاتينية،وظل يمارس هذا العمل حتى عودة الملكية.

وكان نظره قد بدأ في التراجع في السنوات الأخيرة بسبب العمل المتواصل،وأصيب بالعمى التام في شتاء ٥١ ـ ١٦٥٢، كما توفيت زوجته عام ١٦٥٢ تاركة ثلاث بنات، إلا أنه استمر في عمله،وعين مساعد له في مكتبه ثم انقص راتبه عام ١٦٥٥، ويستعيد قواه في النصف الثاني من هذا العقد، ويكتب باللاتينية "**الدفاع الثاني عن أهالي إنجلترا**" مخاطباً أوروبا بكاملها، مشيدًا بإنجازات حكومة كروموبل بالرغم من جسارته في تحذير كروموبل من حكم الفرد المطلق،ويعود للشعر - بعد طول هجر ـ وينتج ١٧ سونيتة في مناسبات عدة،أشهر ما كتبها عن عماه، وواحدة عن وفاة زوجته الثانية كاترين ورد كوك التي كان قد تزوجها عام ١٦٥٦ وعاشت معه عامين قبل وفاتها.

ولما استعاد الملكيون العرش عام ١٦٦٠ أعدموا القائد هنري فين، ونبشوا قبور كروموبل وهنري ارتيون وجون برادشو وأعدموا جثثهم ودفنوهم تحت المشنقة، ولما صدر أمر باعتقاله توارى ملتون عن الأنظار عند بعض أصدقائه إلى أن صدر عفو عن أنصار كروموبل،فعاد إلى الظهور، ولكن مجلس العموم أمر بجمع نسخ كتابه "الدفاع عن أهالي إنجلترا" وحرقها، واعتقل ملتون لفترة صغيرة ثم أعفي عنه في كانون أول ١٦٦٠،فتفرغ للشعر بصورة نهائية، وشرع في ملحمته الخالدة "**الفردوس المفقود**".

والفردوس المفقود قصيدة في اثني عشر نشيداً، ملخصها أن الشيطان بعد طرده من الجنة ومعه متمردون آخرون، يعبر من أمام النار بصعوبة ليظهر أمامه منظر الأرض، ولكنه يتوجه إلى الشمس حيث يجد الملاك أوربيل الذي يدله على طريق

الأرض فيستريح هناك ثم يعود إلى الجنة على شكل غراب، ويأخذ في مراقبة آدم وحواء بعد عودتهما من صلاة العشاء، وينجح في إغواء حواء ويدفعها إلى الأكل من الثمار المحرمة، فيتلقى آدم وحواء الحكم بالطرد إلى كوكب الأرض ليعود الشيطان إلى الأرض مسروراً فرحاً بما أنجز، ويتوب آدم وحواء ويطلبان الصفح من الله عز وجل ، فيصفح عنهما ولكنه لا يعيدهما إلى الجنة، بل يعدهما بإرسال عيسى عليه السلام ليكون موته تكفيراً عن خطيئتهما (هذا ما يعتقده ملتون بالطبع) .

تسجل هذه الملحمة أعظم حدث تعتقد به الشعوب المسيحية والإسلامية واليهودية،ألا وهو سقوط الإنسان من الجنة إلى الأرض، وقد اتبع الشاعر فيها ما ذكره الإنجيل من تفاصيل، متقبلاً المعلومات التاريخية كما هي بدون نقاش،ومن القصيدة الإنجلوسكسونية ''بيولف''، وقد عبر فيها عن آرائه السياسية والدينية والاجتماعية واثقاً بقدرة الإنسان على استعادة قوته وعنفوانه،ومن ثم تحقيق ما يصبو إليه من خير،ومن الطريف أن هذا العمل قدم للناشر مقابل ٥ جنيهات، وخمسة أخرى إذا تم بيع ١٥٠٠ نسخة، ثم باعت أرملته حقوق النشر لاحقاً مقابل ٨ جنيهات.

أما قصيدته ''**استعادة الفردوس**'' فهي تكاد تكون تكملة لسابقتها، ولكنها أقصر منها وأقل في مستواها الفني وتعالج موضوع إغواء الشيطان للمسيح في الصحراء، ولكن المسيح يقاوم الشيطان ويتغلب عليه ـ بالمقارنة مع حواء ـ ويريد ملتون هنا أن يثبت ما يستطيع الإنسان إنجازه بكرامته وتواضعه وطاعة الله عز وجل.

وفي أواخر أيامه نظم ''**منافسوسانسون**'' ورغم أنها كانت عمله الأخير، إلا أنها دلت على أن قواه الشعرية ما زالت غير قليلة، فهي العمل الأدبي الأكثر إقناعاً وقوة بين أعماله، وهي الأعظم في الأدب الإنجليزي تقليداً لليونانيين، إلا أنها لا تتبع ذلك العنصر السائد في أعمال اليونانيين ـ تطور الحدث ـ فالقارئ لا ينتظر شيئاً ما سوف يحدث أثناء متابعته قراءة القصيدة، ويعكس ملتون فيها شخصيته، فسمسون

الأعمى يحاول تحرير شعبه إلا أنه يفشل ويبقى شعبه مستسلماً رابضاً في قيوده مفضلاً الراحة على أن يبذل جهداً في سبيل تحرير نفسه، وكما انتهى ملتون، ينتهي سمسون ضعيفاً وحيداً مهملاً، يقول فيها:

(قليلاً إلى الأمام، أعطني يدك الدليل

إلى هذه العتبات المظلمة، قليلاً إلى الأمام

أيا ظلاماً، ظلاماً، وسط سطوع الظهر.

ظلام لا يتعافى، وكسوفاً كلياً

بلا أمل في نهار وعما قليل سأكون معهم في هجوع) [1]

وكان ملتون قد تزوج للمرة الثالثة عام ١٦٦٣ ـ وهو في الخامسة والخمسين ـ اليزابيث منشل، وكانت في الرابعة والعشرين، وهي ابنة عم صديقه الدكتور ناثان باجيت الذي رتب هذا الزواج، وقد كان زواجاً ناجحاً، كما كان لاليزابيث دور كبير في سرد تفاصيل أيامه الأخيرة لكاتب سيرته جون اوبري.

وفي السنين الأخيرة التي تلت أعماله الشعرية الثلاثة، أصدر ملتون تاريخ بريطانيا (١٦٧٠) وطبعة ثانية من قصائده القصيرة، وطبعة ثانية من الفردوس المفقود في إثني عشر جزءاً، ويعود إلى الشؤون العامة ويكتب: ‘‘الدين الصحيح‘‘ وعند وفاته كان شرع في تأليف قاموس لاتيني، ومراجعة أخيرة لمخطوطة كبيرة في اللاهوت والتي لم تطبع إلا في القرن التاسع عشر.وتوفي جون ملتون بالنقرس في الثامن من تشرين ثان عام ١٦٧٤، ودفن في كنيسة جيلز إلى جانب والده، وترك وصية أوصى فيها بمعظم تركته لزوجته الأخيرة والباقي لبناته الثلاث.

---

(1) الأدب الأنجليزي، ثورنلي وروبرتس، ترجمة أحمد الشويخات ص ٨٨

من شعره

على تمثال شكسبير[1]

ماذا يحتاج شكسبير من أجل عظامه الشريفة
مجهود جيل في كومة حجارة
أو رفاته المقدس الذي يجب أن يدفن
تحت هرم من النجوم
عزيزي يا ابن الذكرى، وريث الشهرة العظيم
ماذا تريد من شاهد ضعيف يحمل اسمي
أنت في إعجابنا ودهشتنا
بنيت لنفسك صرحاً يعيش أبداً
ونحن في عصرنا هذا
وفننا يتآكل ببطء شاعراً بالخزي
فإن أشعارك السهلة تتدفق، وكل قلب
يأخذ من أوراق كتابك الذي لا يثمن
تلك السطور الدلفيكية[2]
تأخذ بانطباع عميق
وأنت تسلب خيالنا
تصنع منا رخاماً بمزيد من الخيال
وأنت مدفون في هذه الأبهة تضطجع
حتى تمنت الملوك لو تدفن في قبر مثله

---

(1) Great Poems , Page 123

(2) دَلفي: منسوب إلى مدينة دلفي اليونانية القديمة أو إلى موحى أبولو فيها ـ المورد ٢٥٩.

عصر المنطق

(١٦٦٠ - ١٧٨٠)

مهدت لحركة التنوير التي عمت أوروبا في أواخر القرن السابع عشر عدة عوامل منها:

١- الكتاب المثاليون أمثال توماس مور (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) صاحب ''التفكير اليوتوبي'' أو الخيالي الذي يهدف إلى إصلاح الدولة في كل النواحي والميادين، وفرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) الذي طالب في كتابه ''اتلانتس الجديدة'' بتشكيل حكومة من العلماء تحكم الدولة فيقدرون على إسعادها وتحقيق رفاهيتها.

٢- اتباع النظرة العلمية في البحث: ومن أشد المطالبين بذلك فرنسيس بيكون وكوبرنيكس.

٣- ظهور نظريات التعاقد الاجتماعي والتي نادى بها الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز (١٥٨٨ ـ ١٦٦٧) والفيلسوف الفرنسي روسو من بعده، والكاتب والمفكر الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢ ـ ١٧٠٤) .

٤- رحلات الأوروبيين خارج أوروبا ودراستهم لمشاهداتهم ومعتقدات الشعوب التي احتكوا بها.

٥- التطور الاقتصادي الذي عم أوروبا ومن علاماته الاكتشافات الجغرافية وحركة الاستعمار.

٦- ظروف فرنسا ونقائص الحكم فيها مما أدى إلى ظهور كتابات فولتير وروسو ومونتسيكو.

٧- نجاح الحكومة البرلمانية في إنجلترا عام ١٦٨٨.

لهذا كله سمي هذا العصر بعصر المنطق.

نبدأ هذا العصر باستعادة تشارلز الثاني الحكم ملكاً على البلاد، وذلك مع بداية الحركة الكلاسيكية الجديدة التي اعتمد روادها على التراث الأدبي والفكري اليوناني والروماني، وأكبر من تأثر بذلك الشعر، فقد تعلم الشعراء القوافي والأوزان التي تناسب المواضيع المختلفة، كذلك تعلم الناثرون أصول النثر.

ويتصدر الأسماء الكبيرة في هذا العصر الشاعر **جون درايدن** (١٦٢١ ـ ١٧٠٠) والذي يسمي بعض المؤرخين فترته باسمه، وقد جعل دراين فن الثنائي الملحمي heroic couplet فناً شعبياً، وهو يعتمد على فقرات شعبية تتألف كل منها من عشرة أبيات، كل بيت بقافية واحدة ـ وقد قلده في ذلك صامويل بتلر ـ ولدرايدن عدة أعمال هجائية مثل: أبشالوم واكتوفيل وهي مستوحاة من قصص الإنجيل ـ وماكفالكون ـ يهاجم فيها الشاعر شادويل ـ وقصيدته: إيمان العلمانيين ويعبر فيها عن معتقداته الدينية وما زال على إيمانه الإنجليكاني، كما مارس الكتابة للمسرح ـ كما سيأتي ـ وترجم عدة أعمال لأعلام الأدب الروماني مثل هوراس وأوفيد، وقد برع في الفنين المسرح والترجمة.

وبعد موت درايدن ظل مكانه شاغراً مدة طويلة إلى أن جاء الشاعر الكبير **الكسندر بوب** (١٦٨٨ ـ ١٧٤٤) ليملأه بجدارة رغم حالته الصحية والاجتماعية، وقد كتب عام ١٧١١ قصيدة "مقالة في النقد"، وفي العام التالي قصيدة "اختطاف خصلة شعر" وكلاهما في النقد الاجتماعي، كما كتب مقالات فلسفية في نقد الشعر ومنها "مقال عن الإنسان" ومقالات أخلاقية، وترجم الإلياذة والأوديسة إلى الإنجليزية.

ومن معاصري بوب: جون جاي، صاحب أوبرا المتسول، وتوماس جراي ووليم كولتز.

وفي هذا العصر ازدهرت الرواية، وظهرت أسماء كبيرة لا زالت أعمالها تقرأ وتنقد إلى اليوم، ويتصدر هؤلاء الأعلام **جوناثان سويفت** (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥) الذي

هاجم المؤسسات الاجتماعية بأكثر من عمل أولها: حكاية حوض الغسيل، مهاجماً فيه الفكر الديني، و ''عرض متواضع'' من الأدب الساخر التهكمي، وتوج أعماله بقصته الشهيرة، رحلات جلفر، وهي أقوى أعماله نقداً وسخرية.

وعاصر سويفت روائي آخر كبير هو ''**دانيال ديفو**'' (١٦٦٠ ـ ١٧٣١) الذي ساهم كثيراً في ازدهار الرواية، وكان يعمل في التجارة والصحافة، فعمل في تحرير عدة صحف إضافة إلى عمله مخبراً للحكومة وأتقن خمس لغات، لذا جاءت رواياته ذات تفاصيل وملابسات كثيرة مقنعة دلت على عبقريته، وكانت روايته ''روبنسن كروزو'' التي كتبها وهو في السادسة والستين قمة أعماله ، وقد أحبها القراء لأنها تمثل صراع الإنسان مع الطبيعة، ويستطيع الإنسان التفوق عليها وقهرها، وقد أضاف ديفو قصصاً أخرى لقيت نجاحاً كبيراً مثل: مول فلاندرر، صحيفة عام الطاعون، روكسانا.

وقد هيأت الحياة الرغدة في هذا العصر الظروف لقراءة المتعة، وبطبيعة الحال فإن القارئ يحب أن يقرأ عن أناس مثله يعيشون عيشه ويحيون مشاكله، لذا أحرزت الرواية الواقعية تقدماً ، فكانت ''**باميلا**'' **لريتشارد سون** و''**توم جونز**'' **لهنري فيلدنج**.

المسرح: أعاد تشارلز الثاني فتح المسارح وشجع الفن المسرحي، وكثرت المسارح، وظهرت المرأة لأول مرة ممثلة فيها، واستلهم الكتاب الإنجليز أعمال المسرح الفرنسية الخالدة وكتابها الكبار أمثال: **راسين وكورناي**، وبرز **درايدن** أقرانه بالعمل المسرحي أيضاً، فكتب: الملكة الهندية، وأورجين زيب، ثم عاد إلى العصر الإليزابيثي وقلد مسرحية شكسبير أنطونيو وكيليوبترا فكتب: كل شيء من أجل الحب.

ومن الذين كتبوا للمسرح في هذا العصر **وليم كونغريف** الذي كتب: ''طريق العالم'' الكوميدية، وعلى نفس الأسلوب كتب **جورج فاركور** مسرحية ''الضابط المتطوع''.

أما في الفن التراجيدي فقد برع **جوزيف أديسون** وقدم بالشعر الحر مسرحية كانو (١٧١٣) متبعاً التركيب والأسلوب الكلاسيكي، ولقيت نجاحاً كبيراً في رواقيتها المسيحية المهذبة وعاطفتها التحررية.

كتاب آخرون: ولا ننسى من الذكر والإشادة الكاتب الكبير **صامويل جونسون** (١٧٠٩ـ ١٧٨٤) الذي كان له الأثر الكبير على أدباء عصره، ليس بالكتابة فحسب بل بآرائه النقدية في الأدب والفكر، وأشتهر بقاموس ''اللغة الإنجليزية'' وكتابه: ''حياة الشعراء'' ودرس فيه ٥٢ شاعراً، وكتب عنه أحد حوارييه وهو جيمس بوسويل: ''حياة صامويل جونسون''.

ومن بطانة جونسون الكاتب **أوليفر جولد سميث** الذي كتب في عدة فنون وأشهر أعماله: قديس ووكفيلد، والكاتب شريدان صاحب الثلاثية الكوميدية: المتنافسون، مدرسة الفضيحة، الناقد.

ومن تلك البطانة المؤرخ الكبير **إدوارد جيبون** (١٧٢٩ ـ ١٧٩٧) صاحب كتاب: تاريخ انحطاط الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، وقد كتبه في عشرين عاماً.

٤- جون درايدن
(١٦٣١ ـ ١٧٠٠)

لما عاد الملك تشارلز ستوارت إلى إنجلترا كانت البلاد والأمة تتناوشها مصائب وكوارث عدة، منها تلك الحرب الأهلية التي استمرت عشرين عاماً (١٦٤٠ ـ ١٦٦٠)وانتهت بعودة الملكية بعد القضاء على حكم كرومويل وحزبه، واجتاح إنجلترا الطاعون عام ١٦٦٥ آخذاً معه سبعين ألفاً من الأرواح في لندن وحدها، وما كادت إنجلترا تستفيق من هوله حتى جاءها حريق لندن الشهير في أيلول عام ١٦٦٦ فدمر ١٣ ألف بيت، وترك ثلثي سكان العاصمة بلا مأوى، في هذا الخضم كانت نشأة جون درايدن.

ولد الشاعر والناقد والكاتب المسرحي جون درايدن في التاسع من آب عام ١٦٣١ في قرية نورث ثامبتنشير في مقاطعة الدونكل، وهو الولد الأكبر بين ١٤ طفلاً أنجبهم أرازموس درايدن، وقد تلقى علومه الاولى في مدرسة وستمنسر، حيث عاصر الكاتب جون لوك، وقد ظل درايدن يذكر سياط مديرها بوسبي حتى وفاته، ولكنه مع ذلك أرسل ولديه الكبيرين للدراسة في مدرسته، كذلك كان ‘‘إهداء’’ ترجمة الهجاء الخامس من أهاجي بيرسيس إلى ذلك المدير، ثم اختير لبعثة دراسية بكلية ترنتي التابعة لكامبريدج حيث حصل على البكالوريوس عام ١٦٥٤ (وهو العام الذي توفي فيه والده) ولا تكاد المصادر تخبرنا بشيء عن أحواله في الكلية سوى حالة تمرد طلب منه الاعتذار عنها لمدير الكلية، ولكنه أشاد باستفادته الكبيرة من مطالعاته في مكتبة الكلية، وبعد تخرجه عمل موظفاً حكومياً في لندن، ولم يفكر في التسجيل لدراسة الماجستير لظروفه المالية الصعبة.

ولم يكن درايدن قد كتب شيئاً ذا بال قبل بلوغه الخامسة والعشرين سوى أشعار مضطربة مساهمة منه في مجلد رثائي للورد الشاب هاستنغس الذي مات

باجدري عام ١٦٤٩، وبعض أشعار المجاملة للكاتب الديني جون هدسون، كما ساهم في مجلد تذكاري عن كرومويل، فظهر كشاعر سوف يستحق الانتباه في زمن وشيك.

وفي أيار ١٦٦٠ تمت استعادة النظام الملكي بدون ثورة أو عنف، بل بإرادة معظم سكان البلاد ورغبتهم الذين أرهقهم كرمويل وبطشه، وعاد الملك الشاب تشارلز الثاني (ابن تشارلز الأول) ، وكيف درايدن نفسه مع الواقع الجديد، ففي شهر حزيران نظم قصيدة ثناء للملك بعنوان: (**عودة استريا**) في ثلاثمائة بيت، ولما تم التتويج في نيسان عام ١٦٦١ أعدّ قصيدة أخرى بعنوان: **إلى جلالته المقدسة**، والقصيدتان طنانتان في مدح الملك وإحاطته بهالة من الفخامة والجلال وحتى بالألوهية، ليعلق الناس بأن مادح تشارلز الثاني قد رحب بإعدام والده تشارلز الأول!! وفي كتابه ''**حياة درايدن**'' يدافع الدكتور جونسون عنه فيقول: (إذا تحول، فقد تحولت الأمة بكاملها) .ويعمل في هذه الفترة كاتباً لدى الناشر هرنغمان ـ الذي طبع كتبه حتى عام ١٦٧٩) وسكن عنده، وفي مكتبه تعرف على السير روبرت هوارد ابن الايرل بركشير، وكتب قصيدة كمقدمة لمجموعة شعرية بعنوان ''قصائد'' نظمها السير روبرت، وفي عام ١٦٦٣ تزوج أخته إليزابيث.

وبعودة الملكية، عادت المسارح وفتحت أبوابها بعد إغلاقها عام ١٦٤٢ بسبب الحرب الأهلية، فبدأ الكتابة للمسرح بمسرحيته الكوميدية: **النبيل المتوحش**، لكنها لم تحقق نجاحاً يذكر، فألحقها بـ ''**السيدات المتنافسات**'' ، فحقق نجاحاً معتدلاً ، وفي عام ١٦٦٤ وبمشاركة السير هوارد، كتب المأساة البطولية ''**الملكة الهندية**'' عن الإمبراطور الأزتكي[1] مونتزوما، فحققا نجاحاً مميزاً شجع درايدن على كتابة ''**الإمبراطور الهندي**'' عام ١٦٦٥ فحقق نجاحاً يماثل نجاح العمل السابق.

---

(1) الأزتيك: شعب حكم المكسيك قبل أن يفتحها الاسبان عام ١٥١٩ .

وفي أواخر عام ١٦٦٦ نظم قصيدته الطويلة ''**السنة الرائعة**'' على شكل رباعيات، ويصف فيها حدثين هائلين شهدتهما إنجلترا، الأول الحرب التي شنتها بلاده ضد هولندة وانتصارها فيها، والثاني حريق لندن الشهير، ويعد درايدن الحادثين انتصاراً، فالحريق ثم الانتصار عليه بقيادة الملك الذي أشرف بنفسه على عمليات الإطفاء، وبفضل دعائه لله تحولت الرياح إلى عامل مساعد على إطفاء النيران! هذا الحدث صار انتصاراً آخر في نظره.

وفي عام ١٦٦٨ توفي شاعر البلاط وليم دافننت ، فعُين درايدن في ذلك المنصب، وأضيف إليه بعد عامين منصب آخر هو ''مؤرخ البلاط'' براتب سنوي قدره ٢٠٠ جنيه ثم زيد إلى ٣٠٠، وإضافة إلى دخله من أعماله الأدبية، فقد وصل دخله السنوي ٤٢٠ جنيه، ولكن راتبه من القصر كان ينقطع أحياناً، وعندما مات الملك كان مديناً لدرايدن بألف جنيه، وفي هذا العام منحت أسقفية كانتربري درايدن الماجستير الفخرية بأمر من الملك.

وتزدحم أواخر الستينيات وفترة السبعينيات بإنتاجه الأدبي، ففي عام ١٦٦٨ أصدر كتابه: **مقال عن الأشعار الدرامية**، وهو نقاش بين أربعة كتاب ـ هو أحدهم ـ حول أصول الدراما وفنونها، وميزات الدراما الجديدة والقديمة، ومقارنة بين الدراما الفرنسية والإنجليزية، وقد درس في هذا الكتاب أعمال عدد كبير من كتاب المسرحية اليونانيين والرومان، وأدباء عصر النهضة الإنجليز ومعاصريهم في فرنسا، باحثاً في المبادئ النظرية التي عليها ترتكز الدراما الجدية، وقد كان بارعاً ألمعياً في كل هذا وذاك، تسنده قواه الخلاقة واستمتاعه بدرس الأدب ونقده، حتى دعاه صامويل جونسون بجدارة: ''أبو النقد الإنجليزي''.

ويتفق مع شركة كلغرو على أن يقدم لهم ثلاث مسرحيات سنوياً مقابل ٣٠٠ ـ ٤٠٠ جنيه سنوياً بالإضافة إلى عشر الأرباح، فكتب ''**الحب السري**'' التي لقيت نجاحاً سريعاً، وأحبها الملك تشارلز ودعاها ''مسرحيتي'' وتلاها بالمآسي البطولية:

الحب الطاغي، **وغزو الإسبان لغرناطة** (جزءان) وقد كانت هذه الأعمال أقوى تأسيس لشهرته ويسره المادي، ولعبت الممثلة الينر نيل جوين (١٦٥٠ ـ ١٦٨٧) دور البطولة في هذه الأعمال الثلاثة، ووقع الملك في حبها، وأصبحت محظيته فيما بعد، أما مسرحيته: ''**المغولي العظيم**'' فقد قرأها الملك وهي لا زالت مخطوطة، معطياً ملاحظاته عليها، ومثلت عام ١٦٧٥.ويغير أسلوبه مستفيداً من شكسبير، فيلجأ إلى الشعر المرسل وينظم: ''**كل شيء من أجل الحب**'' التي اقتبسها من مسرحية شكسبير ''أنطونيو وكليوبترا'' فاستفاد من شكسبير الوحدات الثلاث: الزمن والمكان والأداء.ويتبعها بقصيدته الهجائية الحادة ''**أبشالوم واكتوفيل**'' التي ظهرت عام ١٦٨١ مستوحاة من قصص الإنجيل، موظفاً فيها خبرته عبر عشرين عاماً في الشعر والدراما الشعرية مناصراً الحزب الحاكم، مهاجماً حزب الهويغي **Whigs** بزعامة ايرل شافتسبري، وفي العام التالي نظم: ''**الوسام**'' وهي في ٣٠٠ بيت، ساخراً من الهويغيين الذين صنعوا وساماً إحياءً لذكرى تبرئة ايرل شافتسبري من تهمة الخيانة العظمى، وبالطبع لم يدعه خصومه، فقد نظم شاعرهم توماس شادول قصيدته اللاذعة ''**ماك فليكون**'' وهذا هو اسم شاعر سيئ توفي في تلك الفترة، فاهتبل درايدن هذه الفرصة ليزعم في قصيدته أن شادول هو ابن الشاعر المتوفي.

ولا شك أن مثل هذا الانغماس في الخلافات السياسية والدينية قد عمق تجربة درايدن وأثراها، يتضح ذلك في قصيدته ''**إيمان العلمانيين**'' **Relegio Laici** (١٦٨٢) وفيها اعتراف بأنه أصبح إنجليكانياً بعد عودة الملكية وأنه يرى نفسه على طبيعتها تميل إلى الشك فلسفياً.

ويموت الملك تشارلز الثاني في شباط ١٦٨٥، ويخلفه أخوه الكاثوليكي جيمس الثاني، وفي أقل من عام واحد يعلن درايدن وولداه تحولهم للكاثوليكية ومناصرتهم كنيسة روما ضد كنيسة إنجلترا، فوجدها أعداؤه فرصة ولا أثمن للهجوم عليه واتهامه

بالانتهازية، فينظم عام ١٦٨٧ قصيدته الطويلة ''**الأيلة والأسد**'' وهي عبارة عن تأملات دينية معاصرة، ومع أنها لا تحظى بكبير اهتمام هذه الأيام، إلا أنها دلت على قدرته على توظيف الخرافة الحيوانية لغرضه الديني، فجعل من الأيلة الكنيسة الرومانية، والأسد الكنيسة الإنجليزية، ومع أنه جعل الأيلة تتفوق في منطقها وحججها على الأسد، إلا أنه كان يائساً من سياسة جيمس الثاني، وكذلك من دعوى الكنيسة الرومانية.وعلى إثر ثورة ١٦٨٨، تنازل الملك جيمس الثاني عن العرش، ففقد درايدن كل امتيازاته ومناصبه لدى القصر (ولم يقبل لنفسه هذه المرة التحول إلى البروتستانتية، مذهب الحاكمين الجديدين وليم وماري، وبقي على إخلاصه للكنيسة الرومانية) وأول ما فقده منصبه كشاعر للبلاط الذي ذهب لعدوه اللدود ''شادول'' فعاد إلى المسرح ليكسب رزقه، وكتب الأوبرا ''**دون سبستيان ملك البرتغال**'' فلم تحقق النجاح المطلوب، ولكنه عوض ذلك في العام التالي بمسرحيته الكوميدية ''**امفيترون**'' فحقق نجاحاً كبيراً بمساعدة الموسيقي هنري برسل، وأتبعها مع برسل بمسرحية شكسبير ''الملك آرثر'' بعد أن حذف الجوانب السياسية منها، فحققت نجاحاً أكبر من سابقتها، أما مأساته ''**كلومينيز الملك الأسبرطي**'' فلم يحصل لها على إجازة من الرقابة فلم يتم تنفيذها وفي حين فشلت مسرحية ''**الحب المنتصر**'' عام ١٦٩٤، فتوقف عن الكتابة للمسرح.

ولكن المسرح لم يكن إلا جانباً من نشاطات هذا الحصان الأسود الذي لا يعرف أمثاله الملل أو الكسل، ففي الشعر، يعود إلى قصائده القديمة ويصدرها في مجموعة ضخمة في ٤ مجلدات بعنوان '' **قصائد متنوعة** '' وينظم قصيدة ''**اليانورا**'' التذكارية للكونتيسة ابنغدون، فقدم زوجها له مكافأة كبيرة عليها، كما نظم قصيدة بعنوان ''**أغنية في عيد القديسة سيسليا**'' و''**أغنية ثانية في عيد القديسة سيسليا**'' وسيسليا قديسة رومانية موسيقية، يفترض أنها مبتكرة آلة الأورغ، وقد توفيت عام

٢٣٠ للميلاد، وكانوا يحتفلون في إنجلترا في ٢٢ تشرين ثان من كل عام بذكراها بعمل موسيقي يؤلف خصيصاً لهذه المناسبة.

وكان الكاتب المسرحي ''سذرن'' (١٦٦٠ ـ ١٧٤٦) صديق درايدن الحميم قد قدم إليه الكاتب المسرحي الناشئ كونغريف (١٦٧٠ ـ ١٧٢٩) وذلك عام ١٦٩٢ فأطرى درايدن مزايا الكاتب الجديد وفي مجموعته الشعرية ''**عيد الكساندر**'' أهدى درايدن أبياتاً جميلة لكونغريف مادحاً مسرحيته ''المنافق'' وأعلن فيها أنه يسلم المشعل للكاتب الصاعد كونغريف.وفي الترجمة ، قطع درايدن مشواراً طيباً، فقد صدر له عام ١٦٩٣، ''**قصائد لبرسيس وخمس هجائيات لجوفنال**'' وتحت عنوان ''**خرافات قديمة وجديدة**'' ترجم أعمالاً شعرية لأوفيد وتشوسر وبوكاشيو وذلك عام ١٧٠٠، وقدم لها بمقدمة نقدية قيمة، ولكن عمله الأخير في الترجمة كان أعمال الشاعر الروماني ''فرجيل'' والتي صدرت عام ١٦٩٤، وقد راجعها صديقه كونغريف الذي خصه درايدن بمقالة مشهورة قال فيها أنه يعادل شكسبير في فنه المسرحي.وكان درايدن في أواخر أيامه يزور أقاربه في الأرياف، ويمارس لعبة البولنغ، وصيد السمك، ولكنه في نيسان ١٧٠٠ انقطع في بيته بسبب مرض النقرس ، وأصيب أحد أصابع قدمه بالغرغرينة وتم قطعه بناء على نصيحة جراح مشهور يدعى هوبز، وتوفي بهدوء في الأول من أيار عام ١٧٠٠ ودفن في وستمنستر أبي في زاوية الشعراء بين تشوسر وكاولي.

وقد يتساءل المرء : ''ما طبيعة إنجاز درايدن؟ ففنه المسرحي على العموم عائد إلى جيله، ولكن أثره استمر على أدب القرن التالي، أما كتاباته النقدية فقد أسست قوانين الذوق والمبادئ النظرية التي حددت شخصية الأدب الكلاسيكي الجديد في القرن التالي، فقد ساعد في تأسيس نوع جديد من النثر سهل صاف واضح، وشكل إيقاعات الخطاب العادي، هذا النثر الذي نحب أن نعتبره نثراً حديثاً، وقد مدحه جونسون لعفويته وبساطته الواضحة فقال ''كل كلمة تبدو وقد أتت صدفة مع أنها

في المكان السليم، فلا برود ولا وهن، فالكل بهيج رقيق مفعم بالحيوية والنشاط ، والسهولة تشمله بدون ضعف أو وهن، وإن بدا غير مدروس، فلا خشونة فيه، وهجاؤه مفعم بالحياة اليوم كما كان قبل ٣٠٠ سنة ويمارس تأثيراً مستمراً على أكثر الشعر الهجائي المتميز في القرن اللاحق"[١] .

من شعره

شقراء وجميلة وشابة [٢]

شقراء وجميلة وشابة، تتلقى جائزة
حفظت لعينيها الظافرتين
من جمهور ترينه تحت قدميك
اشفقي علي وميزيني عنهم
لأني من بين ألوف الوجوه الجميلة
ميزتك، وبك فقط أهيم
خلق وجهك لإخضاع الآخرين
وكل حركة منك تفتن عقلي
حتى الملائكة عندما تخرجين عن صمتك
تنسى تراتيلها، وتستمع إليك
ولكنهم عندما يصغون ويرون

---

(1)The Norton Anthology of English literature Vol.1 page 1789
(2) The Peagant of English Poetry. Oxford univesity press 1944. page 163.

ينفرون من الصعود، ويتمنون البقاء معك

ليس هناك من جمال أجمل تودين الوصول إليه

ولكن كل ذلك ضائع إن لم تحيي

وبينما أنت تزورين تلك العاطفة الرقيقة.

فخمارك وجمالك لا معنى لهما

أرجوك، أمنعي مصيري

لأنه، بعد موتي، كل إنقاذ لي يكون متأخراً

٥- الكسندر بوب
(١٦٨٨ - ١٧٤٤)

الضعف أو الإعاقة البدنية لا ينتصران إلا على النفوس الضعيفة، أما النفوس الكبيرة ذات العزيمة والتصميم، فلا يوقفها ولا يحبطها فقر أو عجز أو إعاقة، بل تراها ترى فيما حرمت منه شحذاً لهممها وسبباً في اندفاعها وصعودها حتى تصل ما لا يحلم الأصحاء والأغنياء بوصوله أو الارتقاء إليه.

وإلى جانب علة بوب أو إعاقته، فقد كان رومانياً كاثوليكياً، وهذا الولاء للإيمان القديم حرمه من الدراسة في الجامعة، وحق التصويت والوظائف الحكومية، هذا بالإضافة إلى الضرائب الثقيلة التي فرضت على الروم الكاثوليك فتركت بعض العائلات للفقر والإفلاس.

ولد الشاعر الكسندر بوب في الحادي والعشرين من أيار عام ١٦٨٨ في لندن ، أما والده ـ الكسندر بوب ـ فقد كان تاجر قماش بالجملة، وقد تقاعد في العام الذي ولد فيه ولده الشاعر وهو في السابعة والأربعين، أما والدة الشاعر فهي أديث تيرنر من يوركشير، ومن عائلة أرفع مستوى اجتماعياً من زوجها، وقد توفيت عام ١٧٣٣ وهي في الحادية والتسعين، أما زوجها فقد مات عام ١٧١٧ وهو في الخامسة والسبعين.

وقد غادر الجميع عام ١٧٠٠ لندن للسكنى في بنفيلد، ويبدو أن السبب وراء ذلك هو قرار الدولة بأن لا يسمح للروم الكاثوليك بالسكن ضمن مسافة عشرة كيلو مترات خارج العاصمة، وهناك قضى الشاعر فترة طويلة من صباه، وتعرف بعدة أسر كاثوليكية كان لها أثر في حياته لاحقاً، ولعل الانتماء الديني كذلك كان سبباً في عدم انتظام بوب في تعليم نظامي واعتماده على التعليم الخاص على يد بعض الكهنة الكاثوليك، والتحق ببعض مدارسهم في تايفورد قرب ونشستر، إلا أن معظم ما

تعلمه كان تعلماً ذاتياً، فعلم نفسه اليونانية والفرنسية والإيطالية، وقرأ بنهم الشعر الإنجليزي واللاتيني، ومن جانب آخر هيأ له انتماؤه الديني صداقات دامت مدى الحياة، وبالذات الملاّك الثري ''جون كاريل'' ومارثا بلونت التي خاطبها في عدد من قصائده وورثها معظم أملاكه.

ويبدأ بوب محاولاته الأدبية في سن مبكرة، إذ يبدأ بداية جيدة بتقليد بعض قصائد الشعراء الذين قرأ لهم، وأفضل ما نظم في صباه ''**أغنية العزلة**'' التي قال أنه نظمها وفي في الثانية عشرة، ويقول فيها:

سعيد من جعل أقصى رغبته

بعض الأفدنة الموروثة

قانع بأن يستنشق هواء بلاده

في أرضه ووطنه

الذي تعطيه قطعانه الحليب، وحقوله الخبز

وحواشيه الملابس

الذي تقدم له أشجاره الظل صيفاً، والنار شتاء

سعيد الذي يجد بدون أي قلق أو تعب

ساعات وأيام وسنين

بصحة جيدة، وراحة بال ، وهدوء دائم

وينام الليل، ويقرأ ويستريح

كل هذا معاً في استجمام رائع

وفي هذه الفترة أخذه بعضهم إلى درايدن لتقييم شاعريته، فقرأ عليه بوب شعراً يكاد يطاول شعره هو، فدهش درايدن أيما دهشة لشعر بهذا المستوى الرفيع لفتى ما زال في مرحلة الطفولة، هذه الطفولة التي بدأ يقاسي فيها بوب عللاً مختلفة، أهمها: انحناء عموده الفقري بسبب السل الذي أصابه ويدعى ''داء بوت''، وقد حد هذا

السل من نموه وطوله الذي توقف عند ١٣٧سم، وأثر كثيراً على صحته، ولازمه الصداع طوال عمره، وقد دفعته علله هذه إلى التركيز على أمر واحد يمكنه ممارسته وإتقانه... كتابة الشعر.

وفي سن الخامسة عشرة أخذ بوب يتردد على لندن ليتعلم الفرنسية والإيطالية، فسبب له انكبابه على الدرس أمراضاً جديدة، ولكن هذه الزيارات اللندنية عرفته برفاق درايدن وجلسائه أمثال وليم وشر ووليم ولفن وهنري كرومويل والناقد جاكوب تنسون الذي لم يبخل على بوب بالنصح والإرشاد ، ولما قرأ ''أشعار رعوية'' العمل الشعري الأول لبوب طلب نشرها في رسالة كتبها لبوب في نيسان ١٧٠٦، ولكن المخطوطة كانت تتناقل بين أعلام الأدب حينذاك مما أخر نشرها حتى عام ١٧٠٩ في المجلد السادس من ''منوعات شعرية'' من جمع تنسون، ونشر معها إعادة نظم بوب لقصيدة تشوسر ''رحلة التاجر'' وابيزود[1] ساربيرون المأخوذ من الإلياذة، وفي هذه الفترة ارتبط بوب بعلاقة حميمة مع الكاتب المسرحي ''وشرلي'' (١٦٤٠ ـ ١٧١٦) رغم فارق السن الكبير بينهما، وكان لهذه العلاقة أثرها في أدب كليهما.

أما أول نجاح له فكان عام ١٧١١ بقصيدته ''**مقال في النقد**'' وساهم في شهرته مقال للكاتب أديسون قرظ فيه هذه القصيدة، وزاد من الشهرة أيضاً هجوم شخصي للناقد جون دينيس بسبب إشارة في القصيدة إليه.

وفي العام الثاني نظم الشاعر ''**اغتصاب خصلة شعر**'' وسبب نظمها هو أن اللورد بيتر قد قص خصلة من شعر أرابيلا فيرمر أجمل نساء زمانها، التي ثارت لهذا المزاح العملي، وتطور الأمر إلى نزاع بين العائلتين الكاثوليكيتين، فأشار أحد أصدقاء

---

(1)الابيزود: ذلك الجزء من تراجيدية إغريقية قديمة الواقع بين اغنيتين كورسيتين (المورد).

بوب عليه بنظم هذه القصيدة للإصلاح بين الفريقين ، شارحاً الحادثة على أنهـا لا تتعدى المداعبة والمزاح، ونشرت القصيدة في نشيدين عـام ١٧١٢، وحققـت نجاحـاً شعبياً طيباً مما شجع بوب على إطالتها إلى خمسة أناشيد ونشرت عام ١٧١٤، فكـان النجاح أكبر وذلك لاستخدامه ذلك العامل الذي يستهوي القراء وهو القوى الخارقة فوق الطبيعية للقزمين الخرافيين في القصيدة التي نفد منهـا ثـلاث طبعـات متتاليـة، وظلت خير ما يمثل بوب في خياله المحلق حتى وهو في زمن انحسار شهرته في القرن التاسع عشر.

وكان بوب لسنوات خلـت يعـود بـين الفينـة والأخـرى لقـصيدته، ''**غابـة وندسور**'' التي كان يعرفها جيداً (أي الغابة) لأنه كان يسكن فيها، فكان وصفه لهـا دقيقاً رائعاً وبالذات حين وصف طائر التدرج يقع في أيدي الصيادين، وعلى طريقة الشاعر ''فرجيل'' ينتقل من المسحة الرعوية إلى المسحة الزراعيـة، فيحتفـل بعهـد الملكة آن كما كان فرجيل يحتفل بعيد أغسطس.

وعلى الصعيد الاجتماعي الأدبي، كان بوب قد انتمى إلى جماعة من الأدبـاء المؤيدين لحزب ''التوري''[1] وكان على علاقة حميمة في هذه الجماعة مع الروائـي ''سويفت'' وانضم للنادي كونغريف وآربثنت واتربري و اكسفورد والرسام رتشارد سون، وكان النادي غير رسمي، وهدفه هجاء الحذلقة والـتعلم الزائـف، وابتكـروا شخصية دعوها ''مارتن التافه'' وحملوها عبء هجاء المتحذلقين ومـدعي الثقافـة، وقد جمعت مقالات هذه الجماعة ونشرت عـام ١٧٢١ بعنـوان ''مـذكرات مـارتن التافه''، وتكمن أهمية هذه الجماعة في خلقها نزعة الهجاء التي ظهرت بوضـوح في أعمال أعضائها مثل ''رحلات جلفر'' لسويفت و''دونسياد'' لبوب.

---

(1) التوري: عضو في حزب سياسي بريطاني مؤيد للسلطة الملكية ومقاوم للتغيير والإصلاح، وهو الحزب الذي يدعى اليوم "حزب المحافظين" (المورد).

وينظر بوب على ما يبدو إلى جهود سابقيه في صنف من الأدب لا يبعد كثيراً عن الشعر، فقد اقتفى أثر درايدن وترجم شعراً أربعة أجزاء من الإلياذة لهوميروس، وطبع الجلد الأول من الترجمة عام ١٧١٥، ثم عاد وأكمل ترجمة الجزئين الخامس والسادس وأنهاهما عام ١٧٢٠، وأتبع الإلياذة بترجمة الأوديسة، وشاركه في ترجمتها وليام بروم وفنتون ، وظهرت عام ١٧٢٥، هذان العملان اللذان ما يزالان مطلوبين عند القراء قام بهما بوب تبعاً لمتطلبات الذوق العام آنذاك، وقد جنى منهما ربحاً وفيراً بلغ عشرة آلاف جنيه، وقد سعد بذلك وقال: شكراً لهومر، فأنا أعيش الآن غير مدين لأمير أو نبيل'' وقد استطاع بذلك أن يرتحل مع والدته ويستأجر فيلا في توكنهام عام ١٧١٨، فعاش العيش الذي يهوى ويعشق في الريف مستمتعاً بصحبة رفاقه الأدباء من جماعة حزب التوري.

وتحصل بعض الأحداث في حياة بوب الاجتماعية فقد مرضت أمه وأصبحت في خطر في نهاية عام ١٧٢٥، وتوفيت ممرضته ماري بيش في العام نفسه، ونفي صديقه اتوبري عام ١٧٢٣ واستدعي بوب للإدلاء بشهادة في محاكمته، كذلك أزعجه استدعاؤه للإدلاء بشهادة في معتقداته الدينية، وازداد قلقه عندما اشتكى البعض ضده لطبعه أعمال بكنجهام التي صودرت لاحتوائها أفكاراً ستيوارتية مخالفة للسياسة آنذاك.

ويزيد بوب من شهرته بقصيدتين عاطفيتين نالتا إعجاب جمهوره، الأولى رسالة بعنوان ''**من الويزا إلى ابيلاد**'' والثانية مرثاة بعنوان ''**اشعار في ذكرى سيدة سيئة الحظ**'' فكانتا أفضل ما كتب رومانتيكية ورقة شعور.

وفي عام ١٧٢٩ ظهر كتابه ''**شكسبير المستعاد**'' وهو طبعة لبعض أعمال شكسبير بعد تعديلها لتلائم لغة أهل العصر وذوقهم، ولكن هذا العمل لم يعجب كاتباً يدعى لويس ثيوبولد، فهاجمه بضراوة، فكان رد بوب بالنثر والشعر، فنظم ملحمة ساخرة بعنوان ''**دونسياد**'' جعل فيها البطل ثيوبولد يتوج ملكاً على

الأغبياء، وظن بوب أنه بهذه القصيدة سوف يتخلص من أعدائه بضربة واحدة، وطبعت الملحمة في ٣ كتب عام ١٧٢٨ ، إلا أن ما حصل هو العكس، فقد ازدادت النار أواراً، فقام بوب بطباعتها في العام التالي بعنوان ‘‘**الدونسياد محققة**‘‘ وقدم لها بمقدمة مفصلة، وألحقها بذيول وقوائم بأسماء المؤلفين الضحايا الذين هجاهم من جماعة شارع كوب مع تبريرات للهجاء، وقد عاد لهذه القصيدة عام ١٧٤١ وطبعها في أربعة كتب، وظهر في هذا العمل متأثراً بقصيدة درايدن ‘‘ماك فيلكون‘‘ وبالفردوس المفقود لميلتون.

ويختار سويفت التقاعد في إيرلنده، ويظل بوب يراسله، ويقترح عليه زيارته، فلبى سويفت الزيارة في صيف ١٧٢٦ حاملاً معه روايته المشهورة ‘‘رحلات جلفر‘‘ لطباعتها، فتكفل بوب بترتيب ذلك، وعاد سويفت يزور بوب في حزيران ١٧٢٧ وقضى فترة مستمتعاً برفقة مضيفه وصحبة رفاقه الأدباء، واشترك معهم في إصدار مجلدين من المنوعات الأدبية ثم عاد إلى إيرلنده.

ويشرع بوب في عمل جديد وقد تجاوز الأربعين بسنوات ليضع خلاصة تجاربه الحياتية والأدبية، فينظم قصيدته الفلسفية: **مقالة عن الإنسان** (٣٣ ـ ١٧٣٤) والتي أرادها مسحاً عاماً لطبيعة الإنسان والمجتمع والأخلاق، ولكنها مع الأسف لم تكتمل، وقد أهداها إلى هنري جون فيكونت بلنغروك (١٦٧٨ ـ ١٧٥١) وزير الخارجية الأسبق لحكومة التوريين (١٧١٠ ـ ١٧١٤) والذي كان قد عاد من فرنسا وسكن بجوار بوب، فتوطدت العلاقة بينهما، وكتب بوب في الإهداء: إلى مرشدي وصديقي الفيلسوف‘‘ ومنه استمد معظم أفكار القصيدة التي قال أن هدفه من نظمها توضيح سبل الإنسان إلى الله عز وجل، ومن هذه القصيدة عناوين فرعية مثل: استعمال الثروة، معرفة الإنسان وخصائصه، خصائص النساء، وجمعت هذه تحت عنوان‘‘ مقالات أخلاقية ‘‘ ، ثم هناك مقالة إلى الدكتور ‘‘اربثنوت‘‘ موضحاً فيها أسباب علاقته بأصدقائه، ومع أن تبريره لكتابة هذه القصيدة ‘‘إيضاح السبل إلى الله‘‘ أن

ملتون قد ذكره في فردوسه المفقود، فقد ابتعد بوب عن النظريات المسيحية مع إيمانه بها، ولكن لوجود ملايين من الناس لا يؤمنون بها، لذا كان معنياً بمخاطبة العالم كله، أما ملتون فقد اعتمد على الإنجيل ونهج نهجاً ميثيولوجياً.

وتقوده هجمات النقاد إلى اعتبار نفسه هجاء، ويتخذ الشاعر الروماني هوراس (٦٥ ـ ٨ ق.م) مثلاً يحتذى في هذا الباب ليدافع عن نفسه، وألف قصيدته ''**تقليد الهجاء الأول من الكتاب الثاني لهوراس**'' (١٧٣٣) و''و''**رسالة إلى أرثبنت**'' (١٧٣٤) و''**حواران**'' ١٧٣٨ و''**رسالة إلى أوغسطس**'' ١٧٣٧، وقد جمعها في كتاب ''**خاتمة لقصائد الهجاء**''، والقصائد الأربع وغيرها على النمط الهوراسي، ولكنها تحديث وتطوير لتلك القصائد الهوراسية ضمن الظروف العصرية الراهنة، فقد رأى ـ ومعه سويفت ورفاقه من التوريين ـ عصر الملك جورج الأول وجورج الثاني فترة اضمحلال سريع سياسياً وثقافياً وأخلاقياً، وسبب ذلك الفساد السياسي والمالي، وسيطرة رجال البلاط على أمور الدولة وفي مقدمتهم روبرت والبول، وفي قصائده تلك يمدح مقاييس الحياة ومعانيها عند هوراس غير ما وجده في عصره ووطنه.

ويعود ويظهر جزعه على هذه المقاييس العائدة في بلاده في قصيدته ''**دونسياد الجديدة**'' (١٧٤٢) واضعاً ''كولي سيبر'' شاعر البلاط مكان ثيوبولد كملك للأغبياء، سيبر هذا لم يكن مصدر إزعاج فحسب، بل كان خير ممثل لمقاييس الحياة المنحطة، وفيها يقول بوب:

في إنجلترا القديمة المرحة كان هناك قاعدة
إن للملك شاعره وله أحمقه أيضاً
ولكننا الآن أصبحنا مقتصدين جداً، أريد أن أخبرك:
أن ''سيبر'' يستطيع أن يؤدي الدورين: الأحمق والشاعر

وفي أيامه الأخيرة شغل بوب نفسه بمراجعة أعماله وزيارة أصدقائه في المناطق القريبة منه، ولازمته صديقته ''مارثا بلونت'' رغم أنه كان يطلب منها التقليل من زيارته، وكل الأدلة تشير إلى أنها كانت الأكثر التصاقاً به من بين النساء اللائي عرفهن، ويدل على تفضيله لها أن معظم الرسائل التي كتبها للنساء كانت لها.

ولما اشتد عليه مرضه، أحضر له الكاهن يوم ٢٩/ ٥/ ١٧٤٤ ليقول له بوب '' لا شيء في الحياة يستحق التقدير سوى اثنين الفضيلة والصداقة، والصداقة في الواقع مجرد جزء من الفضيلة''.

وتوفي بوب في الثلاثين من أيار، وأوصى بمعظم ممتلكاته لمارثا بلونت، وقسم الباقي بين أصدقائه، وقد دفن في الخامس من حزيران في كنيسة توكنهام بين قبري والديه.

لقد كان بوب سيداً في الأسلوب من بداياته حتى النهاية، قوياً في انسجام لغته ودقة معانيه ومبدعاً في تطويعه القافية المزدوجة لأغراضه المتعددة حتى في تراجمه لهوراس، إضافة إلى ثقافته الواسعة التي نهلها من أعمال الأقدمين من بلاده وسواها، وإذا كان البعض يعيب عليه نقصاً في الخيال فإن هذا الرأي لا يثبت ولا يصمد أمام اتساع مدى خياله وابتكاره ، وحسن تنظيمه لقدراته التي تظهر جلية في ''اغتصاب خصلة شعر'' و''دونسياد''.

أما شهرته فقد امتدت طوال القرن الثامن عشر ـ وإن هاجمها الرومانتيكون ـ عدا بيرو ـ كونه كلاسيكياً ـ وهو أول شاعر إنجليزي يستمتع بشهرته خارج بلاده خاصة في فرنسا وإيطاليا، ويرى أعماله تترجم إلى اللغات القديمة والحديثة على السواء.

من شعره

عزلة [1]

سعيد ذلك الرجل الذي لا تتعدى رغبته وغايته

بعض الأراضي الموروثة المحدودة

قانع باستنشاق هواء وطنه

على أرضه

والذي يأخذ الحليب من قطيعه

والخبز من حقوله

وتوفر له طيوره الملابس

وأشجاره تمنحه الظل صيفاً

والنار شتاء

سعيد من يعيش بلا قلق

ساعات وأيام وسنين تمر بهدوء

يحتفظ بصحته، وهدوء باله

هادئ على مرور الأيام

ينام ليلاً، يدرس ويستريح

يختلطان معاً، إنه استجمام رائع

والبراءة أكثر ما يفرح مع التأمل

هكذا دعني أعيش، لا يراني أحد، غير مشهور

هكذا لا يرثى لي حين أموت

لا أسلب من العالم ولا حتى حجراً

يدل على مكان رقودي

---

(1)Great Poems , p 164

العصر الرومانتيكي
(١٧٨٠ ـ ١٨٣٠)

عرف الأستاذ العلامة منير بعلبكي الرومانتيكية بقوله:

''حركة أدبية وفنية وفلسفية نشأت في القرن الثامن عشر كرد فعل ضد ''الكلاسيكية المحدثة''، وقد تميزت بالتأكيد على الخيال والعاطفة، وبالنزعة إلى تصوير الخبرات الذاتية وتمجيد الإنسان العادي، وبحب للطبيعة الخارجية وميل إلى الكآبة''.

وسوف تتضح لنا نموذجية هذا التعريف في الصفحات التالية.

مظاهر العصر:

١- كانت الحركة الرومانتيكية استجابة للثورة الفرنسية وشعارها: ''حرية، مساواة، إخاء'' وعبرت أفكار فلاسفتها الكبار أمثال روسو ومنتسيكو وفولتير القنال الإنجليزي لتؤثر في عقل كل إنجليزي، ولقيت استحساناً وحماساً لمبادئها التي أثرت في الأدب تأثرها في السياسة والتعليم.

٢- تعزيز الحياة البرلمانية ومبادئ الديمقراطية ـ وقد بلغت إنجلترا أوج ذلك بفرض البرلمان وثيقة الإصلاح عام ١٨٣٢.

٣- حدثت في إنجلترا الثورة الصناعية، فتحولت البلاد من زراعية إلى صناعية، وتطورت البلدات إلى مدن ، واتجه العمال والمزارعون إلى المصانع والمناجم، وهذا أدى إلى استخدام الأطفال وحرمانهم من العناية الطبية والتعليم.

٤- خارج بريطانيا: اعترفت بريطانيا باستقلال أمريكا عام ١٧٨٢ بعد عدة هزائم لجيوشها هناك، وفي فرنسا تم اقتحام الباستيل وإلغيت الملكية، وأعدم لويس السادس عشر، وظهر نابليون الذي تسلم الحكم عام

١٨٠٣ ولم يحكم سوى عشر سنين ثم هزم ونفي حيث مات في منفاه عام ١٨٢١.

أما الأدب، فمن خصائصه في هذا العصر:

١- إغراق الشعراء في الغنائية، وسعيهم إلى الحرية والانطلاق من القيود الأدبية المعروفة في العصور السابقة.

٢- الإغراق في الخيال وتفضيله على العقل والمنطق والواقع.

٣- التعبير عن الأحاسيس والأزمات الإنسانية كالقلق والكآبة والتشاؤم والأمل... الخ.

٤- التغني بحب الطبيعة والتشبث بها، وتأكيد علاقة الإنسان بها.

٥- تعزيز الفردية، ومحاربة أية قواعد وأنماط تفرض على الأديب.

٦- أما اللغة: فلكي يعبر الأدباء عما يجول في خواطرهم، فقد بحثوا عن أشكال غنائية ، ولغة غير مملة من التقاليد الموروثة، لذا هجروا الأساليب الشعرية للقرن السابع عشر وابتكروا مجاميع من العلاقات بين الكلمات إلى جانب أخيلة غريبة وأشكال شعرية متنوعة.

وقبل الحديث عن جهابذة العصر الرومانتيكي، حري بنا أن نلم بأسماء الذين كانوا بمثابة الإرهاصات للحركة الرومانتيكية، وأولهم **جيمس تومسن** (١٧٠٠ - ١٧٤٨) الذي دعا في قصيدته "الفصول" إلى التوجه إلى الطبيعة، وقصيدته تلك تصف تغير حالاتها، وقد لقيت القصيدة نجاحاً لا يقل عن نجاحها في فرنسا ، وأشاد بها فولتير.

وهناك **توماس جري** (١٧٣١ ـ ١٨٠٠) صاحب قصيدة "المهمة" التي نظمها بالشعر الحر عن الطبيعة أيضاً.

ويلي هذين الشاعرين، الشاعر والنقاش **وليم بليك**(١٧٥٧ ـ ١٨٢٧) صاحب "أغاني البراءة" و"أغاني الخبرة" الحافلتين بالغموض والصوفية، والشاعر

الاسكتلندي روبرت بيرنز (١٧٥٩ـ ١٧٩٦) الذي لم يتلق تعليماً منتظماً وتعلم على نفسه، ولقي ديوانه الغنائي ''قصائد بالإسكتلندية'' رواجاً كبيراً.

ويلي هذ الجيل جيل ''الأساتذة الكبار'' ، فنبدأ بأعظم أعلام الرومانتيكية في كل العصور الأدبية الإنجليزية ''**وليم وردزورث**'' (١٧٧٠ ـ ١٨٥٠) والذي يبدأ بعض المؤرخين العصر الرومانتيكي بصدور ديوانه (المشترك مع كولردج[1]) ''قصائد غنائية عام ١٧٩٨، وهذا يدل على مدى شهرتهما، وكان قد زار فرنسا في السنين الأولى للثورة (٩١ ـ ١٧٩٢) فاعترف بأنه قد ولد من جديد بعد تلك الزيارة وذلك للأثر العميق الذي أحدثته فيه، وقد اعتمد وردزورث اللغة البسيطة المحكية في ذلك الديوان إلا قليلاً من القصائد كان بلغة صعبة، وفيها يصف الاتحاد الصوفي بين الإنسان والطبيعة، الطبيعة التي رآها المعلم الأكبر للأخلاق والمصدر الأول للسعادة.

وعاصر وردزورث وعايشه صديقه الحميم **صامويل كولردج** (١٧٧١ ـ ١٨٣٤) المولع بالأعاجيب والسحر والألوان الغامضة والخارقة للطبيعة، ومثلت قصائده: أنشودة البحار، كريستابل، كويلاخان.. مذهبه هذا.ومع الشاعر **روبرت سذي** (١٧٧٤ ـ ١٨٤٣) شكل الثلاثة ما دعي بشعراء البحيرة كونهم كانوا يعيشون على منطقة بحيرة كمبرلان.

اللورد بايرون: (١٧٨٨ ـ ١٨٢٤) وارث اللقب والثورة وهو في العاشرة، واشهر أعماله قصيدته ''الطفل هارولد'' المنظومة على طريقة المقاطع السبنسرية، وهي قصة رجل مغامر يغادر وطنه للترحال في العالم وزيارة أماكن تعطي للشاعر الفرصة ليقول الشعر عن أحداث الماضي كمعركة واترلو مثلاً، وقد حقق بايرون شهرة في أوربا أكثر مما حققه في بلاده، وتأثره بالشاعر بوب كان واضحاً وإن لم يبلغ شأوه، في حين نرى هجائيته ''بيبو'' و''دون جوان'' تدلان على تأثره بشعراء

النيوكلاسيكية من عصر المنطق ، والجدير بالذكر أن بايرون قد مات بالحمى وهو يحارب مع اليونانيين للاستقلال عن الحكم التركي.

شيلي: (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) شاعر راديكالي أيد الثورة اليونانية وناضل عن أسباب بؤس الإنسان، ونادى بالحرية، وكتب'' ثورة الإسلام'' في ٥ آلاف بيت، ومن أعماله ''برموثيوس طليقاً'' عن صراع الإنسان ضد الآلهة.. وقصيدة ''أدونيس'' في رثاء الشاعر كيتس.

جون كيتس: (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) عاش يتيماً، وقد دفعه طموحه العاتي إلى احتراف الأدب بتشجيع من ''لي هنت'' ووردزورث وشارلز لامب، من أشهر أعماله لاميا، إزابيلا، أنديمون، عين القديس اجنس، وقد تأثر به شعراء الجيل اللاحق.وإذا ما انتقلنا إلى النثر، يطل علينا وولتر سكوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٩) الذي توجه إلى الرواية التاريخية وأصدر سلسلة منها مثل: وافرلي، الوفيات القديمة، فتاة بيرث الحسناء، ايفانهو، وتعالج رواياته مواضيع من تاريخ أوروبا وماضي اسكتلنده بالذات، ويثير اهتمامه الصراعات الدينية والسياسية في العصور السابقة، وبجانب الرواية كتب في النقد: أعمال درايدن، أعمال سويفت، وكتاب سيرة بعنوان: حياة نابليون.

جين أوستن: أما الروائية جين اوستن (١٧٧٥ ـ ١٨١٧) فلها مكانتها السامية في عصرها وفي العصور اللاحقة من الأدب الإنجليزي، وقد اعتمدت في أعمالها على أخلاق القرن الثامن عشر وسلوكياته ونماذجه ، فأصدرت دزينة من الروايات أبرزها: ''إيما'' و''كبرياء وهوى'' ، وتركز أوسن على الشخصيات أكثر من تركيزها على الأفكار، ولكنها بارعة في التصوير وعرض الأوضاع الإنسانية، لذا هي أقرب من سواها إلى عصرنا الحالي.ومن الناثرين الذين لم نتحدث عنهم: شارلز لامب (١٧٧٥ ـ ١٨٣٤) ووليم هازلت (١٧٧٨ ـ ١٨٣٠) ، والناقد والناثر دي كونزي (١٧٨٠ ـ ١٨٥٩) الذي كسب شهرة بسيرته الذاتية بعنوان: اعترافات مدمن أفيون انجليزي.

٦ـ وليم بليك

(١٧٥٧ ـ ١٨٢٧)

ولد الشاعر الصوفي والنقاش وكاتب الأساطير وليم بليك في الثامن والعشرين من تشرين الثاني عام ١٧٥٧ في حي سوهو في لندن، وهو الابن الثاني بين أربعة أبناء وابنة لجيمس بليك الذي كان يعمل صانع جوارب، وقد لاحظ أبوه ميله إلى الفنون في سن مبكرة، فأرسله وهو في العاشرة إلى أفضل مدرسة للرسم في زمنه، وهي مدرسة هنري بارز، وأحضر له الأدوات وقدم له ما يحتاجه من مال في هوايته، وعندما بلغ الرابعة عشرة قدمه والده للنقاش ''باسير'' فعمل عنده سبع سنوات تعلم فيها الأساليب الفنية التقليدية المعروفة في زمنه، فرسم ودرس الفن الجرماني من خلال الأضرحة والكنائس في لندن القديمة ولا سيما وستمنستر أبي، ثم درس لفترة في الأكاديمية الملكية للفنون عام ١٧٨٤ والتي كانت قد أنشئت حديثاً، إلا أنه هجرها بعد خلاف مع أستاذه فيها، فتمرد على أسلوب الأكاديمية التقليدي، وفضل أن يتبع أسلوب مايكل أنجلو وروفائيل.

وبدأ يكسب رزقه من الرسم والنقش لبائعي الكتب، وأمّن له هذا دخلاً ثابتاً وإن كان ضئيلاً، وفي عام ١٧٨٢ تزوج كاترين بوشر التي كانت أمية تماماً، فعلمها القراءة والكتابة بل والرسم والنقش أيضاً، فأصبحت مساعدته في أعماله الفنية، وكانا طوال حياتهما متحابين متلازمين، ولم ينجبا أطفالاً.

وفي عام ١٧٨٤ افتتح محلاً لأعماله الفنية مع شريك له، وانضم إليهما أخوه روبرت، ولما توفي أخوه عام ١٧٨٧ هجر وليم المحل حزناً وأسفاً ، وارتحل مع زوجته إلى لاميث حيث أنتج أروع أعماله.

أما معارف بليك الأخرى فقد حصل عليها بالجهد الفردي الخالص، فتعلم اللاتينية والعبرية واليونانية والفرنسية والإيطالية، ودرس ملتون وشعراء العصر

الإليزابثي، وبالذات الصوفيين منهم، والأفلاطونيين كذلك، فهو نفسه كانت تحدث له حالة الكشف التي تحدث للصوفيين منذ صغره، فكان يقول أنه يرى الملائكة وشخصيات تاريخية قديمة ذكرها، ولما سألته سيدة: أين تراهم، قال ''هنا يا سيدتي'' وأشار إلى جبهته.

وفي عام ١٧٨٣ ظهرت مجموعته الشعرية الأولى: ''**صور شعرية**'' وتضمنت أشعاراً كتبها في طفولته وهو في الثانية عشرة، حيث أن موهبته الشعرية قد ظهرت مع موهبته الفنية، وقد مول هذه المجموعة هنري ماثنو الذي انضم بليك إلى جماعته، مما أتاح له معرفة شعر القرن الثامن عشر ما قبل الرومانتيكي، وفي هذه المجموعة يظهر تأثره بالشعراء المعاصرين والإليزابيثيين والمتأخرين من القرن السابع عشر، ومع ذلك ففيها ذلك الأسلوب من الإلهام الغنائي النقي، والذي جعلها نقطة تحول في الأدب الإنجليزي، وتصطبغ هذه المجموعة بنفور من المادية والعقلانية، وإيمان بالقوة التحريرية للخيال.

وفي عام ١٧٨٩ كانت لديه المجموعة الشعرية ''**أغاني البراءة**'' ولما أراد نشرها لم يجد ناشراً، فقام مع زوجته المخلصة بحفر كليشيهات نحاسية لها وطبعها ملونة، وبعد ذلك أخذ يطبع أعماله بهذه الطريقة، أما ''أغاني التجارب'' فقد ظهرت عام ١٧٩٤، وهاتان المجموعتان هما أكثر أعماله شعبية.

ويتأثر بليك بالمذاهب الثورية في أميركا وفرنسا، فيصبح ثورياً متحمساً، ويلتقي بالثوريين أمثال توم باين وجوردين وماري رولستون كرافت، ولعدة سنوات كان متحمساً لمذاهب الراديكاليين، فبعد الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ أخذت آثاره تكشف عن اقتناع بميلاد جيل جديد شاهد على دمار النظام الكنسي، وعلى الحروب والكبت الجنسي والروح التجارية، وعلى سمو الفنون، وكان توقعه صحيحاً، وقد عبر عن أفكاره في هذه الفترة في قصائد عدة منها: **الثورة الفرنسية** (١٧٩١) **أمريكا** (١٧٩٣)

أوروبا (١٧٩٤) ، وبتفرق الجماعة التي كان قد انضم إليها، وبسبب السياسة الرجعية لحكومة وليم بث، قرر هجر السياسة.

وبإغراء من الفنان فلاكسهام، ارتحل بليك مع زوجته وأخته إلى فلفام ـ في مقاطعة وسكس ـ ليعمل مع فنان يدعى وليم هايلي، وسكن في كوخ هناك سعيداً بالأجواء الريفية، ولكن الأمور لم تسر كما يشتهي، فقد وجد نفسه يزين بالصور تفاهات أقارب هايلي وأصدقائه، كذلك استفزه سوء فهم هايلي وعجرفته ومحاولته التفضل عليه ، فعاد إلى لندن وهو يشعر بالراحة من تخلصه من هايلي، ولكنه خلال السنوات الثلاث التي قضاها هناك أنتج لنفسه أعمالاً فينية متميزة، وشعراً صوفياً قوياً تجسد في ملحمته ''ملتون'' التي طبعت عام ١٨٠٨، وقد اشترى صديقه بتس معظم لوحاته، وأثبت بذلك أنه الصديق الوفي لبليك.

بعد عودته إلى لندن قرر أن يكرس حياته لفنه، فحاول أن يحسن من أحواله المادية بنشر كتبه، إلا أن أمله خاب في هذا المجال، وعاد صديقه بتس يشتري أعماله في النقش، ولكن لم يجد سوقاً لنشر كتبه، وقام بعمل معرض لأعماله الفنية في بيت أخيه جيمس، وعرض فيه ستة عشر لوحة، إلا أن المعرض لم يحقق الغرض المالي المطلوب..ولم يجد اهتمام النقاد.

وخلال هذه الفترة أنتج مجموعته ''**كتب نبوية**'' تحول فيها شعره من الغنائية العاطفية والبساطة إلى العمق والغموض والرمزية، وكبقية أعماله لم يكن هناك روح لها، ولكنه كان محاطاً بعدد من المعجبين المخلصين بقوا حوله حتى أواخر أيامه، منهم صامويل بلمر وكالقرث وريشموند.

ومن أعماله الأخرى التي لم نذكرها :

١- كتاب ثيل (١٧٨٩) : وثيل روح لم تولد بعد وترهب من مشهد العالم المادي.

٢- زواج السماء والجحيم (١٧٩٣) : نقد للمسيحية التقليدية.

٣- مشاهد لبنات البيون: (١٧٩٣) ندب لمصير العذراء اورثون التي اغتصبها بروميون واستعبدها، وهو من الأساطير.

٤- كتاب يوررزن (١٧٩٤) : يتخيل فيه هجوم يوررزن من الفضاء الخارجي على العالم وتحطيمه له ثم يقع هو في شباك هذا الحطام.

٥- كتاب الضياع (١٧٩٥) قال فيه أن أحداث الثورتين الأمريكية والفرنسية مقدمات لانتصار الإنسان على السلطة.

٦- ملحمة الحيوانات الأربعة (١٧٩٦) .

٧- ملحمة القدس (١٨٠٤) : يخرج من يأسه ليضع في هاتين الملحمتين مع ملحمة ملتون نظريته في الخلاص بالحب المتبادل وغفران الذنوب، والأعمال الثلاثة تعتمد على الرمزية المعقدة التي استنبطها وتعلمها من قراءاته المختلفة.

وفي سنواته الأخيرة وبعد عام ١٨١٨، جدد بليك قواه بدعم من مريديه ومنهم فنانون أمثال جون لنل وصامويل بالمر، فأنتج في مجال الرسم والنقش رسوماً ونقوشاً للكتاب: كوميديا دانتي الإلهية'' لمؤلفه جوب، وشجعه صديقه جون فارلي لعمل ''لوحات روحية'' للأخيلة والأطياف التي رآها لتشارد الثاني والنبي موسى.

وزاد التقدم في السن من وعي بليك وإدراكه الروحي، وكان يقول: إن خيالي يقوى ويقوى مع تهدم جسدي ، معتقداً أن الإنسان الحقيقي هو الخيال الذي يعيش إلى الأبد، ومن أقواله في هذا المجال: ''إني لا أعتبر موتي سوى انتقال من غرفة إلى أخرى'' ''الخيال فقط هو الحقيقة'' ''الخيال هو عالمي'' ''هذا العالم هو ظل الخلود''.

ولما مات في ١٢ آب ١٨٢٧ قال صديقه جورج ريشموند: قبل أن يموت بقليل أصبح وجهه صافياً وعيناه لامعتين، وانفجر مغنياً بالأشياء التي رآها في السماء.

لقد ولد بليك ـ كبقية العباقرة ـ خارج زمانه ومكانه، لذا فقد قال: أنا ليس لي معاصرون'' فعاش مبهما بالنسبة لمعاصريه الذين أثر فيهم قليلاً بقدر القلة التي أثروها فيه، حتى أنه بعد وفاته بسنوات عدة ظل غير معروف، فلم تنشر سيرته إلا عام ١٨٨٣ من تأليف الكسندر جلكوست، بعد ذلك أخذت قوته وأصالته تكتسبان الاعتراف بهما، لذا يعتبر الآن أحد الأعلام العظام في الشعر الإنجليزي.

وقد قام السير جاكوب ابستن بصنع تمثال نصفي له وضع في زاوية بليك في وستمنستر أبي عام ١٩٥٧ إحياء للذكرى المئتين لميلاده، أما لوحاته فمعروضة في غاليري تيت في لندن، أما مجموعات كتبه فموجودة في المتحف البريطاني في كمبردج.

وليم بليك

أغاني البراءة [1]

يعزف على المزمار في الأودية البرية
يعزف أغاني مرحة سارة
وعلى سحابة شاهدت طفلاً
قال لي ضاحكاً
اعزف أغنية عن حَمَلْ
لذا عزفت بشعور مرح
أيها العازف، اعزفها ثانية
فعزفتها فبكى لسماعها
ارم مزمارك، مزمارك السعيد
غن تلك الأغاني المرحة السعيدة
فغنيتها ثانية
بينما كان يبكي مستمتعاً بسماعها
أيها العازف اجلس واكتب
في كتاب ربما سيقرأه الجميع
وتلاشى عن ناظري
فاقتلعت قصبة جوفاء
وصنعت قلماً ريفياً
وصبغت الماء الصافي
وكتبت أغانٍ سعيدة
يسعد بسماعها كل الأطفال

(١٧٨٩)

(1)Great Poems , p 164

٧ـ وليم ووردزورث
(١٧٧٠ ـ ١٨٥٠)

هو شاعر الطبيعة بلا مزاحم، والـذي رأى فيهـا الجـوهر الأسـاس، والتربـة الخصبة، والمدى الرحب لعواطف قلبه وشجونه، لذا كان شاعر الرومانتيكية الأعظم، ووضعه بعض النقاد في المرتبة الثالثة بعد شكسبير وملتون، فكانوا من المنصفين.

ولد وليم ووردزورث في السابع من نيسان عـام ١٧٧٠ في كوكرمـاوث في مقاطعـة كمبرلاند، وكان أبوه جون محامياً، ثم صار وكيلاً لأعمال السير جيمس لوثر ـ الذي أصبح لاحقاً ايرل لونسديل ـ وقد توفي عام ١٧٨٣ وولده ولـيم مـا زال في الثالثـة عشرة، إلى جانب ثلاثة أخوة وأخت واحدة، وترتيب وليم الثاني بعد ريتشارد، ويليه دوروثي وجون وكريستوفر.

أما والدته آن وليم كوكسن ـ المولودة عـام ١٧٤٧ ـ فقـد توفيـت وولـيم في الثامنة، وقد ذكرها في أشعاره وقال إنها تنبأت له أن يكون رجلاً بارزاً إما في الخـير وإما في الشر.

بعد وفـاة الوالـد تـرك الأطفـال لرعايـة اثـنين مـن أقاربهمـا همـا ريتـشارد ووردزورث وكريستوفر كراكا نثرب.

وكان وليم قد ارسل إلى مدرسة كوكر ماوث حيث نال شيئاً من المعرفة، وفي غضون ذلك كان والده يدفعه ليحفظ غيباً مقاطع من أشعار شكسبير وسبنسر.

وفي عام ١٧٧٨ ارسل مع إخوته الثلاثة إلى مدرسة هوكسيد حيث تلقى تعليماً متميزاً في الأدب الكلاسيكي والرياضيات، وكان الأربعـة تحـت رعايـة الـسيدة آن تايسون في كوخها الريفي (هذا الكوخ يدعى الآن كوخ وردزورث) وقد وفر ذلك لوليم مكاناً ولا أجمل للتجوال بين أحـضان الطبيعـة الخلابـة علـى شـواطئ بحـيرة اسذويث، كما كان يمارس المطالعة بين الربوع والتلال والمناظر الخلابة مما كـان لـه أعظم الأثر في أعماله لاحقاً، كما امتدح فيما بعد مدرسته هذه التي كسب فيها محبة

مديرها وليم تايلور، وقال إنه تعلم فيها من اللاتينية في أسبوعين ما لم يتعلمه في عامين في كوكرماوث، وفي هذه المدرسة ظهرت بواكير شعره، فقد قال لاحقاً: كتبت وأنا في المدرسة قصيدة طويلة عن مغامراتي ومشاهداتي في بلادي التي ترعرعت فيها، قصيدة فيها أفكار وأخيلة.. ولم تخل من أفكار داخلية'' ومما يدل على تعلقه بتلك البيئة الفاتنة مقطع قاله واصفاً قدومه إلى كلية جون في كمبريدج وذلك في تشرين أول ١٧٨٧:

في ذلك الصباح الكئيب
سارت العربة في سهول هنتنغدن
ومن خلال النافذة المفتوحة
شاهدت كنيسة كلية الملك الطويلة السوداء
وابراجها التي تطل على البساتين المغيرة.

وفي كلية جون اجتاز امتحان القبول الجامعي، وقضى ٤ سنين حصل بعدها عام ١٧٩١ على بكالوريوس في الآداب بتقدير مقبول، ولم يكن لدراسته في كمبريدج كبير أثر على تطوره الأدبي، فقد اعتبر المنهاج ضيقاً لا يفي بشهوته الشديدة للأدب والمعرفة، وقد أتيحت له في كامبريدج فرصة تعلم الإيطالية على يد لاجئ إيطالي، ومن الذين قرأهم في هذه الفترة سويفت وفلدنج، والإسباني سيرفانتس، كما تشير المصادر إلى أنه عندما تخرج من الجامعة كان يعرف الفرنسية والإسبانية، أما في العطلات فقد كان يقوم برحلات داخلية وخارجية كرحلته إلى منطقة البحيرات ويوركشير، فكتب قصيدة طويلة بعنوان: مشوار مسائي، كما ارتحل مع صديقه روبرت جونز على الأقدام إلى فرنسا إبان عهد الثورة المبكر، ومنها إلى سويسرا والبحيرات الإيطالية.

ولم يكن أمامه بعد تخرجه من عمل يرغب في مزاولته وكانت الأعمال المتاحة للخريجين في تلك الأيام: الجيش، الكنيسة، القانون، فلم يرغب في أي منها، فارتحل

ثانية إلى فرنسا وأقام في اورلتيز حيث اختلط بضباط فرقة كانت تقيم هناك، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين ضابط برتبة نقيب (أصبح فيما بعد جنرالاً) يدعى ميشيل دي بوبي الذي دفعه للتعاطف مع الثورة الفرنسية (وقد ذكر ذلك في المقدمة لاحقاً) ، كما التقى بآنيث فالون وأحبها، ولما انتقلت إلى بلوا انتقل معها وأنجبت لـه ـ بـدون زواج ـ ابنته كارولين في كانون أول ١٧٩٢، ويبدو أنهما كانا يخططان للزواج رغـم اختلافهما الديني والسياسي، ولكن قلة موارده المالية دفعته للعودة إلى لندن، وما كاد يصل حتى اندلعت الحرب بين فرنسا وإنجلترا في شباط ١٧٩٣ مما قطع السبل عليـه للإنضمام لآنيث ثانية، كما ملأ نفسه بالسخط على الحروب ومسببيها.

ولما عـاد إلى لنـدن نـشر قـصيدتيه ‘‘**مشوار مسائي**’’ و‘‘ **مقطوعات وصفية**’’ والثانية وصف لرحلاته مع صديقه جونز، كما نشر كتاباً نثرياً بعنـوان ‘‘**رسالة إلى أسقف الاعتراف**’’ يعبر فيها عن تعاطفه مع الفقراء والبائسين ومقتـه للحـروب ومـا تتركه من دمار وخراب.

وقد امتدح الشاعر كولردج القصيدتين، وصرح بأن عبقرية شعرية على وشك الظهور.

وفي خريف عام ١٧٩٤ توفي صديقه ريسلي كلفرت، وأوصـى لـوردزورث بمبلغ ٩٠٠ جنيه، مما مكن الشاعر من التفرغ للشعر، بجانب ممارسته تدريس ابن أحد الأثرياء ويدعى باسل مونتاغو مقابل ٥٠ جنيه سنويا، وقدم له مونتاغو بيتاً ومزرعة ليسكن فيهما مجاناً، فسكن الشاعر البيت مـع شـقيقته دوروثـي في خريـف ١٧٩٥، ودوروثي التي أصبحت منذ ذلك الوقت سكرتيرته وملهمته وسنده، وفي بيته الجديد كتب مأساته ‘‘**رجال الحدود**’’ وهي تروي قصة مارما ديوك الذي يجمع رجال الحدود ويعمل على حماية الأبرياء، ولكن ازوالد أحد أعوانه يدفعه للجريمة فيقتل البـارون الكهل هربرت زاعماً أن هربرت سيبيع ابنته التي كان يحبها القائد مارماديوك’’ ، وفي

هذه المأساة يدعو إلى المساواة والديموقراطية وهدم الفوارق الطبقية بين الناس بالنقاش والتفاهم وليس بالقوة والعنف.

واتبع هذه المأساة بقصيدة ''**الكوخ المتهدم**'' التراجيدية والأهم بين أعماله في هذه الفترة الخصبة من حياته، وهي قصيدة تروي قصة سيدة فقيرة وقد نظمها بالشعر الحر معبراً عن مشاعره الصادقة تجاه الفقراء والمساكين.

وكان وردزورث قد التقى بالشاعر كولردج لقاء قصيراً في بولنبوي في مطلع عام ١٧٩٥، ثم زاره كولردج في حزيران ١٧٩٧ في ريسداون، ورد وردزورث الزيارة في تموز لتبدأ بذلك العلاقة الكبيرة الخلاقة بين الشاعرين العملاقين، ثم انتقل وردزورث للإقامة في الفوكسدين على بعد ثلاثة أميال من نذرستوي حيث يقيم كولردج الذي كان قد تزوج سارة فركر في تشرين أول ١٧٩٥، وكان الشاعران ودوروثي يقومون برحلات على الأقدام إلى أرياف سومرست، ويناقشون قضايا الشعر والطبيعة في انسجام تام، حتى وصف كولردج هذه الصحبة بقوله: ''ثلاثة أجساد في روح واحدة''.

وكان من نتاج هذه العلاقة قصائد''**قصصية غنائية** Lyrical ballads'' عام ١٧٩٨، وهو مجلد صغير كتب فيه كولردج ثلاث قصائد، ثم أضاف إليها قصيدتين في الطبعة الثانية عام (١٨٠٠) فكانت قصائده: البحار العجوز، المربية، البلبل، الزنزانة، الحب، أما قصائد وردزورث فكانت: الصبي الأحمق، جودي بليك وهاري جل، الشوك، سطور كتبت على تنترن أبي، ومقطوعات أخرى قصيرة، وقد تحاشى وردزورث في هذه المجموعة الموروث الشعري واتّبع القصيدة القصصية الشعبية، مستعملاً لغة المحادثة عند الطبقة الوسطى ليعبر عن الحقيقة غير المزركشة عن الناس العاديين البسطاء، وقد أدى هذا التبسيط أحياناً إلى السطحية غير المستحبة، كما لوحظ في جودي بليك والصبي الأحمق، إلا أن ''تنترن أبي'' كانت جديرة بالتقدير والإعجاب، وقد طبعت هذه المجموعة ـ بدون ذكر اسم المؤلف ـ في بريستول مع

مقدمة لوردزورث بعنوان ''ملاحظات''، ولم تلق رواجاً يذكر، وهاجمها النقاد، لكن وردزورث كان واثقاً من نفسه فلم يأبه لنقد النقاد، فأصدر المجموعة في طبعة ثالثة ١٨٠٢ بعد أن راجعها وأضاف إليها قصيدته ''مايكل، و''الإخوة'' ومقالاً طويلاً بعنوان ''لغة الشعر'' شرح فيه وجهة نظره في وظيفة الشاعر وطبيعة الإلهام الشعري، ولم يسهم كولردج بشيء في هذه الطبعة، ونشر الكتاب باسم وردزورث، وقد استحسن الناقد هازلت (١٧٧٨ ـ ١٨٣٠) هذه المجموعة وقال عنها ''لقد غمرني الإحساس بهذا الأسلوب الجديد، وهذه الروح الجديدة التي انبثقت عن كشف التربة الحية'' ولكن النقاد الآخرين كانوا أقل حماسة، بل قابلوها بسخط وغضب عنيفين.

وكان كولردج في كانون ثان ١٧٩٨ ينوي زيارة ألمانيا، فقرر وردزورث ودوروثي مرافقته، وكان الثلاثة ينوون قضاء عامين هناك لتعلم الألمانية والعلوم الطبيعية، فغادروا في ٢٦ حزيران، واستقر وردزورث وأخته في جولسار، أما كولردج فقد سكن جوتنجن، وقد أحب وردزورث هدوء منطقته التي كانت تبدو وكأنها خالية من الحياة، فانقطع لكتابة الشعر ولم يختلط بالألمان، لذا لم يكن لديه أي انطباع عن الألمان أو بلادهم خلال إقامته بينهم، ومما يؤكد هذه العزلة نتاجه الشعري الخالي مما يشير لشيء عن ألمانيا، ولكنه بدأ كتابة ديوانه ''**المقدمة The Prelude**'' في شباط ١٧٩٩ عائداً إلى طفولته ومدرسته وجامعة كمبريدج وانطباعاته عن لندن وفرنسا وجبال الألب، متتبعاً نموه الفكري والعاطفي، وميله للإنسان وحبه له ولكل الأشياء العادية في هذا العالم الجميل البهي، وقد انتهى من هذا الديوان عام ١٨٠٥، ولكنه لم يطبع إلا بعد وفاته.

ويعود إلى إنجلترا في نيسان ١٧٩٩، ويزور أسرة ماري هتشنس في سوكبيرن، وتبعهم كولويدج إلى المكان نفسه، وكانت ماري زميلته في المدرسة الإعدادية،

وصديقة مقربة لأخته دوروثي، وقطن وشقيقته مع ماري وشقيقها توم في سوكبيرن مدة سبعة شهور.

ولما توفي لورد لو نزويل في عام ١٨٠٢، قام خليفته وليم لوثر بدفع دين كان لوالد الشاعر عند سلفه وقدره ٨ آلاف جنيه، فتقاسم الورثة هذا المبلغ فكان نصيب الشاعر وأخته ١٨٠٠ جنيه لكل منهما، مما شجعه في أواخر تشرين أول على أن يقوم مع أخيه جون وكولردج برحلة إلى منطقة البحيرات، وشاهد وردزورث كوخاً جميلاً بسيطاً يدعى ''**كوخ الحمامة**'' Dove Cottage في جراسمير، فاشتراه على الفور، وانتقل إليه في ٢١ كانون أول واستقر فيه، وبدأ يخطط لقصيدة فلسفية طويلة عن الإنسان والطبيعة والمجتمع، فكانت قصيدته ''الرحلة'' التي يعرض فيها آراءه الفلسفية والسياسية على لسان متجول يستخلص هذه الآراء من مناقشات دارت بينه وصديقه والشاعر وقسيس.

وبعد رحلة إلى لندن وسالايس لمشاهدة آنيت وابنته كارولين ومكوثه معهما شهراً توصل خلاله إلى حل مالي دائم مع آنيت، يعود الشاعر وأخته إلى منزل ماري هتشنسن وتزوجها في ٤ تشرين أول ١٨٠٢، وفي اليوم ذاته يعود الثلاثة إلى منزلهم في جراسمير، هذه المناطق التي سكنها ٩ سنين أتاحت طبيعتها الرائعة جولات كثيرة للشاعر وألهمته أعذب الشعر، ولا ننس أن صديقه كولردج كان يسكن على بعد ١٣ ميلاً من منزله، وفي جراسمير أنجب وردزورث: جون (١٨٠٢ ـ ١٨٧٥) دوروثي (١٨٠٤ ـ ١٨٤٧) ، توماس (١٨٠٦ ـ ١٨١٢) كاثرين (١٨٠٨ ـ ١٨١٢) ووليم (١٨١٠ ـ ١٨٨٣) ، وكان أباً حنوناً عطوفاً مع كل هؤلاء.

وفي هذه الفترة كتب وردزورث ''**قصائد في مجلدين**'' ومن هذه القصائد: أغنية للواجب، السير غرباً، قصيدة نظمت على جسر وستمنستر، إيماءات الأبدية، قصائد الاستقلال والحرية، وقصيدة أخلاق المحارب السعيد، ويرثي فيها أخاه القبطان جون الذي توفي وهو في الثالثة والثلاثين إثر تحطم سفينته.

وينتقل في خريف عام ١٨٠٨ إلى بيت جديد أوسع يدعى ‘‘آلان نبك‘‘ بعد أن بات واضحاً أن البيت الأول قد ضاق بسكانه وزائريه، وزاره كولريدج بعد أن انفصل عن زوجته ومكث عنده عدة شهور، كما زاره الناقد دي كوينزي (١٧٨٥ ـ ١٨٥٩) صديق كولردج والذي سكن في ‘‘كوخ الحمامة‘‘ بيت وردزورث القديم، وكتب في هذه الفترة مقالين نثريين هما أبرز ما كتب من نثر، الأول: ‘‘كراسة عن معاهدة سنترا[1] ‘‘ التي سمحت للجيوش الفرنسية الغازية بالانسحاب من إسبانيا والبرتغال بدون أن يتحرش بها الوطنيون، وينتقد في هذا المقال بلاده وموقفها من احتلال الطاغية نابليون ذينك البلدين وتخليها عنهما، ويظهر تعاطفه الشديد مع الثورة وكرهه لنابليون، وكذلك كان شعور مواطنيه.

أما المقال الثاني فهو بعنوان: وصف مناظر البحيرات في شمال إنجلترا، كتبه مقدمة للكتاب ‘‘وصف مشاهد البحيرات في شمال إنجلترا‘‘ لمؤلفه جوزيف ولكنسن.

كما ساهم بمقال بعنوان: كلمات قصيرة‘‘ في مجلة ‘‘الصديق‘‘ التي أصدرها كولردج ما بين حزيران ١٨٠٩ ـ آذار ١٨١٠، ولما لم تحقق المجلة نجاحاً يذكر، قرر كولرج إيقافها والسفر إلى لندن بعد أن أبدى وردزورث تضايقه من تصرفات كولردج كضيف في بيته ولإدمانه الأفيون، وذكر ذلك لمونتاغو الذي مرر الرسالة لكولودج مبالغاً فيها، فقد ذكر مونتاغو أن وردزورث قد قال:‘‘ إن كولردج أصبح أذى‘‘ في منزله، مما سبب حزناً شديداً لكولردج الذي غادر إلى لندن وسكن في بيت مونتاغو، ثم ارتحل إلى منطقة البحيرات حيث وصلته رسائل استعطاف من دوروثي ليعود إلى جراسمير، وزاره في أيار ١٨١٢ في لندن، وتقابلا، ولكن كولردج أصر على تصديق مونتاغو، بل وبالغ هو الآخر في ما وصله عن صديقه، فدامت خصومة الشاعرين عقدين من الزمان.

وتتجمع الأحزان على وردزورث، فقد توفيت ابنته كاترين في حزيران ١٨١٢، وابنه توماس في كانون الأول من العام نفسه، ولعل هذه الأجواء الحزينة دفعته للرحيل إلى بيت جديد هو ''ريال مونت'' ومكث فيه مع أسرته حتى وفاته.

وكان قد كتب إلى لورد لونزويل طالباً عملاً عنده، فالاشتغال بالأدب لا يدر إلا القليل، فقام اللورد بتعيينه في وظيفة ''موزع الطوابع'' لمقاطعة وستمورلاند براتب ١٠٠ جنيه سنوياً، ثم رفع إلى ٤٠٠ جنيه، لتنتظم أموره المالية، مما أتاح له الفرصة للقيام برحلات جديدة عبر أوروبا بعد هزيمة نابليون في واترلو عام ١٨١٥، فزار سويسرا وشمال إيطاليا عام ١٨٢٠، وبلجيكا وهولنده عام ١٨٢٣، وبلجيكا والراين عام ١٨٢٨ مصطحباً ابنته وكولردج، وسكوتلندة عام ١٨٣١، التي التقى فيها وولتر سكوت وكتب عقب هذه الزيارة ٢٦ قصيدة، ولما عاد إليها عام ١٨٣٣ نظم ٤٨ قصيدة ثمان منها مخاطباً أنهراً وجبالاً وتلالاً وبلدات، ومن أشهرها ''نهر دون''.

وتتسع شهرته وتتسع معها دائرة أصدقائه فقابله الشاعر صامويل روجرز (١٧٦٣ ـ ١٨٥٥) وكان ذا عون له، والفنان ب.ر.هايدن الذي التقى به عام ١٨١٥ ورسم صورة له ، وعرّفه على الشاعر الناقد لي هنت (١٧٨٤ ـ ١٨٥٩) وفي صالون هايدن أقيم له حفل غداء كبير التقى فيه بالشاعر الرومانتيكي جون كيتس (١٧٩٥ ـ ١٨٢١) والكاتب الناقد تشارلز لامب (١٧٧٥ ـ ١٨٣٤) الذي عرفه بدوره على الكاتب كراب روبنسون (١٧٧٥ ـ ١٨٦٧) الذي احتفظ بفكرة عن وردزورث كان لها قيمة كبيرة فيما بعد.

ويكاد النقاد يجمعون على أن ابداع وردزورث في الثلاثين سنة الأخيرة من حياته أقل بكثير من إبداعه في الثلاثين التي سبقتها، فأكثر من طبع ـ أو إعادة طبع ـ أعمال قديمة له مثل: **ذكريات جولة في القارة**'' ونشر في عام ١٨٢٢، و''**قصائد**'' معظمها عن السنوات الأولى والأخيرة (١٨٣٧) كما راجع قصيدة ''**الرحلة**'' ما

بين عام ٣٢ ـ ١٨٣٩، مخففاً من تعبيراته الصريحة المباشرة، مقدماً بين الفينة والأخرى أفكاراً كنسية.

وفي عام ١٨٣٨ منحته جامعة درهام الدكتوراه الفخرية في القانون المدني، وكذلك فعلت جامعة اكسفورد عام ١٨٣٩، ولما استقال من عمله عام ١٨٤٢ منحته الدولة راتباً سنوياً مقداره ٣٠٠ جنيه، وفي آذار ١٨٤٣ توفي الشاعر روبرت سذي شاعر البلاط، فطلب من وردزورث أن يخلفه في هذا المنصب الرفيع، فرفض معتذراً أنه قد بلغ الرابعة السبعين ولا يستطيع أداء متطلبات المنصب (مثل قصيدة كل عام للملكة) فأرسل إليه رئيس الوزراء روبرت رسالة رقيقة أكد فيها أنه لن يطالب بأشعار رسمية، فقبل العرض.

ويصاب بنوبة برد في أواسط آذار ١٨٥٠، فأخذت صحته تتدهور تدريجياً إلى أن توفي في ٢٣ نيسان ١٨٥٠، ودفن في ٢٧ نيسان في مقبرة كنيسة جراسمير بجانب أطفاله، وأقيم له نصب تذكاري في وست منستر أبي، أما شقيقته دوروثي التي ساءت صحتها في السنوات الأخيرة فقد توفيت في ٢٥ كانون الثاني ١٨٥٥، بينما توفيت زوجته في السابع عشر من كانون ثاني عام ١٨٥٩.

لقد استطاع وردزورث الوصول إلى قلوب قرائه وجمهوره من خلال تعلقه بأبرز ما هو موجود على الأرض: الإنسان والطبيعة، فإذا أتقن شاعر الكتابة عنهما أو المزج بينهما فهو لا شك شاعر كبير، فكيف إذا أضاف عاملاً ثالثاً وهو الشعور الديني العميق الذي تخلل قصائده، مثل: تنترن أبي'' أو ''إيماءات الخلود''، فالطبيعة عنده تجسيد للروح الإلهية، لذا رآها أعظم من المعلمين، فإذا حصلت المشاركة الروحية بين الإنسان والطبيعة ـ وهذا ممكن ـ فسوف يحصل الإنسان على السعادة والسلام والقوة دائماً.

وقد افتتن وردزورث بهذه الطبيعة، وكلفه هذا العشق اللامحدود الكثير من الجهد، فارتحل إلى أماكن كثيرة في وطنه، وإلى أماكن أكثر في أوروبا، وكأنه يبحث عن

القصيدة في تل أو جبل أو واد أو زهرة أو سحابة، بل وما هو أقل من ذلك، إذ لم يكن هناك شيء مهما صغر يستطيع أن يهرب من انتباهه وتركيزه، وكانت غايته المستحوذة على تفكيره أن ينقل ما يرى بكل أخلاص وأمانة، لذا دعي ـ بكل حق ـ الأقوى رغبة بين الشعراء المعاصرين في نقل ما يشاهده.

وإلى جانب ذلك كان أستاذاً أخلاقياً، فهو يتمسك بالحقائق الأساسية للخلق والواجب، مؤمن بتفوق القانون الأخلاقي، ويؤكد أن قوانا الروحية التي نملكها تعطينا السيطرة على أنفسنا إذا نحن مارسناها بشكل سليم، فنرفع أنفسنا بالإدراك والصبر فوق الظروف والمؤثرات الخارجية.

ومن حبه للإنسان أحب الفقراء والضعفاء والريفيين والفلاحين، ولكن الثورة الصناعية التي اجتاحت أوروبا أفسدت الطبيعة التي أحب، ولتحل الاختراعات مكان اليد العاملة ليستغني كبار الصناعيين والملاكين عن العمال ، وليكون مصير الفقراء والعمال الجوع والتشرد.

ولعل هذه القصيدة تمثل بعض ما ذهبنا إليه:

******

سطور كتبت في ربيع مبكر

سمعت ألفاً من الألحان ممتزجة
بينما كنت مضطجعاً في بستان
في تلك الحالة السعيدة عندما تأتي الأفكار السارة
بأفكار كئيبة للإنسان.
لقد ربطت الطبيعة عملها الطيب
الروح الإنسانية التي تجري في داخلي
وكم أحزن قلبي أن أفكر

فيما صنعه الإنسان بالإنسان.

من خلال الزهور الصفراء في تلك الخميلة الخضراء.

عرشت الزهرة الزرقاء آكاليلها

وأنا أومن أن كل زهرة

قد استمتعت بالهواء الذي تتنسم

كانت الطيور حولي تقفز وتلهو

لم استطع أن أدرك أفكارها

ولكن كل حركة قامت بها

أظهرت لي رجفة من سعادة

ونشرت الأغصان المزهرة مروحتها

لالتقاط النسيم العليل

لذا عليّ أن أعتقد

أن الفرح كان موجوداً هناك

إذا كان هذا الاعتقاد قد أرسل من السماء

وكانت هذه خطة الطبيعة المقدسة

ألا أكون محقاً في حزني

على ما صنعه الإنسان للإنسان

٨- جين أوستن
(١٧٥٥ - ١٨١٧)

ولدت الروائية الإنجليزية جين أوستن في ١٦ كانون أول عام ١٧٧٥ في ستيفنتن - هامبشير، وهي الطفل السابع من ثمانية أطفال، والبنت الثانية للقس جورج أوستن راعي أبرشية ستيفنتن، أما أمها فهي كاسندرا لي، وقد عاشت السنين الست والعشرين الأولى من حياتها في الأبرشية في رعاية والدها المتوسط الحال، والذي أضاف إلى دخله دخلاً آخر بالعمل في الزراعة وإلقاء الدروس، ولكنه كان على جانب من المعرفة كبير، فكان يشجع أولاده على القراءة وطلب المعرفة من مصدرها شبه الوحيد في تلك الأيام، الكتب، فكان أفراد أسرته قراء ممتازين للروايات، ولعل الأعمال المبكرة لجين أوستن تثبت أن قراءاتها قد تعدت نتاج العصر الرومانتيكي إلى عصور سبقته.

عندما بلغت جين السادسة من عمرها، أرسلت مع أختها كاسندرا - التي كانت في التاسعة - إلى مدرسة داخلية في أكسفورد، حيث أصيبت كلتاهما بالحمى، ثم انتقلتا إلى مدرسة في ساوثمبتن عام ١٧٩٢، وقد وصفت جين أوستن هذه المدرسة بأنها ذات تعليم بسيط، وأنها تخرج طالباتها عن دربهن السليم، وقد استوحت مشاهد من هذه المدرسة في روايتها ''إيما''، وقد أعيدت الفتاتان إلى بيت الأسرة بعد غياب دام ٣ سنوات، وشرعتا في تلقي العلم على والدهن وأخوتهن كما كانت تجري العادة في تلك الأيام، وقد كان الجو الأسري رائعاً في بيت أوستن فقد كانت جين تحب أختها كاسندرا حباً جماً، فلا تكتم عنها سراً حتى قالت والدتها يوماً ''لو أرسلت كاسندرا إلى المقصلة لطالبت جين بنفس المصير'' كما كان والدهما حنوناً عطوفاً، وكان يقرأ لأولاده بصوت عالٍ لتثقيفهم، كذلك كان يشجعهم على كل عمل ثقافي أو إبداعي، وقد أوجد هذا الجو وقتاً كافياً لجين للكتابة، فقد وجد في دفاترها الأولى وهي في الرابعة عشرة مشاهد هزلية وقصص قصيرة تشير إلى مزاج ناقد ساخر لا يخلو من

عبقرية، وقد طورت هذا الجانب فيما بعد، وأروع ما كتبت في عهد الصبا ''الحب والصداقة''.

ما بين عام ١٧٩٥ ـ ١٧٩٨ أنهت جين ثلاث روايات، فقدمت ''الانطباعات الأولى'' ـ والتي دعيت فيما بعد بـ ''**كبرياء وهوى**'' إلى أحد الناشرين فرفضها، ولكنها طبعت لاحقاً، و''**نورثانجن ابي**'' التي طبعت بعد وفاتها ودعيت لاحقاً باسم بطلتها ''سوزان'' ، و''**الحس والحساسية**''.

أما رواية ''**كبرياء وهوى**''، وهي قصة جماعة من الناس من الطبقة المتوسطة منهمكون في المجتمع الذي يحيط بهم، والبطلة اليزابيث ذات حيوية ونشاط، ولكن لا تجد عندها صفات غير عادية، وكلا الكبرياء يدغدغان ويداعبان عالم المراتب والمال والطبقية كصفتين تحكمان ذلك المجتمع، وهذه الرواية تدل على نضج الكاتبة رغم أنها لم تتجاوز الحادية والعشرين وقت كتابتها، وقد روجعت مرة أخرى قبل طبعها، وهي أكثر كتبها شعبية وبراعة، وتذكرنا بأعمال القرن الثامن عشر الكوميدية، ويلاحظ أنها تعكس شخصيتها في هذه الرواية بشخصية اليزابيث، وقد ارتبط اسم جين أوستن بهذه الرواية التي تعد أشهر أعمالها.

أما ''**الحس والحساسية**'' التي طبعت عام ١٨١١، فهي تكاد تمثل هجوماً على العاطفية المفرطة كمصدر للقصور العاطفي في الإنسان، وهنا نرى القيم والفضائل معقدة، والخيال لم يعد على النقيض منهما، وقد حققت هذه الرواية نجاحاً كافياً لخلق استقبال جديد لأعمال أخرى للكاتبة.

وفي الفترة بعد عام ١٧٩٨، كانت حياة عائلة أوستن هادئة، فقد توقف السيد أوستن عن إلقاء الدروس ، ووسع أبرشيته ليحصل على غرفة لابنتيه، حيث ربض بيانو جين وأدواتها الكتابية، ومعدات الرسم لاختها كاسندرا، وفي عام ١٨٠١ ترك الأب أوستن بيته لأبنه الأكبر، وارتحل مع زوجته وابنتيه إلى ''باث''، وكانت جين في

السادسة والعشرين، وكاسندرا في التاسعة والعشرين، وقد قررت كلتاهما عدم الزواج إلا إذا تم إنجاز سريع يثنيهما عن عزمهما ذاك، فقد كان لجين بعض الارتباطات العاطفية في ستيفنتن، ولكن لم يحدث شيء جدي ، أما أختها كاسندرا فكانت قد خطبت لأحد تلامذة أبيها ولكنه توفي بالحمى الصفراء في رحلة إلى جزر الهند الغربية.

وفي عام ١٨٠١ ، وبينما كانت أسرة أوستن في رحلة إلى ديفون، وقعت جين في حب شاب كاهن يدعى بلاكول، وقد كان الإعجاب متبادلاً، إلا أنه قبل إعلان خطوبتها، توفي ذلك الشاب، وقد حالت هذه التجربة القاسية من قبولها شاباً آخر تقدم لخطبتها، كذلك سببت توقفاً مؤقتاً في إنتاجها الأدبي.

وفي عام ١٨٠٢ ، تمكنت من بيع أولى أعمالها " **رواية سوزان**" للناشر ريتشارد جروسي في لندن مقابل عشرة جنيهات، لكن جروسي لم يقم بنشرها، وفي تلك الفترة شرعت في تأليف "**الواتسنيون**" إلا أنها لم تكملها.وفي عام ١٨٠٥ توفي السيد أوستن تاركاً لزوجته وابنتيه دخلاً سنوياً مقداره ٢١٠ جنيهات، وقد زاد أخوتها هذا المبلغ إلى ٤٥٠ جنيهاً، ولم يكن هذا كافياً في زمن ارتفعت فيه تكاليف المعيشة ، وللاقتصاد في النفقات، تقرر أن ترتحل الأختان إلى منزل فرانسيس أوستن أخيهما في ساوثمبتن، ولم يكن هذا القرار مريحاً، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد حصل عام ١٨٠٨ أن توفيت زوجة شقيقهن إدوارد أوستن، فارتحلت الأختان إلى منزله في "شاوتن" بناءً على رغبته، وهنا بعد ثمان سنوات من عدم الاستقرار كان بمقدور جين أن تكتب ـ رغم وجودها بين عدد كبير من أبناء أخيها ـ فراجعت روايتها "**النيوروماريانا**" وباعتها وطبعت عام ١٨١١، وكان هذا نجاحاً سريعاً سببه شعبية "كبريا وهوى" وشجعها ذلك على المضي قدماً، فكتبت "مانسفيلد بارك" و"إيما" و"الإقناع".وقد كانت "إيما" نموذجاً لرواياتها، فقد وظفت خيالها الساخر لكشف خلال بطلتها، أما موضوعها فكان الزواج، ولكن الرواية مليئة

بتعقيدات العلاقات الشخصية، والكشف عن مكنونات النفوس والطبائع، ولكنها دلت على عبقرية أوستن المتمكنة من فنها، المستغرقة فيه، المتصارعة مع مشاكله، وقد طبعت ''**إيما**'' عام ١٨١٦، أما ''**الإقناع**'' فقد طبعت عام ١٨١٨ بعد وفاتها.

وفي عام ١٨١٦، استرد شقيقها هنري ـ بعد عناء ـ روايتها ـ ''نورثانجن أبي'' مقابل عشر جنيهات، وهو نفس المبلغ الذي دفع فيها عام ١٨٠٢، إذ لم يقم الناشر بأية خطوة لنشرها، وقد نشرت عام ١٨١٨.وبينما هي في قمة عطائها، بدأت صحتها بالتدهور، فأخذتها أختها الحبيبة كاسندرا إلى وستمنستر لتبقى تحت رعاية طبيب صديق، ولكنه لم يستطع أحد تشخيص علتها، فتوفيت بين يدي أختها في ١٨ تموز ١٨١٧، ودفنت في كاتدرائية وستمنستر.

لقد عاشت جين بعيداً عن الأحداث السياسية التي شهدتها أوروبا خلال حياتها، كمعارك نابليون واحتلاله بعض الدول ثم نهايته في واترلو، فهي لم تعتن بشيء من ذلك رغم أن أخوين لها وصلا مرتبة أدميرال في البحرية، فاستغرقت في جو الريف وحياته الاجتماعية بكل تفاصيلها من زيارات وأحاديث وتسوق وزواج وحب، وأكثر ما كان يشغلها حفلات الرقص، حيث المجال رحب للقيل والقال والتعارف واقتناص العشاق والعرسان، كل ذلك وسط وصف رائع للشخوص مع الكشف عنهم وتبيان أخطائهم وزيفهم خاصة البطلات.لقد رسخت جين أوستن شهرتها بين كتاب عصرها والذين بعدهم فنرى معاصرها وولتر سكوت أشد المعجبين بها، أما ماكولي فقد وضعها بين الكتاب الذين يضاهون أسلوب شكسبير وموليير، أما النقاد والكتاب الآخرون، فمن ساذي (١٧٧٤ ـ ١٨٤٣) حتى هنري جيمس (١٨٤٣ ـ ١٩١٦) قد امتدحوا أدبها واعجبوا به، أما البروفيسور سنتبوري فقد قال عنها:

''إنها أم الرواية الإنجليزية في القرن التاسع عشر كما كان سكوت أباها''.

٩- بيرون
(١٧٨٨م - ١٨٢٤م)

لا نكاد نعرف من بين الأدباء الذين ترجمنا لهم في هذا الكتاب حياة صاخبة كهذه الحياة التي عاشها اللورد جورج بيرون، حياة تنقل ومغامرة وحب ورياضة وإسراف وتهتك وأدب وشعر وسياسة وقتال... بحيث نكاد نقول أن بيرون لم يترك ناحية من نواحي الحياة إلا جربها وعاناها، وقد انعكس هذا كله على شعره وأدبه.

ولد الشاعر الرومانتيكي اللورد جورج جوردن بيرون في الثاني والعشرين من شهر كانون ثاني ١٧٨٨ في شارع هولز في لندن، أما والده فهو ضابط الحرس جون بيرون المعروف (بجاك المجنون) ، وقد كسب هذا اللقب عن جدارة واستحقاق، فقد عرف عنه كثرة الديون، وغرابة الطباع، والتهتك والانغماس في الملذات وكثرة العشيقات، ومما يروى عنه أنه اشترك في الثورة الفرنسية وهو لا يعرف أسباب قيامها، وبعد تخرجه من الكلية الحربية الفرنسية، عاد إلى إنجلترا والتحق بالحرس برتبة كابتن، واستولى بشبابه وجماله الفائق وهو في العشرين على المركيزة دي كارموتن المتزوجة من اللورد كارمتن، وقد فرت مع حبيبها تاركة أطفالها وزوجها، وأنجبت من جون بيرون ابنتهما ''أوجستا'' وماتت الأم عام ١٧٨٤، فتزوج في العام نفسه كاترين جوردن التي عرف عنها العناد والعصبية الشديدة، ونظراً لإسراف زوجها وتهتكه، فقد استهلك كل ثروتها، فباعت صيغتها وأسهمها في البنوك، وأمام مطاردة الدائنين والمحضرين، اضطر للجوء إلى فرنسا وهي حامل، ولما أحست بقرب ساعة الوضع عادت إلى إنجلترا وأنجبت شاعرنا عام ١٧٨٨، ولما ضاقت بها الحياة في لندن، قررت العودة إلى ''ابردين'' في اسكتلندة، في حين ظل زوجها مقيماً في باريس يعيش على الديون حياة بذخ وقصف في الحانات إلى أن مات في حالة فقر مدقع، وقيل أنه انتحر، بعد أن بدد ما حصل عليه من ثروات زوجته.

ولم يرث الشاعر مزاجه الحاد المتصلب عن والديه فحسب، فهناك عدد طيب من أجداده قضوا بين منتحر ومشنوق وغريق، وكان آخرهم جده لأمه الذي مات منتحراً ، ولعل عاهة شاعرنا ''العرج'' قد ساهمت في حدة مزاجه، فقد أصيب بخلع في قدمه ساعة مولده، وقد تأثر بعاهته هذه طوال حياته، وصرح بتأثره هذا في مناسبات عدة.

بدأ بيرون تعليمه في كُتّاب قريب من بيته، إلا أن أمه أحضرت له أستاذين يعلمانه، الأول كاهن علمه التاريخ، والثاني علمه اللاتينية، والتحق عام ١٧٩٤ بمدرسة ابردين الثانوية وتخرج منها عام ١٧٩٨، وهو العام الذي ورث فيه لقب اللوردية وممتلكاتها بوفاة عم أبيه، وكان من بين هذه الأملاك قصر نيوستيد قرب نوتنغهام، وهو هدية الملك هنري الثامن للأسرة العريقة.

وفي هذه الفترة من حياته أحب مرتين ''ماري دف'' و''ماري باركر'' وكلاهما من بنات أقاربه، وقد شكلتا معاً مواقفه المتناقضة تجاه المرأة بقية سنوات عمره.

وقررت والدته العودة به إلى إنجلترا للحصول على الميراث، وبالذات قصر نيوستيد، فعادت به ومعها مربيته ''ماري جراي''، وأحب بيرون القصر التاريخي القديم، إلا أن والدته خالفته الرأي، ورأت أنه يحتاج إلى مبالغ طائلة لإصلاحه، فهجرت القصر وسكنت في شقة قريبة، في حين بقي بيرون في القصر مع مربيته، وعهدت أمه إلى طبيب اسمه لافندر لإصلاح قدم ولدها، فلم يستفد منه الصغير سوى الآلام المبرحة، ولما دخل المحامي هانسون حياة الأسرة خلصه من مربيته وطبيبه المخادع، وأخذه إلى طبيب معروف وصف له مقبضاً ثم حذاء خاصاً بقدمه، وسجله هانسون في مدرسة دلويش في خريف عام ١٧٩٩، وفي صيف عام ١٨٠١ التحق بيرون بكلية هارو الشهيرة، وفيها خاض معارك كثيرة مع زملائه، وشجارات مع معلميه، إلا أنه كسب محبة مديره الصارم الدكتور ''جوزيف دروري'' الذي شجعه

على هواية الإلقاء والخطابة خاصة باللغة اللاتينية التي تعلمها في ''هارو'' إلى جانب اليونانية.

وخلال وجوده في هذه الأجواء ازداد شعوره بالنقص بسبب عرجه، لكنه في الوقت نفسه نجح في كسب صداقات قوية ـ وبالذات من هم أصغر منه سناً ـ مما خلق ارتباطاً عاطفياً بينه وبين مدرسته، ولما عاد عام ١٨٠٣ إلى قصر نيوستيد أحب فتاة تدعى ''ماري هاروت'' تقيم في قصر أنسلي، ولكنها سرعان ما خطبت، فعبر عن أحزانه لذلك في أشعار مغرقة في السوداوية، وعاد إلى هارو بعد أن تغيب عنها ثلاثة شهور ـ غير الإجازة ـ بعد أن أرسل مديره فيها يسأل عنه، وفي سنته الأخيرة تلقى اليونانية واللاتينية على يد مديره نفسه، واشتهر بين زملائه بأن الأول في السباحة، بجانب امتيازه في لعبة الكريكيت.

وفي عام ١٨٠٥ التحق بيرون بكلية ترينتي في جامعة كامبريدج، والتي أظهر مسلكه فيها زهده في الدراسة الأكاديمية، وولعه بالقصف والأكل وتعاطي الكحول ولعب القمار والرماية وركوب الخيل، لكنه لم يقاطع المطالعة خاصة في كتب الأدب، وقد تخرج عام ١٨٠٨ وحصل على الماجستير، وقد كلفه مقامه في كامبريدج ديوناً كبيرة من نفقاته الباهظة على سهراته ومآدبه.

وكان في عام ١٨٠٦ قد نشر كتاباً صغيراً بعنوان ''**مقطوعات هائمة**'' ثم راجع الأشعار التي ضمها هذا الكتاب وأضاف عليها وأصدرها عام ١٨٠٧ بعنوان ''**قصائد في مناسبات عدة**'' ولم يبع من هذه المجموعة سوى مئة نسخة.

وفي حزيران من العام نفسه أصدر مجموعته ''**ساعات الفراغ**'' فقابلتها صحيفة ''الناقد'' بالتسامح والمديح وكذلك الصحف الأخرى إلا صحيفة ''أدينبره ريفيو'' التي كتب نقادها مقالة قاسية عن تلك المجموعة، فكان حظهم قصيدة هجائية بعنوان ''**شعراء الإنجليز ونقاد اسكتلنديون**'' والتي نشرت في الأول من آذار عام ١٨٠٩ بعد أن دخل بيرون مجلس اللوردات ببلوغه السن القانونية لذلك في كانون ثانٍ ١٨٠٩.

السفر إلى الخارج: غادر بيرون إنجلترا في الثاني من تموز ١٨٠٩ مصطحباً معه صديقه هوبهاوس الذي تعرف به في كامبريدج، واحاط نفسه بحاشية من الخدم والمرافقين، فزار لشبونة واشبيلية ثم جبل طارق، ونزل في مالطة حيث تلقى دروساً في اللغة العربية على يد أحد القسس هناك، وفي ألبانيا طاب له المقام، وتعرف بالوالي علي باشا، وفتن بالملابس والعادات الشرقية وصوت الأذان ، وبساطة عيش الأهالي الذين لم تفسدهم الحضارة ، وفي ألبانيا بدأ نظم نشيده الخالد ‘‘ **أسفار تشايلد هارولد**’’ والذي أكمله خلال السنوات التالية، ونشر النشيدين الأول والثاني عام ١٨١٢ ,والثالث عام ١٨١٦، والرابع عام ١٨١٨، ويكاد يكون هذا الديوان خير صورة لحياة الشاعر وآرائه ومعتقداته وطموحاته، ففي النشيدين الأولين يرتحل شايلد هارولد إلى البرتغال وإسبانيا والجزر الأيونية وألبانيا، وينتهيان بالتأسف والبكاء على بلاد اليونان التي يسيطر عليها الأتراك العثمانيون.

أما النشيد الثالث، فيرتحل فيه الرحالة إلى بلجيكا وألمانيا وجبال الألب، فيربط بين هذه الأماكن ورجالات عاصرهم أو أحبهم، أمثال نابليون وجان جاك روسو ومنطقة واترلو، وفي النشيد الرابع يحصر الشاعر رحلة بطله في إيطاليا فيذكر مدنها الشهيرة كروما وفلورنسه والبندقية، ويشيد بأعلام الأدب الإيطالي ورجال الفن أمثال بترارك وبوكاشيو ومكافيللي وجاليلو ومايكل أنجلو.

ويرتحل بيرون إلى اليونان بحراً، ونزل في أثينا، ثم ارتحل إلى استنبول، وعبر مضيق الدردنيل سباحة وقطعه في ساعة ونصف مقلداً ‘‘ليانور’’ في الأساطير اليونانية، وبعد أن قضى شهوراً في استانبول، غادرها عائداً إلى أثينا، في حين فارقه صديقه هوبهاوس عائداً إلى إنجلترا.

وقد أثر مقام بيرون في اليونان تأثيراً عميقاً في شخصيته ومزاجه، فقد رأى هناك الحرية والانفتاح في طباع الناس على عكس تحفظ الإنجليز ونفاقهم، وترك هذا فيه عشق اليونان وأهلها، وأقام فترة في أحد أديرتها وأخذ يتعلم اللغة الإيطالية فيه

على غلام يدعى ''نقولا جيرو'' ، وفي هذه الفترة المؤثرة نظم ''**لمحات من هوراس**'' التي كانت تقليداً لكتاب ''فن الشعر'' لأرسطو، ولما وصل إلى إنجلترا في الرابع عشر من تموز ١٨١١، جاءه ناشره دلاس ووجد هذا الديوان لديه فرأى أنه لا يرقى إلى المستوى المطلوب، ولكنه أعجب بأسفار تشايلد هارولد فأخذها ليعدها للنشر، وأرسل إلى بيرون قائلاً ''إنها أجمل ما قرأت من شعر في حياتي''.

وفي الأول من آب ١٨١١ توفيت أم بيرون قبل أن يصلها، فقال: '' كان لي صديق واحد فقط ، وقد ذهب'' وفي العام ذاته فجع بوفاة صديقه ماثيو ونجفليد، وكان رفيقه الحبيب ادلستون قد توفي أثناء سفره.

وفي ذلك الخريف التقى بالشاعرين توماس مور (١٧٩ ـ ١٨٥٢) وصامويل روجرز (١٧٦٣ ـ ١٨٥٥) اللذين قدماه إلى الصالون الأدبي السياسي ''هولاند هاوس''، وتوطدت عرى الصداقة بينه وبين مور، فكانا لا يفترقان.

وفي السابع والعشرين من شباط ١٨١٢ ألقى خطابه الأول في مجلس اللوردات، وفيه هاجم بقوة قانوناً جديداً لمعاقبة العمال الذين يحطمون الآلات، هذه الآلات التي أدى استخدامها إلى استغناء أصحاب المصانع عن أعداد كبيرة من العمال الذين اصطدموا مع الشرطة، وكادت الحكومة أن تصدر حكماً بإعدام عدد منهم، فدافع بيرون عنهم بخطاب بليغ أيده فيه اللورد بورديت واللورد هولاند، فتعلقت به القلوب، وأصبح أهلاً للترحاب في كل مكان يحل فيه، كما ألقى خطابين آخرين في نفس الدورة.

وفي أوائل آذار عام ١٨١٢ طبع ديوانه ''**أسفار تشايلد هارولد**'' فلاقى رواجاً عظيماً وشهرة أعظم ، وتحولت حياة ناظمه كلياً، فقد فتحت أمامه صالونات لندن الراقية مثل صالون كارولين لام التي تعلقت ببيرون قبل أن تراه، فقد فتنها شعره الجديد، وراحت جماعات من الناس تطلب التعرف به، وأصبح المجتمع تحت قدميه، وعلق بيرون على كل ذلك قائلاً ''استيقظت ذات صباح فوجدت نفسي مشهوراً ''،

وتبع علاقته بلام علاقة حب أخرى بالسيدة اكسفورد التي كانت في الأربعين، وكلاهما كانتا متزوجتين.

وكانت هذه الفترة ـ ١٣ ـ ١٨١٥ ـ خصبة شعرياً، فمغامراته العاطفية انعكست على أعماله التي غلبت عليها روح الشرق: الكافر، لارا ، حصار كورنت، باريسينا، قصائد عبرية، عروس أبيدوس، القرصان ، وقد بيع من الأخيرة عشرة آلاف نسخة في يوم نشرها.

وينصحه أصدقاؤه بالزواج إنقاذاً له من كل شجونه وذنوبه، ويتزوج في كانون ثاني ١٨١٥ الآنسة المثقفة آنا ملبانك بعد تعارف ومراسلات دامت عامين، وأنجبت منه في شهر كانون أول من العام ذاته ابنته التي سماها ''أوجستا آدا'' ونظراً للخلافات المستمرة بينه وبين زوجته أمرها بالعودة إلى بيتها، وبعد وصولها إليه بأسبوعين تلقى رسالة من والدها يخبره فيها بأن زوجته لن تعود إليه.

وفي هذه الفترة هرب نابليون من جزيرة البا، ووقعت معركة واترلو، وهزم نابليون، فحزن بيرون لذلك حزناً شديداً، فقد كان يلقب نابليون ''ابن الحرية''، ويعلن على الملأ إعجابه بعدو بلاده، مما أثار الناس عليه وعدّوه خائناً لوطنه، وهاجمته الصحف وقارنته بإبليس ونيرون، وقاطعه زملاؤه في مجلس اللوردات عدا هولاند، لذا قرر الرحيل عن إنجلترا، فرحل ولم يعد إليها بعد ذلك.

وبدأ رحلته بزيارة ساحة معركة واترلو، ويذكر ذلك في النشيد الثالث من شايلد هارولد الذي أكمله في هذه الفترة، ويتبع نهر الراين إلى سويسرة، ويسكن فيلا بالقرب من جنيف حيث التقى بالشاعر الكبير شيلي وزوجته ماريا وابنة زوجها ـ من زواج سابق ـ كلير كليرمونت التي ارتبطت به وأنجبت منه لاحقاً.

ولما قرر شيلي وحاشيته العودة إلى إنجلترا، قام بيرون بزيارة إلى منطقة برنيسي التي ألهمته مشاهد لمسرحيته ''**مانفريد**'' وهي تراجيديا تجسد عقدة الأثم الدفينة في نفس الشاعر، فالبطل مانفريد هو بيرون لا غير، فهو يعيش متوحداً في جبال الألب

يضرع إلى الآلهة أن تشفيه مما هو فيه وشعور بالذنب والأثم للذنب لا يذكره، ولكن الآلهة تجود عليه بكل شيء إلا النسيان.

ويرتحل مع صديقه هوبهاوس إلى ميلان وفيرونا، ثم قطن فينيسيا في أوائل تشرين ثاني ١٨١٦، وفي هذه الفترة يرتبط بعلاقتي حب جديدتين، الأولى مع امرأة متزوجة من تاجر وتدعى ماريانا سيجتا، أما الثانية فمع زوجة رجل فران واسمها مارجريتا كوني، وكانت بدائية لا تعرف القراءة والكتابة، ولما تشاجرت الخليلتان هجر الأولى وأبقى على الثانية التي هجرت زوجها وأصبحت سيدة بيته الفخم، وفي هذه الفترة زاره شيلي وزوجته ومعهما ابنة بيرون التي انجبتها كليرمون، فوصفها والدها بانها ''آخر بنت حرام''، وسماها اليجرا.

وكانت هذه الفترة من تشرين أول ١٨١٦ إلى تموز ١٨١٩ غنية بإنتاجه الشعري، فقد نظم النشيد الرابع من شايلد هارولد، و''بيبو'' و''قصة فينيسيّة '' وهي هجاء مرح لأخلاق الإيطاليين، وقصيدة ''ميزابو'' و''مرثية تاسو'' و''سجين شيلون'' و''قصيدة إلى فينيسيا'' والنشيدين الأولين من ''دون جوان''، وبلغ مجموع أبيات هذه الأعمال حوالي تسعة آلاف بيت، وصاحب هذا الثراء الأدبي ثراء مادي، فقد بيع قصره نيوستيد بـ ٩٤ ألف جنيه كان نصيبه ١٨ ألف ، ووقف على زوجته ٦٦ ألفاً، ولكن هذا المبلغ كان يدر عليه فوائد مقدارها أكثر من ٣ آلاف سنوياً، وأصبح دخله من كتبه ألفي جنيه، فسد ديونه، وتحسنت أحواله المادية.

ونعود إلى ''**دون جوان**'' وهي ملحمة هجائية ساخرة يتضح فيها تأثره ''بكانديد'' لفولتير ـ بالإضافة إلى تأثره بتجربته الشخصية ـ ويظهر فيها شفاؤه من السوداوية والشكوى والأنين، أما بطل هذه الملحمة فهو الشاب الوسيم جداً ''دون جوان'' الإشبيلي الذي ينجو من تحطم سفينته فيصل إلى شاطئ يوناني ويتعرف بهايدا التي يبادلها حباً بحب، ولما علم والدها بذلك اعتقله وباعه في القسطنطينية حيث اشترته أميرة تركية أحبته هي الأخرى، ثم يفر إلى جيش روسي يحاصر مدينة تركية،

ولما أبدى شجاعة وبراعة في القتال سمعت به الملكة كاترين، ولما رأته أحبته لجماله الفائق... فأرسلته في مهمة سياسية إلى إنجلترا لنرى الشاعر يهجو الأحوال الاجتماعية في بلاده إنجلترا، ولا ينسى من الهجاء خصومه في الأدب والسياسة أمثال كولردج ودوق ولنجتون.

وقد استعمل بيرون في هذا العمل أوزاناً أكثر مرونة وسهولة ومن ذلك وزن يدعى **Ottava Rima** وقد تعلمه من الشعراء الإيطاليين أمثال كاستي وبيرتي، وطوع هذا الأسلوب لأغراضه المتعددة من رثاء وهزل وهجاء.

وفي عام ١٨١٨ زاره شيلي وزوجته فوجداه سميناً أشيب غارقاً في شهواته، بادياً أكبر من سنه بسنوات، وحاولا إعادة كلير كليرمون إليه، فرفض بشدة، ثم قام بطرد محظيته مارجريتا، فحاولت الانتحار وتم انقاذها، وفي هذه الفترة تعرف بالكونتيسة تيريزا ـ ١٩ سنة ـ زوجة الكونت جوتشيولي الذي كان عمره ثلاثة أضعاف عمرها، وقد غيّر هذا التعارف ـ الذي غدا حباً قوياً ـ هذا النمط الذي كان يعيش فيه، وقد تعرف بوالد تريزا وشقيقها روجيرو وبيرتو جامبا اللذين أشركاه معهما في الجمعية الثورية السرية ـ الكاريوناري- وأمد بيرون الجمعية بالعلاج وقدم الصدقات للفقراء، ولما ارتحلا مع تيريزا إلى رافنا، تبعهم إليها.

وتعد هذه الفترة أخصب فترات حياته شعرياً، فقد كتب خلالها أعماله المسرحية: نبوءة دانتي، والأناشيد الثالث والرابع والخامس من دون جوان، والمسرحية الشعرية مارينو فاليرو، سردابغولس، الفوسكاريان، كين، وكل هذه الأعمال طبعت عام ١٨٢١، وهي أعمال لم تحقق الموضوعية التاريخية وإن كتبت ببلاغة مثيرة لا تعبر عن صوت بيرون الحقيقي، كما كان فيها بعض اللمسات من مشاعره الحقيقية، وقد أتبع هذه الأعمال بقصيدته ‘‘مشهد الحساب‘‘ التي هجا فيها شاعر البلاط ‘‘روبرت سذي‘‘ لخلافات أدبية بينهما، وقد نشرت هذه القصيدة في العدد الأول من

صحيفة The libral التي صدرت في لندن وكان شريكا فيها مع الشاعر شيلي والمحرر ''لي هنت'' الذي زاره في إيطاليا لهذا الغرض.

وفي أيلول ١٨٢١ عاد إلى بيزا مع تيريزا بعد أن نفي الجامبيون خارج ولاية توسكاني، وفي بيزا كانت له جماعة رفاق من أهل بلاده مثل توماس مدوين (مؤلف كتاب أحاديث بيرون ١٨٢٤) وتريلوني وشيلي، وكان أول أعماله في هذه المدينة إعادة كتابة رواية '' الآنسة لي: قصة الألماني '' فأعادها بشكل مسرحي، وقد مثلت على المسرح بالاسم الذي أطلقه عليها ''**الميراث**''.

وفي نيسان ١٨٢٢ توفيت ابنته الجرا في وباء اجتاح الدير الذي أودعها فيه لتتلقى العلم، وفي تموز من هذا العام غرق مركب صديقه شيلي في خليج سبيزيا ومات الشاعر الكبير وتناوشت جثته الأسماك ، ومات كل من كان معه، وعثر على جثته على الشاطئ بعد عشرة أيام، وفي آب حضر حرق جثمان صديقه الحبيب، وقد سببت له وفاته أشد الألم والحزن.

ولما منعت السلطات الإيطالية الجامبيين من المقام في بيزا، انتقل معهم إلى جنوا حيث وجد الجامبيون ملجأً سياسياً، وسكنت ماري شيلي قريباً منهم، ورغم أن اهتمامه بصحيفته The libral قد تضاءل، فقد استمر في تزويدها بإنتاجه الأدبي ومنه الأجزاء السادس حتى السادس عشر من ''دون جوان''، عصر البرونز، الجزيرة، وهذا العمل الأخير اعتمد فيه على رواية وليم بلاي ''قصة الثورة على السفينة بونتي''.

ويبدو أن بيرون كان يتوق إلى إنجاز كبير نبيل يخلصه ويطهره أمام مواطنيه، فوجد في ثورة اليونان ضد الأتراك من أجل الاستقلال فرصة سانحة اهتبلها لتحقيق ما أراد، فها هي اللجنة اللندنية اليونانية تعرض عليه أن يكون ممثلاً لها في مساعدة اليونانيين، فقبل ذلك بكل سرور، وجهز سفينة في تموز ١٨٢٣ وأخذ معه صديقه تريلوني والكونت بيرتو جامبا ـ شقيق تيريزا ـ والطبيب برونو وثمانية خدم، وكانت

السفينة مجهزة بالأسلحة والذخيرة والمدافع والخيول، وحمل معه مبلغ خمسين ألف دولار إسباني، ورسا في سفالونيا في الثالث من آب، ولكن ثوار اليونان كانوا منقسمين فرقاً وشيعاً، وأخذ قائد كل فريق يرسل إلى بيرون طالباً المساعدة والدعم، والأسطول التركي يطوق سواحل اليونان مانعاً كل عون أو إمداد ، فرسا على جزيرة ماتكساتا مترقباً ما سيحصل على الصعيد العسكري.

وكان اليونانيون قد وُعدوا بقرض إنجليزي مقداره أربعة آلاف جنيه لتجهيز الأسطول اليوناني لفك الحصار عن شواطئ اليونان، ولما لم يحصلوا على هذا القرض، قدم لهم بيرون هذا المبلغ الكبير، وتم تجهيز الأسطول الذي قاده الأمير كورداتو، ولحق به بيرون ووصل مدينة ميسو لونغي في الخامس من كانون ثاني ١٨٢٤ واستقبل استقبال الملوك بطلقات المدافع وقرع الطبول ونيران البنادق.

وفي ميسو لونغي استمر دعمه المالي لليونانيين لتجهيز تحصيناتهم ولتوفير العون الطبي، وواصل جهوده للتنسيق بين قواد الفصائل المختلفة، وأثبت لكل من تعامل معه أنه جندي من طراز فريد بصبره وجلده وتفانيه وتضحيته، إلا أن الخلافات والانقسامات كانت أكبر وأعقد من أن يحلها بيرون أو سواه، فرؤساء القبائل يتصارعون على رئاستها، وزعماء الأحزاب يتقاتلون على زعامتها، ولا شيء يسير كما يريد الشاعر الرقيق المحب لليونان وأهلها وثورتها.

ويبدو أن أعصابه لم تتحمل ما يجري، ففي يوم ١٥ شباط ١٨٢٤ أصيب بنوبة أسقطته أرضاً وتركته لا يستطيع الحركة والكلام، ولما أفاق علم أن الجنود السوليت قد تمردوا، وقُتل الضابط السويدي ماس لسبب تافه، وكان المهندسون الإنجليز يشكون سوء الأحوال في اليونان، ولكنه كان يحاول إصلاح ما يمكن إصلاحه وهو على الفراش.

وفي ٩ نيسان ورد إليه أن الإنجليز قد وافقوا على منح قرض لليونان، ففرح لذلك وقام يمتطي جواده مع جامبا، ولكن المطر الغزير أدركهما فعادا في مركب،

وأصيب بيرون بالحمى ، وأخذ يهذي، وحاول أطباؤه علاجه بالفصد ولكن بدون جدوى، وتوفي في ١٩ نيسان ١٨٢٤، وعم الحزن أنحاء اليونان، فقد اعتبره اليونانيون رمزاً للوطنية النزيهة، وبطلاً وطنياً يونانياً.

ولما أُعيد جثمانه إلى وطنه، قابلت جنازته بالصدفة كارولين لامب ومعها زوجها فأغمي عليها حين علمت أنها جنازة بيرون، وقد انفصلت عن زوجها فيما بعد وماتت في كانون ثاني ١٨٢٨.

هذا وقد رفضت السلطات دفنه في وستمنستر أبي حيث يدفن العظماء والمشاهير، فدفن في هكنال توركارد مدفن أسلافه، ومن سخرية الأقدار أنه بعد ١٤٥ عاماً وفي عام ١٩٦٩ أقيم له نصب تذكاري في ساحة وستمنستر إبي.

أما ابنته آدا فقد تزوجت عام ١٨٣٥ من إيرل لوفلبس، وتوفيت عام ١٨٥٢، وقيل أنها كانت متفوقة في الرياضيات.

من شعره

عندما افترقنا[1]

عندما افترقنا

في صمت ودموع

بقلوب نصف محطمة

لنفترق لسنوات

أصبحت وجنتك شاحبة باردة

أبرد من قبلتك

حقاً لقد أنبأت تلك الساعة

بأحزان هذا الافتراق.

تساقط ندى الصباح البارد

على جبيني

شعرت وكأنه نذير

بما أشعر به الآن

لقد حنثت بكل عهودك

وتلاشت شهرتك

وسمعت اسمك يتردد

وأشاركه عاره

لقد ذكروك أمامي

جرساً جنائزياً في أذني

وغشيتني رعدة

لم كنت عزيزة جداً عليّ

---

(1)The Norton Anthology , vol 2. p 508

إنهم لا يعرفون أني عرفتك
الذين عرفوك جيداً
وسوف أتحسر عليك طويلاً
بأعمق مما أستطيع الإخبار عنه.
لقد تقابلنا سراً
وفي صمت أتألم
لأن قلبك استطاع أن ينسى
وروحك كانت خادعة
ولو قابلتك ثانية
بعد سنوات طويلة
كيف سأحبك
بالصمت والدموع

عام (١٨١٣)

العصر الفيكتوري

(١٨٣٠ م ـ ١٩٠١م)

اكتسب هذا العصر اسمه من الملكة فيكتوريا(١٨١٩-١٩٠١) التي خلفت عمها الملك وليم الرابع، وقد كانت فترة حكمها ـ التي دامت ٦٣ عاماً (١٨٣٧-١٩٠١) ـ وهي الأطول في عهود الحكم الإنجليزي ـ فترة ازدهار على أصعدة عدة ، ويعكس الأدب الفيكتوري الجيشان الاجتماعي والسياسي والديني لعصر الملكة فيكتوريا، فقد وصلت بريطانيا في عهدها أوج قوتها ونفوذها واتساعها، ونجمل ميزات هذا العصر في:

١- اتسعت رقعة الإمبراطورية البريطانية بضمها كندا واستراليا ونيوزيلندة والهند والباكستان وكثير من الدول الصغيرة في آسيا وإفريقيا ومنطقة الكاريبي.

٢- قيام الثورة الصناعية متمثلاً في الآلة البخارية وآلات الغزل والنسيج وتصنيع المعادن، وبناء خطوط السكك الحديدية، وأصبح لدى بريطانيا ٧ آلاف ميل من الخطوط قبل عام ١٨٥٠.

٣- زيادة الإنتاج الزراعي واستخدام الطرق العلمية الحديثة في الزراعة.

٤- زيادة مضطردة في سكان المدن بسبب نشوء المصانع.

٥- جعل التعليم في المدارس إجبارياً، وتخفيض كلفة الطباعة، مما زاد في عدد القراء.

٦- ومن الأحداث الكبرى في هذا العصر إصدار طوابع البريد، وإنشاء خط بري تحت البحر بين فرنسا وبريطانيا، وشراء بريطانيا

أسهم الخديوي إسماعيل في قناة السويس، واحتلال بريطانيا مصر عام ١٨٨٢.

٧- نمو الروح الديموقراطية.

٨- كل هذا الازدهار جلب الغنى للطبقة العليا من المجتمع، في حين كان هناك طبقة تعاني الفقر والجوع، وكان العمال يعملون في ظروف صعبة للغاية وبدون مراعاة أي شروط صحية أو تأمينات، وكان أصحاب العمل يستخدمون الأطفال تحت الظروف نفسها.

ومن مشاكل هذا العصر الفكرية:

١- مشكلة تحرير العبيد في المستعمرات.

٢- فلسفة المذهب النفعي لبنتام.

٣- نظرية مالثوس القائلة بالحد من النسل للقضاء على الفقر.

٤- تحدي العلم للدين في عدة جوانب مثل نظرية داروين وتعارضها مع سفر التكوين، وانتشار الفلسفة المادية ونفيها وجود روح للإنسان، وظهور مذهب التشكك ، ومن أنصاره هكسلي وسبنسر ولسلي ستيفنز وماثيو ارنولد، وظهور كتاب رأس المال لكارل ماركس الذي طرح توزيعاً جديداً للثروات معتمداً على التفسير المادي للتاريخ.

ويعود سبب زيادة عدد القراء ألف مرة عن السابق لانتشار التعليم، فقد كان العصر الفيكتوري عصر الصحيفة والمجلة والرواية الحديثة، الصحيفة والمجلة لمتابعة الحياة اليومية، والرواية أفضل تسلية أدبية وأمتعها.

وكما ازدهرت المسرحية في العصر الإليزابيثي، ازدهرت الرواية في العصر الفيكتوري، ولم تظهر الرواية ـ عدداً أو مستوى ـ بالظهور الذي كان في هذا العصر، ونبغ أعلام روائيون على مستوى بريطانيا والعالم كله.

وقد ابتعدت الرواية في هذا العصر عن رومانسية العصر الفائت، وتمسكت بالواقعية، واقعية بعيدة عن واقعية زولا وإبسن، ولكنها تقوم على الحقيقة الكاملة عارضة علل العصر الجسدية والخلقية كما هي بلا رتوش، ورفع الروائيون القول بأن الصحة والأمل شرطان عاديان للحياة الإنسانية.

لقد عكس أدب هذا العصر مشاكل الإنسان الاجتماعية والدينية والفلسفية، إلا أنه لم يخل من التزمت والمحافظة على تقاليد المجتمع الموروثة، فكان أدبه أدباً ملتزماً وموجهاً أخلاقياً.

وقد يكون في استعراضنا لأجناس الأدب وأعلامه في هذا العصر بيان أوضح لطبيعة الأدب الفيكتوري

الشعر:

١- **روبرت براوننج:** (١٨١٢ ـ ١٨٨٩) يعد أحد ممثليّ العصر (مع تنيسون) كشف عمله الكبير ''رجال ونساء'' عن مواهب عدة في أحسن أحوالها، شاعر تأملي عقلاني منطقي عكست أعماله تعقيدات الشخصية الإنسانية، تزوج الشاعر اليزابيث باريت إحدى أعظم شاعرات بريطانيا.

٢- **الفرد تنيسون:** (١٨٠٩ ت ١٨٨٩) يعده معظم النقاد خير ممثل للعصر، خلف ووردزورث عام ١٨٥٠ كشاعر للبلاط، لقيت قصيدته ''في ذكرى'' نجاحاً مالياً وأدبياً كبيراً، شاعت في قصائده الاولى سوداوية وثنية، أعماله غنية بالموسيقى، متأثر بالشاعر بوب، تظهر فيكتوريته في مجموعة ''قصائد الملك''.

٣- **ماثيو أرنولد** (١٨٢٢ ـ ١٨٨٨) ناقد وشاعر وكاتب مقالة، عمل مفتشاً للمدارس الخاصة بالفقراء مما أثرى تجربته الاجتماعية،

من أشهر أعماله ''أشعار تذكارية'' وفاء لووردزورث وبيرون وغيرهما، و''قصائد'' و''قصائد جديدة'' ومأساته ''ميروب''.

٤- **دانتي روزيتي:** (١٨٢٨ ـ ١٨٨٢) : شاعر ورسام ينسب إلى عصر ما يسمى بما قبل روفائيل، له سونيتات من أكثر السونيتات موسيقية في الأدب الإنجليزي، صنفت أعماله على أنها من المدرسة الجسدية أو الحسية، ولعل عمله كرسام قد أثر في ذلك، كانت أخته جورجينا روزيتي شاعرة أيضاً.

٥- **الجرنون سوينبرن:** (١٨٣٧ ـ ١٩٠٩) شارك جماعة ما قبل روفائيل آراءهم واتجاهاتهم، تأثر بالأدب اليوناني القديم والفرنسي المعاصر، كان لمجموعته: ''قصائد وأغان شعبية'' أثر طيب في الجمهور، له كتابات نقدية جادة عن مسرحيي العصر الإليزابيثي.

أعلام الرواية

١- **تشارلز ديكنز:** (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) ، أثار الشعور الاجتماعي لدى أهل عصره بكشفه مآسي الفقراء والبائسين من الطبقة الدنيا في رواياته مثل: ديفيد كوبر فيلد، أوليفر تويست، وأصبح قاسياً أكثر في أعماله اللاحقة: بيت منعزل، الآمال الكبيرة، أيام صعبة، كان ناقماً على عصره لأن التقدم الصناعي جلب المشاكل للإنسان وحول إنجلترا إلى سجن كبير، ورأى أن العلاقة الأخوية بين بني الإنسان قادرة على حل المشاكل الحياتية، وتبديد الحزن والبؤس الإنسانيين.

٢- **وليم ثاكري** (١٨١١ ـ ١٨٦٣) ناقد لمجتمعه، متعاطف مع الطبقة الدنيا، معادٍ للطبقة الثرية ضمن واقعية واضحة مؤثرة دلت على أن صاحبها قادر على فهم

طبائع الناس وسماتهم، مدرك لقسوة الحياة وضعف الإنسان، من أشهر أعماله: معرض الخيلاء.

٣- **الأخوان برونتي:**

- **شارلوت برونتي** (١٨١٦ ـ ١٨٥٥).
- **اميلي برونتي**(١٨١٨ ـ ١٨٤٨).
- **آن برونتي**(١٨٢٠ ـ ١٨٤٩).

نشأت الأخوات الثلاثة في مقاطعة يوركشير في بيت إيرلندي مع أب عصبي المزاج ، مزقه الحزن لوفاة زوجته التي تركته ليرعى ٥ فتيات وولد سكير في قرية منعزلة، بدأت الأخوات الثلاث الكتابة بأسماء مستعارة وكانت بدايتهن شعرية ثم تحولن إلى الرواية، فكتبت شارلوت الروايات: الأستاذ، فيليت، شيرلي، ورائعتها التي اشتهرت بها ''جين اير'' .

أما إميلي فقد طاولت شقيقتها بروايتها الوحيدة '' مرتفعات وذرنج'' رواية العواطف العنيفة الجامحة التي لا يستطيع أصحابها السيطرة عليها.

أما ''آن'' فقد كتبت روايتين لم تحظيا بالشهرة هما: اجنس جري، وساكن وايلد فيل هول''.

٤- **جورج اليوت** (١٨١٩-١٨٨٠) : اسمها الحقيقي ماري آن ايفانز، لعبت دوراً ناشطاً في الحياة الثقافية اللندنية، اهتمت بالظلم الاجتماعي الواقع على الرجل والمرأة على السواء مثيرة أسئلة عقلية وسياسية في هذا الصدد، محللة السلوك البشري في محاولة للوصول إلى نتائج أخلاقية، من أشهر أعمالها : آدم بيد، طاحونة في منطقة فلوس، سيلاس ميرنر، منتصف مارس، دانيا ديروندا.

٥- **جورج ميريدث** (١٨٢٨-١٩٠٩) : حلل السلوك البشري وركز على الصراع بين المرأة والرجل معبراً بذلك عن العواطف والغرائز الإنسانية، وبما أنه شاعر، فقد اهتم

بالأناقة اللفظية، له شعر ذو أهمية، أهـم أعمالـه: الأنـاني، تعـذيب ريتـشارد فيغريل، ديانا على مفترق الطرق.

٦- **توماس هاردي (١٨٤٠ـ١٩٢٨)**: بدأ حياته معمارياً فأثر ذلك على أعماله الروائية التي بناها حادثاً على آخر للوصول إلى العقدة، تملكه حنين إلى الماضي وتشاؤم من الحاضر المتمدن الذي أثر سلبياً على أخلاق الفرد، وترك الـصدفة العميـاء تتحكم في مصائر أبطاله بجانب ماضـيهم الـذي يظـل يلاحقهـم في حاضـرهم ومستقبلهم، من أشهر أعماله: عمدة كاستر بودج، جـود المغمـور، بعيـداً عـن جنون الحشد، تس سليلة دربرفيل، عودة المواطن، نافخ البوق، وقد تحول بعـد عام ١٨٩٧ إلى الشعر وانقطع له فأبدع فيه وبز كبار شعراء عصره، وعدَّه عباس محمود العقاد أجل وأعظم الشعراء الفيكتوريين.

أما الناثرين، فحري بنا أن نلم باثنين منهم:

١- **توماس كارلايل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١)** : حـاول إثـارة رجـال الريـف ضـد أوضـاعهم المعاشية المتواضعة، وكشف ما اعتقد أنه ضحالة في تفكير الطبقة الوسـطى، في كتابه "**البطولة والأبطال**" كشف إيماناً صوفياً بالبطل كقائد طبيعي على الناس الإذعان له، اهتم بالفلسفة والأدب الألمانيين وترجم عنهما: "ولـيم ميـستر" لجوته، وكتاب الفلسفة المتعالية لكانت، من أشهر أعماله: تاريخ الثورة الفرنسية، تاريخ فردريك العظيم.

٢- **جون رسكن (١٨١٩ ـ ١٩٠٠)**: مصلح اجتماعي دافع عن الثقافـة الوطنيـة وهـاجم مذهب المنفعة الذي نادى به بنتام وستيوارت مل، وبما أن الجمال كـان محـوره الأساسي فقد أكد العلاقة بين الفن والمجتمع ، وأطرى أعمال الرسامين الجدد في كتابه: رسامون حديثون" ودافع عن الفن القوطي في كتابه "المصابيح السبعة لفن العمارة".

١٠ـ تشارلز ديكنز
(١٨١٢ ـ ١٨٧٠م)

لا نظن أن أحداً من عارفي أسرة تشارلز ديكنز في طفولته كان يتوقع أن يكون لأي من أفرادها شأناً ما في يوم من الأيام، فقد كان عالم تلك الأسرة عالم من الفقر والمرض والبؤس وسوء التغذية، ولكن العظماء ـ كما قلنا في حلقة سابقة ـ يتغلبون دائماً على هذه الظروف التي يرونها غيوماً عابرة سرعان ما تنقشع لتظهر عبقرياتهم في أحسن صورها إذا ما أتيحت لها فرصة صغيرة كنافذة يعبر منها بصيص نور إلى عالم مظلم قاتم، وكثيراً ما يجد الأدباء في حياتهم المبكرة مادةً دسمة للكتابة عنها والاستيحاء منها، وللدفاع عن المسحوقين الذين كانوا هم منهم، وهذا الروائي الفيكتوري ديكنز.

ولد تشارلز جون ديكنز في السابع من شباط ١٨١٢ في لاندبورت قرب بوتسماوث، أما أبوه جون (الذي يمثله ميكاوبر في رواية ديفيد كوبرفيلد) فقد كان كاتباً في مكتب مالية البحرية الإنجليزية براتب قدره ثمانون جنيهاً سنوياً، أما أمه ـ جدة تشارلز ـ فقد كانت خادمة في منطقة كرو، ومعروفة بإتقانها رواية القصص، وقد تزوج جون ''اليزابيث'' ابنة ملازم في البحرية، وقد أنجبت له ثمانية أطفال أكبرهم ''فاني'' المولودة عام ١٨١٠، أما تشارلز فكان مولودها الثاني.

وفي عام ١٨١٦ انتقلت الأسرة للسكن في شاتام، وهناك بدأ تشارلز طفولته هزيلاً عليلاً يكتفي بالتفرج على لهو الأطفال في شارعهم، ويتأمل كتب والده بعد أن بدأت أمه تعلمه الحروف والقراءة في حضنها، ومن بين هذه الكتب ''توم جونز''[1]

---

(1) رواية للروائي الإنجليزي فيلدنغ (١٧٠٧ ــ ١٧٥٤)

و''دون كيشوت''[1] وأعمال الروائي الإنجليزي سموليت (١٧٢١ ـ ١٧٧١) التي أحبها كثيراً، وفي هذه الفترة أتيح له أن يتمتع بمشاهدة المسرح حين اصطحبه أحد أقربائه إليه مرات عدة.

وفي عام ١٨٢٢ نقل جون ديكنز إلى لندن وترك تشارلز في شاتام ليكمل عامه الدراسي، ثم لحق بالأسرة ليجدها تواجه صعوبات مالية وتعيش في بيت صغير في ''كامدن تاون'' فلم يكمل دراسته، ولكن أخته فاني استمرت في دراستها وأُلحقت بالأكاديمية الملكية للموسيقى، وترك تشارلز ليعتني بأخوته، ويؤدي بعض المهام البيتية.

وحلت نكبة أخرى بالأسرة في شباط عام ١٨٢٤ حين زج بجون ديكنز في سجن مارشلسي بسبب ديونه، وألحقت الأسرة بالسجن حسب نظام قديم يسمح بسكن الأسرة مع معيلها في السجن، إلا أن تشارلز لم يرافق أسرته، بل سكن مع إحدى الأسر قرب السجن والتحق بمصنع لطلاء الأحذية براتب قدره ستة شلنات أسبوعياً، أما أبوه المسجون فقد استمر راتبه وهو في السجن وكأنه على رأس عمله ليدل ذلك على علاقاته القوية مع علية القوم في البحرية.

ويلقى تشارلز عناية خاله توماس بارو واهتمامه، وكان بارو يسكن فوق مكتبة لم تبخل مالكتها على القارئ النهم تشارلز فكانت تعيره الكتب التي سرعان ما يقرأها ويستبدلها، وجرب قلمه لأول مرة بكتابة وصف لحلاق خاله.

ولم يطل المقام بالأب في السجن، فقد توفيت أمه تاركة إرثاً باعه أخوه وليم ودفع ديون جون وخرج من السجن في أيار من العام ذاته وعاد إلى عمله في البحرية.

ويلتحق تشارلز بمدرسة ''أكاديمية ولنجتون'' في هامبستيد رود، ويتذكره زملاؤه فيها لاحقاً أنه كان وسيماً يكتب القصص ويحب التمثيل، وقد قضى في هذه المدرسة عامين، وعمل بعدهما في مكتب تجاري، ثم عند محام، واستمر في مثابرته على القراءة وبالذات في مكتبة المتحف البريطاني، كما تعلم الاختزال وأتقنه، وفي

---

(١) رواية للروائي الإسباني سرفانتس (١٥٤٧ ــ ١٦١٦).

عام ١٨٣٢ عمل مندوباً لصحيفة **True Sun** ثم مندوباً برلمانياً لـصحيفة خالـه: ''مرآة البرلمان''، وإلى جانب ذلك، بدأ يكتب لبعض المجلات مقالات عـن مـشاهد الحياة اللندنية ويمهرها بتوقيع ''بوز'' ، ولما جمعت مقالاته هذه في مجلدين عام ١٨٣٦ تحت اسم ''صور بوز'' بدأت المجلات تروج له ككاتب واعد، ودفعه هـذا لتـأليف روايته الكوميدية ''**أوراق بكويك**'' في العام التالي، والتي كانت البداية الكبيرة للشهرة والثروة، فقد نشرت على شكل حلقات غير مترابطة ببعضها في المجلات، ثم نشرت في كتاب لتجلب شهرة أكبر، وكان في كل حلقة يسرد مغامرة كوميدية لا علاقة لها بالمغامرة التالية، وغير قلق بخطة معينة أو عقدة روائية، وكان جمهوره يريد ذلك، وقد طبع الناشر ٤٠٠ نسخة من العدد الذي صدرت فيه الحلقة الأولى، ولكنه طبع خمسة عشر ألف نسخة من العدد الذي نشرت فيه الحلقة الخامسة عشرة، وكم هو مدهش أن تسمع عن رجل يقول للقسيس وهو يموت '' أحمد الله.. أني أسـتطيع المـوت في سلام، فقد فرغت لتوي من قراءة الحلقة الأخيرة من '' أوراق بكويك'' ... فتأمل!.

وتزامن ظهور هذه الرواية مع زواجـه مـن كـاترين هوجـارث ابنـة جـورج هوجارث ومحرر صحيفة ''أحداث المساء''، وقد تعلق ديكنـز بأختهـا مـاري ابنـة السادسة عشرة والتي قدمت لتسكن معهما، وقد فتنه ذكاؤها وروحها المرحة وحبها للفنون والتقاليد، وكان يتمشى معها كثيراً ويحدثها عن مـشاريعه الروائيـة القادمـة، وأبطاله الذين سيكتب عنهم، وقد ولدت له زوجته عشرة أولاد في خمسة عشر عاماً، ولكنه كان زواجاً غير موفق، فتم الانفصال عام ١٨٥٨، أما أختها ماري فقد فجـع بها وهي صغيرة، وتألم بعمق لموتها، وتوقف عن الكتابة مدة شـهرين حزنـاً عليهـا، وظل يذكرها طيلة حياته.

وصدرت روايتـه ''**اوليفر تويست**'' عـام ٣٧ ـ ١٨٣٩ في مجلـة ''منوعـات بنتلي''، ومع أنها كانت كوميدية، إلا أن سطوة النقد الاجتماعي قد سادتها، فهـي تصور الفساد بأنواعه المتوغلة في الأزقة والبيوت، وتسرد أخبار المجـرمين والنـشالين

واللصوص والضائعين، والفقراء المتضورين ، ويهاجم فيها قانون الفقراء غير العادل وأحوال الملاجئ والإصلاحيات، ولكنها مع ذلك كله رؤيا للخير والشر، الخير يمثله أوليفر تويست الأسطورة الأخلاقية، أما الشر فممثلوه ـ مع الأسف ـ كثيرون، لـذا نرى ديكنز فيها واقعياً فيرى الدنيا على حقيقتها، ولا نستطيع هنا أن نبرئه من تأثره بروائية الأثير عنده ''سمولت''.

ويتبع هذه الرواية، وبنفس أهدافها تقريباً برواية'' **نيكولاس نيكلبي**'' عارضـاً أحوال الأطفال غير المرغوب فيهم في مدارسهم، فلا يلقون إلا الإسـاءة والإذلال، والعجيب أن هؤلاء المسؤولين يتقاضون أجوراً مقابل هذه المعاملة، ويقول ديكنز أنه قد زار مدارس يوركشاير، فرأى ما رأى، وكتب ما كتب لنا بأمانة وصدق.

وكان انتاج ديكنز غزيراً في هذه الفترة، وكان يكتب في أكثر من عمل في وقت واحد، فكتب رواية''**دكان العجائب القديم**'' (٤٠ ـ ١٨٤١) ، وفيها تغلبت العواطف على الكوميديا والهزل، وبالذات في موت الصغيرة ''نيل'' (لعله كان يتذكر مـوت حبيبته ماري هوجارث) وقد تألم جمهوره لوفاة نيل وأجهش معظمهم بالبكاء عليها حتى الأدباء الكبار أمثال كارلايل ولاندور، وقد أصبحت هذه الرواية لاحقاً نموذجاً للعاطفية وأثرها عند الأدباء الفيكتوريين.

أما روايته ''**برنابي ردج**'' التي تعتبر محاولته الأولى في مجال الرواية التاريخيـة، فهي عن إضرابات الثمانينات من ذلك القرن، وتبدو العقدة فيها مهمة بعد أن كانت غير موجودة في أوراق بيكويك ، وقد بيع من برنابي ردج مئة ألف نسخة.

ويجد نفسه قد أرهق من العمل المتواصل، فيرحل إلى أميركا مع زوجتـه لمـدة خمسة شهور (زار كندا لفترة قصيرة) ويلقى استقبالاً حافلاً، واهتماماً رسمياً وشعبياً أشبه باستقبال الملوك، إذ كان قراؤه هناك متلهفين للقائه، وكذلك هو، وتم تكريمهما في بوسطن ونيويورك، وواصلا رحلتهما إلى واشنطن وبتسبرغ وسنسناتي، إلا أنه في محاضراته هناك لم ينس أن يهاجم قانون النشر الأمريكي الذي سمـح بنـشر أعمالـه

بدون أن يدفع له حقوق المؤلف، كما وجد سوقية في تصرفات الأمريكيين أكثر ما يمكن أن يعجبه، وقد صرح بذلك فهاجمته الصحافة الأمريكية، وقد كتب عن كل ذلك في كتابه ''**ملاحظات أمريكية**'' (١٨٤٢) ، وكان فيه عادلاً معتدلاً، لكنه في روايته ''مارتن شزلوت'' صب غضبه على الأمريكيين ورماهم بهجاء مقذع مما خلق له أعداء كثر في أمريكا.

ويبدو أن دخله الجيد جعله يفكر في الترحال مجدداً، فغادر إلى إيطاليا في ١٤ تموز عام ١٨٤٤ عن طريق فرنسا، ووصل إلى جنوا في إيطاليا في ١٦ تموز ويبدأ يتعلم اللغة الإيطالية، وكتب هناك قصته ''رنين الأجراس'' ، ويقوم برحلة إلى شمال إيطاليا ومنه إلى لندن ليقرأ ''**رنين الأجراس**'' على الأدباء كارلايل وستانفيلد وماكليس وبلانشارد وغيرهم، وفي كانون ثاني ١٨٤٥ يعود إلى إنجلترا في حزيران ١٨٤٥ ليبدأ عمله المسرحي ''**كل رجل في فكاهته**'' وشارك في التمثيل، ومثل معه زملاؤه الأدباء، ووصفه فورستر بأنه كان ممثلاً نشيطاً أكثر ما هو متمكن محترف، ولكنه كان مديراً لا يضاهى.

وفي روايته ''**دومبي وابنه**'' (٤٦ ـ ١٨٤٨) فتتضح قدراته في السيطرة على فنه، فقد بدأ يصل إلى قمة أدائه وإبداعه، فكانت روايته هذه أكثر نضجاً وكمالاً، وفيها يحلل المجتمع الذي تحكمه الاهتمامات والأطماع التجارية أكثر من المشاعر الإنسانية.

ويفكر في وضع سيرته الذاتية، وشرع فيها بالفعل، ولكنه عندما وصل إلى فترة عمله في مصنع الدهان توقف عن الكتابة لأنها كانت فترة مؤلمة حقاً، فلجأ إلى بديل آخر يفي بحاجته، فكتب تحفته ''**ديفيد كوبرفيلد**'' (١٨٥٠) أكثر رواياته شعبية مع أن أجواءها بعيدة عن السعادة وما قد يمت إليها بصلة، وكان ديكنز يعترف ويقول: ''من أراد أن يعرف سيرتي فليقرأ ''ديفيد كوبرفيلد'' '' , التي تصور حالات كثيرة

من البؤس والحرمان ممزوجة بالكفاح والعمل الدؤوب والطموح والنجاح، ومع ذلك كله فإن قارئ الرواية العارف سيرة كاتبها يلاحظ عامل الخيال واضحاً فيها، وقد قال لمترجم روايته للفرنسية ‘‘أما التفاصيل فأحتفظ بها لنفسي’’ وقد غير وبدل من بعض الأحداث ملبياً حاجات حرفته وموهبته كروائي.

وبعد روايته ‘‘**البيت المنعزل**’’ الأفضل والأعمق تخطيطاً، والتي تعد نقلة في عمله وتقدمه الأدبي، كتب ‘‘**أيام عصيبة**’’ عام ١٨٥٢ التي تقدم لنا رؤية شاملة للمجتمع الإنجليزي في عصر الصناعة وتطورها، وبالتالي احتدام الصراع بين أصحاب العمل بجشعهم المادي، ونقابات العمال المدافعة عن العامل الفقير المسكين المستغل من قبل أصحاب المصانع الأنانيين، وهو في هذه الرواية مدين بالكثير للكاتب الإنجليزي كارلايل وبالذات تحليله ـ أي ديكنز ـ لمدينة كوكتاون وممارساتها من أعمال الاقتصاد السياسي ، وردود الفعل المعادية لحركات الإصلاح وأفكارها، فكانت ‘‘أيام عصيبة’’ عمل كاتب فهم مجتمعه وأدرك مشاكله وكشف جميع شخصياته.

ويلاحظ الدارس لأعمال ديكنز في هذه الفترة سوداوية لم يلاحظها في أعماله الأولى، فها هو في ‘‘**دوريت الصغيرة**’’ (١٨٥٧) يواصل هجوماً على البيروقراطية التي تسيطر على مكاتب الدولة ودواوينها، وكسل الموظفين وتراخيهم عن أداء عملهم، وما يتبع ذلك من فوضى وسوء نتائج وقصر نظر، ولا ينسى تجربة والده وأسرته فيهاجم حياة السجون ـ مثل سجن مارشلسي للمدنيين ـ فيراه نموذجاً لأحوال إنجلترا.

وكان قد واظب منذ عام ١٨٥٠ على كتابة أعمال سلسلة في المجلة الأسبوعية ‘‘كلمات بيتيه House hold words’’ ثم انتقل عام ١٨٥٩ إلى مجلة ‘‘طوال السنة All the year round’’ ونشر فيهما روايتيه ‘‘**قصة مدينتين**’’ و‘‘**الآمال الكبيرة**’’.

وكان ديكنز قد ا شترى عام ١٨٥٦ ''جادشل بليس'' البيت الكبير الذي حلم به وهو صغير، وصار بيته الدائم، وبعد عامين صدم الناطقون بالإنجليزية في كل مكان بأخبار انفصاله عن زوجته بعد زواج دام ٢٤ عاماً، وانتقلت هي للعيش مع ابنها الأكبر بعد اتفاق على موضوع النفقات المالية، في حين بقي هو مع بقية أولاده واخته جورجينا، وكم هو محزن أنهما رغم زواجهما الطويل وإنجابهما عشرة أبناء، لم يحب أحدهما الآخر فافترقا بدون أي عناء.

ونعود إلى روايته ''**قصة مدينتين**'' فقد اعتمد فيها بشكل أقل من الأعمال السابقة على الوصف وخلق الشخصيات الروائية، أو الحوار والهزل، وقد جعل موضوعها الثورة الفرنسية واحداث حدثت في الوقت ذاته في إنجلترا مستفيداً من المؤرخ كارلايل، مصوراً مفاسد النظام الأرستقراطي، عارضاً قسوته واستبداده واستهانته بأرواح الناس، هذه الاستهانة تتجلى بوضوح في نهاية الرواية بمشهد الإعدام الجماعي لعدد كبير من الأبرياء نساءً ورجالاً، حقاً لقد أثبتت ''قصة مدينتين'' مدى اتساع أفق ديكنز وتعدد نواحي عبقريته.

أما رواية ''**الآمال الكبيرة**'' ١٨٦١، فهي تشبه ''أوليفر تويست'' إلى حد كبير، فهي على طريقة رواية المتحدث الأول الذي يسرد فصولاً من حياة ديكنز وتجاربه، فمراحل حياة البطل ''بيب'' وآماله تعرض مرتبة لتجسيد نموه وتطوره ماراً بتجارب تمتحن شخصيته، ويمثل كل ذلك صفات الجيل السائد وضعفه وسوء حظه.

وعلى الأسلوب ذاته كانت رواية ''**صديقنا المشترك**'' (١٨٦٥) لتنقد الشهوة للمال والثروة في المجتمع اللندني الموبوء بالفساد والسطحية.

ويظل ديكنز يكتب حتى اليوم الأخير من حياته، وكان مشغولاً بكتابة روايته البوليسية ''**لغز أدوين درود**'' التي لم يكملها، وكان سيتسلم ٧٥٠٠ جنيه مقابل نشر ٢٥ ألف نسخة منها ، و٢٥ ألف جنيه لنشر خمسين ألفاً خلال حياته.

وكان في الاثني عشر عاماً الأخيرة قد أجهد نفسه واستنفذ طاقته، ليس في الكتابة فحسب، بل في أسفار وقراءات لأعماله على الجماهير درت عليه أموالاً طائلة، وكان المتعهدون ينظمون هذه ''الليالي'' والقراءات التي بدأها في تموز عام ١٨٥٨ بعقد يمتد إلى ثلاثة شهور من القراءة، ثم زار إيرلندة واسكتلنده للغرض ذاته حيث بلغ أجره ٥٠٠ جنيه أسبوعياً، واستمرت هذه القراءات في مناطق عدة شملت باريس عام ١٨٦٢، وعرض عليه السفر إلى استراليا مقابل عشرة آلاف جنيه، ثم زيد المبلغ إلا أنه اعتذر، ولكنه سافر إلى أمريكا بعد تردد عام ١٨٦٧ ، فاستقبله كتابها البارزون وحشود من المواطنين الهاتفين ليدل ذلك على أن الخلاف السابق قد نسي تماماً، وقرأ على جمهوره في بوسطن ونيويورك وبافلو وبورتلاند وغيرها، وعاد إلى وطنه في أيار ١٨٦٨ بعد غياب خمسة شهور حصل فيها على مئة ألف دولار، ولكنه لم يسترح، بل شرع في سلسلة قراءات أخرى مقابل ٨ آلاف جنيه، وكان بارعاً في القراءة، ويغير صوته بتغيير الشخصيات التي تؤدي الحوار، ويقاطعه الجمهور بالتصفيق والقرع بالأقدام والضحك والبكاء ، أو طلب الإعادة فلا يخيب رجاءهم فيعيد ليردهم إلى السكينة والهدوء.

وفي شباط ١٨٦٩ منعه أطباؤه من العمل لتدهور صحته، ولكنه خالفهم بعد أيام وعاد إلى العمل، وفي ٢٣ نيسان قررت لجنة طبية أنه على وشك الإصابة بالشلل في جانبه الأيسر، وهناك احتمال لحصول سكتة دماغية، فنصح بالراحة والتوقف عن قراءاته للجمهور، ولكنه قام ببعض القراءات من أجل تعويض بعض الناشرين من أصدقائه، وظل في حالة صحية غير مستقرة رغم شروعه في رواية'' **لغز أدوين درود**'' التي رأى الحلقة الأولى منها في المجلات، وظهر للمرة الأخيرة أمام الجمهور في حفل تأبين صديقه ماكليس في ٣٠ نيسان ١٨٧٠، وفي ٨ حزيران أصيب بالسكتة الدماغية، وتوفي في ٩ حزيران ١٨٧٠ ، ودفن في مقبرة العظماء ''وستمنستر'' في ١٤ حزيران بعد جنازة بسيطة حسب وصيته.

لقد جرب ديكنز شظف العيش وبؤسه، وعرف الظلم والفقر والتشرد، لذا كان في رواياته محامياً للفقراء والبؤساء والمظلومين والمشردين، وهو - وإن شغلته الحياة اللندنية في العصر الفيكتوري - كان مدافعاً عن الإنسانية ككل، لأن شخصياته هي نماذج بشرية يمكن وجودها في كل زمان ومكان ، فكان كما قال عنه الفيلسوف الأمريكي سانتيانا: ''أعتقد أن ديكنز أحسن صديق يمكن للإنسانية أن تقدمه لنا''.

لذا لا غرابة أن يصبح ديكنز كاتب الشعب الأول، يثبت هذا الإقبال الشديد على أعماله في حياته وبعد وفاته، فقد بيعت في الإثني عشرة سنة التي تلت وفاته ٤ ملايين و ٣٠٠ ألف نسخة من أعماله، بجانب ذلك الرقم الهائل الذي بيع منها خلال حياته.

ولا يعجب محبو ديكنز وقراؤه إذا ترسَّم خطاه كتاب كثيرون، عرفوا عبقريته واستفادوا منه، وفي مقدمتهم الروائي الروسي الشهير دوستوفسكي (١٨٢١ - ١٨٨١) والروائي النمساوي فرانز كافكا (١٨٨٣ - ١٩٢٤) .

١١ـ روبـرت بـراونـنج
(١٨١٢ ـ ١٨٨٩م)

ولد الشاعر الإنجليزي روبرت براوننج في السابع من أيار عام ١٨١٢ في ضاحية كامبرويل في جنوبي شرقي لندن، وكان أبوه يعمل كاتباً في بنك إنجلترا، وكان يملك مكتبة غنية بالكتب النادرة، فشجع ولده على كشف أسرارها، فكانت هذه المكتبة خير نواة لثقافة الشاعر الأولية، أما أمه الأسكتلندية سارة ودمان، فقد كانت ذات اتجاه ديني، فكان لذلك أثره على ولدها بالإضافة إلى تنميتها لديه حب الموسيقى والأزهار والحيوانات.

لم ينتظم براوننج في دراسة منتظمة، بل درس في طفولته في مدرسة تديرها سيدة أرسل إليها تخلصاً من طبيعته الصاخبة في البيت، كما تلقى بعض التعليم الخاص في الموسيقى واللغات، وعندما بلغ الثانية عشرة كان قد أنتج مجموعة شعرية، وفي سن السادسة عشرة التحق بجامعة لندن لفترة من الوقت وتلقى دروساً في اللغة اليونانية، ولكنه انسحب في منتصف الفصل الدراسي الأول، ولما بلغ السابعة عشرة، طرح السؤال على أسرته إن كان دخلها يتيح له الانصراف الكامل للثقافة ، فجاء الرد بالإيجاب، فقرر أن يصبح شاعراً، ليدلنا قراره هذا على أن الشعر كان ما يزال مهنة تمتهن في زمنه.

طبع براوننج أعماله الأولى على نفقة والده، فظهرت مجموعته الأولى ‘‘**بولين**’’ عام ١٨٣٣، ولم يذكر اسمه عليها، وهي نتيجة تجربة حب في صدر الشباب، وتجربة زيارة قام بها لمدينة بترسبورج (لينينغراد) الروسية، عندما حل ضيفاً على المستشار البريطاني هناك، ويتضح في هذه المجموعة تأثره بالشاعر الرومانتيكي الإنجليزي شيلي (١٧٩٢ ـ ١٨٢٢) ، ولم تجد هذه المجموعة صدى طيباً، وعلق عليها ستيوارت مل بأن صاحبها يمتلك شعوراً كئيباً، مما أزعج براوننج وجعله يغير أسلوبه، فأخذ يغفل تجاربه

العاطفية الخاصة ويكتب شعراً هادفاً، وإذا ما أراد أن يكتب عن شؤونه العاطفية بدون كشفها استعمل ضمير الغائب في قالب درامي يخفي مراده وقصده.

وفي عام ١٨٣٥، نشر مجموعة ''**باراسيلس**'' التي أكسبته صداقة عدد من أعلام الكتابة في ذلك الزمن أمثال توماس كارليل وتشارلز ديكنز ولاندور ووردزورث والممثل وليم ماكريدي ، وإن لم تحقق هذه المجموعة نجاحاً جماهيرياً، ونزولاً عند رغبة ماكريدي كتب مسرحيته ''**ستراففورد**'' عام ١٨٣٧، ليبدأ فترة عشر سنوات من الكتابة المسرحية فكتب ''**وصمة في شعار النبالة**'' و''**عيد ميلاد كوكب**'' وقد مثلتا على المسرح، أما الأعمال التي لم تمثل فهي: ''**بيبباسيس**'' و''**لوريا**'' و''**الملك فكتور**'' و''**الملك تشارلز**'' و''**ماساة روح**'' و''**عودة الدروز**'' ، ومع أن هذه الأعمال المسرحية لم تلق نجاحاً كبيراً إلا أنها كانت خير دربة له على فن الدراما، فاستخدمه لاحقاً بإبداع في منولوجاته الشعرية.

وخلال هذه الفترة كتب مجموعة من القصائد بعنوان ''**أجراس ورمان**''، ونشرت في ثماني نشرات منفصلة ما بين الأعوام ٤١ ـ ١٨٤٦، ثم أعيد طبعها في مجلد مستقل، كما كتب ''**سورديلو**'' التي أربكت النقاد بسبب غموضها، كما تركت قراءها في خلاف حولها.

وحدث أن امتدحت الشاعرة الناقدة اليزابيث بارت في شعرها شعر براوننج، فكتب إليها رسالة شاكراً، وكان ذلك في كانون ثان ١٨٤٥، والتقيا في أيار من ذلك العام حيث قدمه لها ابن عمها جون كينيون، وسرعان ما تحابا، وكانت اليزابيث تعاني المرض والوحدة، وكان أبوها متسلطاً أنانياً يريد الاحتفاظ بابنته، حتى أنه رفض اقتراح الأطباء بسفر ابنته إلى إيطاليا لتوافق أجوائها مع حالتها الصحية، لذا لم يكن غريباً أن يتزوج العاشقان سراً في أيلول من عام ١٨٤٦ ثم فرا على فرنسا ومنها إلى إيطاليا حيث سكنا فلورنسا، ليبدأا زواجاً سعيداً دام ١٦ سنة، وقد أنجبت اليزابيث

ابنهما الوحيد روبرت ردمان عام ١٨٤٩ ، والذي أصبح فيما بعد نحاتاً ورساماً ، وفي العام ذاته طبع أعماله الشعرية كاملة بعنوان ''**قصائد روبرت براونتج**''، إلا أن هذا العام كان حزيناً أيضاً، فقد تلقى الشاعر صدمته الأولى بوفاة أمه بعد أيام من ولادة ولده.

وفي عام ١٨٥٠ نشر براوننج مجموعته ''**عشية الميلاد**'' وأتبعها بمجموعة ''**عيد الفصح**'' وهي أول عمل شعري يؤكد ميوله الدينية، وصدر بعدها عام ١٨٥٥ ''**رجال ونساء**'' التي ضمت ٥١ قصيدة تتضمن عدداً من قصائده المشهورة مثل: ميمورابليا، حب بين الخراب، فراليبوليبي'' وبعض القصائد الرمزية مثل: ''بجانب الموقد'' ولم تحقق هذه المجموعة نجاحاً أدبياً ولا مادياً.

وفي عام ١٨٦١ توفيت زوجته الحبيبة وهي في الخامسة والخمسين من عمرها فحزن حزناً شديداً، ولم يفكر في العودة إلى فلورنسا حيث عاش معها، واعتكف عامين في بيته في لندن بدون أن يكتب شيئاً، قبل أن يستيقظ من حزنه هذا ويعود إلى المجتمع شخصية حاضرة لا غنى عنها في كل تجمع أدبي، وإن كان في داخله ما زال يشعر بفقدان زوجته، والتي تبع الحزن عليها حزنان آخران، وفاة أختها أرابيلا باريت، ووفاة والده.

وتخبرنا المصادر عن هذه الفترة من حياته عن عثوره على كتاب قديم أصفر في إحدى مكتبات فلورنسا، فاشتراه بثماني بنسات، وموضوعه جريمة قتل حدثت في القرن السابع عشر، فقرأه عده مرات، وروى القصة شعراً حوالي عشر مرات كما تبدو لكل واحد من الأشخاص المتورطين فيها، وقد نتج عن ذلك قصيدته ''**الخاتم والكتاب**'' المنشورة عام ١٨٦٩، والتي وضح فيها مدى نضجه الفني والديني، وبها أصبح من كبار الشعراء الفيكتوريين، وأصبح هو وتينيسون أشهر شاعرين في زمنهما.

ولم تكن هذه القصيدة هي الوحيدة المستقاة من كتاب قديم، بل إن الكثير من قصائده قد نظمت مستقاة من قصص أو حكايات أو مواضيع قديمة قرأها، دالاً بذلك على مدى اتساع مداه التاريخي كاتساع مداه المعاصر.

وفي عام ١٨٦٩، زار اسكتلنده وأقام عند السيدة اشبرتن الغنية الجميلة، وطلب يدها، وأخبرها بكل بساطة أنه اختارها لثروتها، لكي يضمن مستقبل ولده غير المؤهل، فرفضته اشبرتن بعنف، وأصبحت من ألد أعدائه.

وبدأ براوننج قطف ثمار شعبيته، فيصبح شخصية مطلوبة في المجتمع بقية حياته، فدعوات الناس له للمآدب لا تكاد تنتهي، فيظهر فيها متحدثاً بارعاً وشخصية محبوبة، حتى صعب على نقاده التوفيق بين حياته الشعرية المحلقة وبين تلك الحيوية والنشاط في المجتمع اللندني ، وفي وجود ولده الذي جعل همه تعليمه والعناية به، ولكن بقي براوننج متواضعاً، فهو لا يحب الحديث عن نفسه وعن شعره، وكأنه ترك أثرهما للآخرين.

وتمتاز المرحلة الأخيرة من إنتاج براوننج الشعري بمزاج سعيد مرتاح ينعكس على شعره، فيكتب الكثير، وينظم في المواضيع الميتافيزيقية، فكان من أعماله الأخيرة ‘‘**الأمير هوهنستيل**’’ (١٨٧١) **فيفين في السوق** (١٨٧٢) **قبعة الليل الحمراء** (١٨٧٣) **البوم الفندق الصغير** (١٨٧٥) **لاسيتزياز** (١٨٧٨) ، **ومن المواضيع الكلاسيكية كتب:** مغامرة **بالوسشن** (١٨٧١) **اعتذار ارستوفين** (١٨٧٥) ، ومجموعة شعرية تضمن أفضل ما نظم في المرحلة الأخيرة بعنوان: **اناشيد ريفية درامية** (٧٩ ـ ١٨٨٠) والتي بها طبقت شهرته الآفاق، ودل على ذلك تأسيس جمعية براوننج عام ١٨٨١، ذلك المشروع الذي تعاطف معه براوننج إلا أنه لم يشارك فيه خشية السخرية.

وبالإضافة إلى مجموعات القصائد الأخيرة ظهر له: **باشياروتو** (١٨٧٦) **جوكوسيريا** (١٨٨٣)، **غراميات فرشتا** (١٨٨٤) وقصيدة: لقاءات مع أناس مهمين

عام (١٨٨٧) ، وفيها بحث بعض الكتب والأفكار التي تأثر بهـا في حياتـه الأدبيـة، فتكاد تشكل سيرة ذاتية، أما مجموعته ''**سولاندو**'' فقد ظهرت عام (١٨٨٩) .

وكان براوننج يقضي فصول الصيف في اسكتلنده أو فرنسا حتى عام (١٨٧٨) عندما عاد إلى إيطاليا ـ ولم يعد إلى فلورنسا موطن ذكرياته الأولى مع زوجته الحبيبة ـ بل عاد إلى فينيسيا حيث استقر ولده بعد زواجه، وهناك وبعد عام ١٨٨٣، أخـذت صحته تميل إلى الضعف، لكنه استمر في الكتابة حتى الخريـف الأخـير مـن عمـره، وحصل على الدكتوراه الفخرية في القانون من جامعة أدنبره، وفي عام ١٨٨٦ عـين مراسلاً اجنبياً للأكاديمية الملكية.

وفي أواخر أيامه أصيب بالالتهابات الـشعبية أكثـر مـن مـرة، وتحولـت هـذه الإلتهابات إلى ذات الرئة، فتوفي يوم ١٢ كانون أول عام ١٨٨٩ وهو يوم نشر قصيدة ''سولاندو'' فتلقى أخبار استقبال الناس الطيب لها قبل وفاته، وأقيمت لـه جنـازة شعبية في إيطاليا، ثم نقل إلى إنجلـترا حيـث دفـن في ''وستمنـستر أبـي'' في زاويـة الشعراء.

والآن لنتأمل هذا الشعر لمعاصره وصديقه لاندور واصفاً براوننج وهو يجمع مادته الشعرية:

إنه يقف ويراقب الإسكافي في تجارته
ورجلاً آخر يقطع الليمون لصنع الشراب
وكانون بائع القهوة والأولاد من حوله
وذلك المتطوع الذي يساعده بإدارة الذراع
وإذا ضرب أحدهم حصاناً تشعر أنه يرى ذلك
وإذا شتم أحدهم امرأة، يدون ملاحظة

وكان لاندور قريباً جداً من الحقيقة في وصفه هذا، إذ لم يشارك براونتج الرومانسيين في اهتمامهم بالطبيعة، بل أعلن أن الناس عنده أكثر أهمية بكثير، فهو قريب مما نسميه اليوم بالالتزام في الأدب.

وإذا كانت شهرة براونتج في حياته بطيئة، بعكس ما حصل لزوجته أو الشاعر تينيسون، فقد أحيط براونتج بعدد طيب من المحبين والمعجبين المتحمسين له وفي مقدمتهم توماس كارليل وبنجامين جوتيه وروسيتي والناقد الفرنسي جوريف ملساند، ولعل عدم اتساع رقعة قارئيه هو شكه في القيم التي طرحها في شعره، بالإضافة إلى الغموض الذي يجعل القارئ غير الصبور يضيع وهو يتبع الصفحة بالصفحة بدون إدراك شيء، وكان براونتج يرد على ذلك أن هذا هو ثمن أفكاره القيمة التي تحتاج إلى قارئ واعٍ صبور.

أما عن تأثيره على من تلاه من الشعراء، فقد كان ذا تأثير على عدد من الشعراء المعاصرين أمثال ازرا باوند وروبرت فروست، وذلك إلى جانب تركيزه على الجانب النفسي في الفرد، وقدرته على وصف ذلك الازدحام الهائل في المجتمع الحديث بلغة ليست معهودة في عصره، ولا تدين للتقليد بشيء، لقد قال عنها إنها دارجة أو قريبة من الدارجة لتؤدي الغرض المطلوب.

وخير ما نختم به هذه العجالة عن براونتج سطور من شعر لاندور عنه:

" براونتج" منذ أن كان تشوسر حياً معافىً

لم يسر على دروبنا رجل بخطوته

بنشاطه، وعينه الباحثة، أو لسانه

وتنوعه فيما يطرحه.

من شعره

"لقاء في الليل"[1]

البحر الرمادي، والأرض الطويلة السوداء
ونصف القمر الأصفر كبير ومنخفض
والأمواج الصغيرة تتقافز
والحلقات النارية تفيق من نومها
وأنا أنهب الخليج دافعاً سفينتي
واخمد سرعته في الرمل الموحل
وبعد ذلك ميل من الشاطئ الدافئ ذي رائحة بحرية
وثلاثة حقول سأقطع، ثم تظهر مزرعة
دقة على لوح زجاجي، يتلوه صرير سريع حاد
واندلاع عود ثقاب أزرق يُسعل
وصوت منخفض في فرحه وخوفه، ثم دق قلبان معاً.

---

(1) Great Poems . p 321

‘‘الأخوات برونتي’’

الحديث عن الأخوات برونتي شائق ممتع، فكل ما عرف عنهن يثير الفضول، ويستثير السؤال والاستفسار، فلا زالت الدراسات والأبحاث تكتب عنهن سواء في نقد أعمالهن ، أو في تتبع سيرة حياتهن وكشف خفاياها وغموضها، حتى زعم أحد النقاد ـ غير مبالغ ـ أن ما كتب عن الأخوات برونتي لا يتجاوزه إلا ما كتب عن شكسبير، ولكن الإحصاءات والأرقام الصادرة عن المكتبات والناشرين تثبت أن مكانهن يتراوح بين الثاني والثالث على قائمة الروائيين الإنجليز الأكثر شعبية، وقد تأسست عام ١٨٩٤ ‘‘جمعية برونتي’’ لحفظ التراث البرونتي، ولإصدار النشرات والدراسات عنهن، وفي عام ١٩٤٧ وفي الذكرى المئوية لأول مطبوعة من الأدب البرونتي زار أبرشية هاورث (بيت آل برونتي) خمسون ألف زائر، وقد أصبح هذا البيت الآن ‘‘متحف برونتي’’ وزاره عام ١٩٦٨، ٩٧ ألف زائر.

ولد باتريك برونتي عام ١٧٧٧ في أميريل ـ كوداون في إيرلندا الشمالية، وكان الطفل الأكبر بين عشرة أطفال لفلاح أمي فقير هو هوج برونتي، ونظراً لحالة والده، شرع باتريك في العمل صغيراً، فعمل حداداً وناسجاً للكتان، ولكنه كان يختلس الأوقات القليلة للقراءة ولتلقي الدروس على يد قسيس، ولما بلغ السادسة عشرة عمل معلماً في مدرسة في قرية صغيرة مجاورة، ثم أصبح معلماً لولدين لكاهن شجعه على الدراسة الجامعية، فالتحق بجامعة كامبريدج حيث درس مدة أربع سنوات كطالب يتلقى إعانة، وتخرج عام ١٨٠٦، وعين كاهناً في اسكس ثم في شروبشير،، وفي عام ١٨٠٩ نقل إلى وست رايدنج في يوركشير حيث تزوج ماريا برانويل عام ١٨١٢، وقد أنجب ابنتيه ماريا (١٨١٣) واليزابيث (١٨١٥) في هارستد، حيث كان راعي ابرشيتها، وبعد انتقاله إلى ثورنتن أنجب بقية أطفاله: برانويل (١٨١٧) وشارلوت (١٨١٦) وإميلي (١٨١٨) وآن (١٨٢٠) .

وفي هذه الفترة جرب باتريك حظه في الأدب، فطبع على نفقته مجموعتين شعريتين ''قصائد الكوخ'' (١٨١١) والمغني الريفي (١٨١٣) وقصة ''كوخ في الغابة'' (١٨١٥) وقصة ''عذراء كلارني'' (١٨١٨) ، ولكن إنتاجه الأدبي هذا لم يلق حظاً من التقدير أو الانتشار.

وفي عام ١٨٢١ توفيت زوجته بالسرطان، وكانت كبرى بناته ماريا في السابعة والصغرى آن لم تتخط عامها الأول، فجاءت أخت زوجته اليزابيث لتعتني بأطفاله الستة، وقد حاول باتريك الزواج أكثر من مرة ولكنه لم يلق القبول عند من اختارهن ، وكان رجلاً شحيحاً قاسياً تنتابه الوساوس، فقد كان يخاف الحريق، لذا منع وجود الستائر أو الأبسطة والسجاد في البيت، وهذا جعل أطفاله يرتجفون برداً في منطقة باردة رطبة، وكان يقضي معظم يومه في مكتبه، ويتناول طعامه منفرداً بعيداً عن أطفاله، مما سبب اغتراباً عند أطفاله عنه، كما سبب الوحشة في البيت الذي رحم الله سكانه بوجود الخالة اليزابيث فيه وخادمتين أخريين.

وفي عام ١٨٢٤ أرسلت البنات الأربع الكبار إلى مدرسة داخلية في ''كوان بردج'' في وستمورلاند، وهذه المدرسة مخصصة لتدريس بنات القسس، وكانت ذات نظام قاسٍ على البنات الصغيرات الضعيفات، وفي العام التالي عادت ماريا واليزابيث إلى منزلهما مريضتين بالسل وسرعان ما ماتتا، فأسرع والدهما إلى ''كوان ردج'' وأعاد شارلوت وإميلي إلى البيت.

وللإنصاف، فإن الأب باتريك قد شجع ابنه وبناته على القراءة، فقد كان يُحضر الصحف والمجلات إلى بيته ويتيح لهم قراءتها، وتدل رسالة من شارلوت إلى صديقة لها على خلفية ثقافية طيبة، فهي توصيها بقراءة سكوت وبايرون ووردروث وساذي وشكسبير وملتون وجولد سمث وبوب، كما أن شارلوت وأخاها برانويل كانا قد كتبا ـ وهما في العشرينات من عمريهما ـ رسائل إلى وردزورث وساذي

يطلبان فيها رأيهما في كتاباتهما المبكرة، لذا فالقول بأن الأخوات برونتي كن جاهلات وغير مثقفات بعيد جداً عن الصحة.

وفي السنوات الست اللاحقة بقي الأطفال الأربعة في بيتهم ''هاورث'' يتلقون التعليم على يد خالتهم ووالدهم، وفي هذه الفترة بدأت بواكير أعمالهم الأدبية بابتكار القصص، فقد حصل وأن أهدى الأب باتريك ولده برانويل اثني عشر جندياً خشبياً، فشرع الأطفال الأربعة في نسج القصص عن هؤلاء الجنود، وقد بدأ ذلك عام ١٨٢٦، فهم يتخيلون رحلة لهؤلاء الجنود إلى إفريقيا ، وتكوينهم دولة هناك يحكمها جندي منهم اسمه ''زامورنا'' فابتكرت شارولت وأخوها برنويل مملكة تدعى ''انجريا''، نسجا قصصاً عنها، بينما قررت إميلي وآن أن تكون مملكتهما تحت اسم ''جوندال''.

وفي عام ١٨٣١ التحقت شارلوت بمدرسة في روهر قرب هارتشيد بإدارة السيدة وولر، وكان على جانب من اللطف والتعقل، وهناك تعرفت شارلوت بماري تايلر والين نوسي، وقد احتفظت إلين بمئات الرسائل التي كتبتها إليها شارلوت، فكانت هذه الرسائل كنزاً للباحثين عن أخبار آل برونتي وتاريخهم، وقد عادت شارلوت بعد عام ونصف إلى بيتها لتعلم اختيها آن وإميلي، وبعد ثلاث سنوات عادت إلى مدرسة روهر لتُعلم فيها هذه المرة، وكانت آن وإميلي من بين تلاميذها لفترات قصيرة.

وبين الأعوام ٣٥ ـ ١٨٤٥ كانت الأخوات الثلاث يعملن في التعليم لكسب الرزق، وفكرن في تأسيس مدرسة لهن، ولكن شارلوت رأت أن عليهن زيادة حصيلتهن من اللغات أولاً، فاقترضت بعض المال من خالتها اليزابيث وارتحلت إلى بروكسل مع أختها إميلي، والتحقتا بمدرسة داخلية تديرها السيدة هيجر وزوجها السيد م. هيجر الذي علم الأختين بنفسه، ولكنهما كانتا طالبتين معلمتين، شارلوت كانت تعلم الإنجليزية ، وإميلي العزف على البيانو، ولكن وفاة خالتهن غير المتوقعة

عجلت في عودتهن إلى هاورث، وكان أخوهن برانويل وأختهما آن يعملان في التدريس، فبقيت إميلي عند الأب.

ويتلقى السيد برونتي رسالة من السيد هيجر ينصح فيها بعودة ابنته لإكمال تعليمها، وتلقت شارلوت رسالة عاطفية من السيدة هيجر لذات الغرض، فاتخذت شارلوت قراراً ندمت عليه لاحقاً، وعادت إلى المدرسة لتعلم فيها، وعلمت السيد هيجر نفسه وزوج شقيقته اللغة الإنجليزية.

وإثناء إقامتها هناك وقعت في حب السيد هيجر (٣٣ سنة) الذي وجدت فيه الرجل المناسب، وكان ذا شخصية قوية تسيطر على المدرسة، مهيباً جليلاً ورجلاً حقيقياً، ويبدو أن زوجته قد غارت عليه من وجود شارلوت، أو لاحظت تعلق شارلوت به ، لذا .. وعندما قدمت شارلوت استقالتها من عملها قبلتها السيدة هيجر على الفور، بل وودعتها وهي تركب القارب عائدة إلى بلادها في اليوم الأول من عام ١٨٤٤، ومن هناك كتبت شارلوت الرسائل إلى السيد هيجر، فرد في البداية ثم انقطع، وألحت عليه بالرسائل، ولكنه أمرها بأن تكتب مرة واحدة في العام، فانقطعت عن الكتابة نهائياً وفي عام ١٩١٣، وبعد وفاة زوج شارلوت بسبع سنوات أهدى الدكتور بول هيجر ـ ابن م. هيجر ـ هذه الرسائل للمتحف البريطاني.

أما برانويل برونتي الذي أظهر موهبة في الرسم والشعر وكان محط آمال الأسرة، فقد أفسدته أحلام اليقظة، وصدمه الفشل في عدة أعمال مارسها، فقد فشل في الرسم، كما لم يوفق في العمل ككاتب سكة حديد، ثم طرد بعد محاولة إقامة علاقة مع زوجة مستخدمه، فغرق في الشراب وتعاطى الأفيون، وغرق في الديون، وتعرض لمطاردة الشرطة، وساءت صحته وتوفي في ٢٤ أيلول ١٨٤٨.

أما آن فقد تركت بيت روبنسن حيث عملت معلمة بعد طرد أخيها الذي كان معلماً لأبناء روبنسن، وهكذا اجتمع الجميع عام ١٨٤٥ وقد فشلوا جميعاً في كل شيء.

وبعد أن عثرت شارلوت على مجموعة شعرية تخص أختها إميلي، أقنعت أختيها بإصدار مجموعة شعرية مشتركة تحت الأسماء كرر وإليس وآكتون بل، كرر كان اسم شارلوت، وإليس لإميلي، وآكتون لآن، وكلها أسماء ذكور وذلك لكي تتجنب الشاعرات الثلاث أي تعاطف أو سخرية من المعلقين والنقاد الذين كانوا يعاملون الكاتبات هذه المعاملة، وقد كلف هذا المجلد ٥٠ جنيهاً بجنيهات ذلك الزمن، وظهر عام ١٨٤٦، ورغم عدم حصول الديوان على أي اهتمام ـ سوى مراجعة بسيطة لشعر شارلوت ـ لم يبع منه سوى نسختين فقط، فقد فرحت الأخوات الثلاث برؤية شعرهن مطبوعاً، كما أرسلت شارلوت نسخاً منه إلى ووردزورث ولوكهارت ودي كونيزي وتينيسون، والأربعة من الأدباء المشاهير في ذلك الوقت، بعد ذلك شرعت كل منهن في عمل روائي مستقل.

١٢ـ شارلوت برونتي
(١٨١٦ ـ ١٨٥٥م)

١ـ شرعت شارلوت في كتابة رواية ''**الأستاذ**'' عام ١٨٤٦، وهي قصة تعكس بوضوح تجربتها مع م. هيجر في بروكسل، والقصة تروي بواقعية مؤلمة قصة اليتيم وليم كرمزورث المرفوض من قبل أعمامه الأثرياء وأخيه الشحيح، فيرتحل إلى بروكسل حيث يحصل على وظيفة معلم في مدرسة للذكور، ويدعى للتدريس في مدرسة بنات مجاورة تديرها ''مل زوريد'' آنسة دمثة إلا أنها مرائية، وهناك يتعرف بالطالبة المعلمة السويسرية فرانسيس هنري، ويحب كل منهما الآخر، وبالرغم من أن زوريد كانت مخطوبة إلا أنها تنجح في التفريق بين العاشقين لفترة قصيرة، ولكنهما سرعان ما يلتقيان ويتزوجان ويؤسسان مدرسة لهما ، ويؤمنان دخلاً طيباً ويعودان إلى إنجلترا مع ولدهما الجميل فكتور، ويعتبر النقاد ''الأستاذ'' بمثابة الرابط التاريخي بين الحكايات الوعظية للقرن التاسع عشر والحكايات البرجوازية للعصر الفكتوري مثل رواية ''سادة جون ها

ليفاكس'' لدينا كريك.ويتضح للقارئ مدى التشابه بين تجربة شارلوت في بروكسل، وبين قصة ''الأستاذ'' ، طالبة معلمة وهي شارلوت، وكرمزورث يدرس في مدرستين تماماً مثل هيجر، أما زوريد فهي زوجة هيجر التي غارت من شارلوت وفرحت لرحيلها، أما تأسيس المدرسة فقد كان حلماً يداعب الأخوات برونتي إلا أنه لم يتحقق.وبينما وجدت أختاها ناشراً لروايتيهما آنجر جري ومرتفعات وذرنج اللتين طبعتا في مجلد واحد ـ لم تجد شارلوت ناشراً لروايتها ''الأستاذ'' فلم تطبع إلا بعد وفاتها، ولكن رسالة مشجعة من ناشر دفعتها للشروع في روايتها ''جين إير''.

٢- **جين إير (١٨٤٧م)** قصة الفتاة التي تفقد أبويها وهي في الثانية من عمرها، فيتكفلها خالها الذي سرعان ما يلحق بوالديها، فتعيش عند زوجته التي تسيء معاملتها، ولكن الصيدلي ''لويد'' يتكفل برعايتها ويساعد في إدخالها مدرسة داخلية، وعندما تكبر تعلن في الصحف عن رغبتها في العمل كمربية، وتجد فرصتها في قصر ''ثورنفيلد'' الذي يملكه الثري روشستر وتديره السيدة فيرفاكس، أما عمل جين فكان رعاية الصغيرة أديلا.وفي البداية يعامل روشستر جين بتحفظ وخشونة، ثم يتحول إلى معاملتها برقة ودماثة، ويكثر من أسئلته الدقيقة واستجواباته عن ماضيها، فتجيبه بصراحة وذكاء، وتحولت هذه الاستجوابات إلى جلسات مسائية لا تخلو من الانسجام بينهما، خلال ذلك يحصل أن تسمع جين أصوات صرخات مرعبة في القصر، فتحاول فيرفاكس إقناعها بأنها صرخات خادمة ريفية اسمها ''جريس بول'' إلا أنها لا تؤذي أحداً، فتصدقها جين. وتزور القصر نبيلة حسناء تدعى ''بلانش جرام'' مع عدد من الضيوف، وتنمو الأخبار إلى جين أن روشستر سيعلن خطوبته عليها، فطار صواب جين، وأخذت تفكر في البحث عن وظيفة أخرى، إلا أن روشستر كان يبدي أنه سيرتبط حياته بها لولا زلة ارتكبها في السابق تعيق ذلك.وتعود

''جريس بول'' للظهور ذات ليلة، وتعض أحد الضيوف ويدعى ''مسيون'' الذي رحل في اليوم التالي عن القصر بدون أن يعلم أحد بهوية المعتدي عليه، ويحاول روشستر تغطية الحادث بادعائه أن ما حصل من أصوات في تلك الليلة لم يكن إلا كابوساً أصاب أحد الخدم، وعندما يبدأ القصر بالاستعداد لزفاف روشستر وجين تظهر الحقيقة: إن جريس بول ليست إلا زوجة روشستر، مما أدى إلى هروب جين إلى لا مكان، وينقذها شاب تقي في إحدى القرى ويحاول هو الآخر الزواج منها، وعندما تعود إلى قصر ثورنفيلد تجده أطلالاً دوارس بسبب حريق أتى عليه وعلى جريس بول، وتجد سيدها وقد فقد بصره من الحريق فتتزوجه وتعيش سعيدة معه في القصر.هذه هي قصة جين إير بلا زخرفة ولا تزويق ولا مبالغة، قصة انتصار الحب والإرادة رغم ضعف جين وفقرها فتصل إلى ما تحلم به كل فتاة مثلما نسمع به في الأقاصيص القديمة من زواج الفتاة الفقيرة بطلة القصة (سندريلا مثلاً) بأمير أو سلطان، إنه انتصار جاء بعد جهد وكد تثبت فيه جين المنتصرة صدقها وأمانتها بقبولها الزواج من أعمى مشوّه.وقد لقيت جين إير نجاحاً ساحقاً، وأعجب بها النقاد أيما إعجاب فقرأها الروائي وليم ثاكري وامتدحها، وقد أهدت شارلوت الطبعة الثانية له، وأثنى عليها الأديب ج. هـ. لويس، كما قرأتها الملكة فكتوريا ووصفتها بأنها ممتعة جداً، وانهالت مراجعات النقاد لها في الصحف والمجلات، وتوالت طبعاتها في حياة صاحبتها .

٣- **شيرلي (١٨٤٩م):** حققت هذه الرواية امتيازاً مختلفاً، فهي إحدى أول روايتين عظيمتين إقليميتين، وإحدى أعظم روايتين تعنيان بقضايا الصناعة في الأدب الإنجليزي، وتشارك بذلك الشرف رواية السيدة جاسكل ''ماري بارتون'' التي كتبت مع شيرلي في وقت واحد تقريباً.أما موضوع شيرلي فهو ثورة صانعي الملابس ضد تجهيزات صناعة القماش وما يتبع ذلك من أحداث في منطقة

لوديت، ويبدو المحيط والعقدة مألوفين في ''شيرلي'' مثلما عند ''جين أوستن''، إذ تقسم شارلوت الحب هنا بين أربعة ـ كل زوج على حدة ـ مجتمع يوركشير خلال أحداث منطقة لوديت وإضراباتها، وتتضح قوة شارلوت في الاهتمامات المألوفة للأبرشية الريفية، ولكن واقعيتها السطحية ـ مثل السخرية من مساعدي الخوري ـ قد اكتسبت على حساب العمق العاطفي والنفسي الذي نجده في روايتيها ''قلت'' و''جين إير''.

٤- **فيلت** ١٨٥٢: وهي ذات علاقة كبيرة بذكرياتها في بروكسل، وهي سيرة ذاتية لفتاة يتيمة تدعى ''لوسي ستو''، تحاول بمشقة شق طريقها كمعلمة في مدينة فلت، حيث ترتبط بعلاقة حب مع المعلم بول أمانويل، وأثناء غيابه عن المدرسة في العطلات تعاني لوسي ـ الوحدة ـ هذه الوحدة التي عانتها شارلوت بعيداً عن هيجر ـ وعندما يحاول بول الزواج من لوسي، تقف السيدة بيك ـ التي كانت لوسي معلمة أولادها ـ في طريقهما مثيرة الفوارق الدينية بينهما، وعندما لم تجد ذلك كافياً، تبعد بول إلى مدينة كوادلوب لحضور بعض شؤون العائلة، وقبل أن يذهب يؤسس مدرسة صغيرة تديرها لوسي ويعدها بالعودة خلال ثلاث سنوات، ولكن عاصفة تحطم سفينته وآمال لوسي أيضاً.وقد استقبلت رواية فيلت بالتهليل والترحيب من قبل الجمهور، وعدها بعض النقاد أفضل أعمالها.

٥- **إيما:** مشروع رواية لم تتم، وهذا آخر عمل أدبي كتبته شارلوت، وقد نشر في مجلة كونهيل في نيسان عام ١٨٦٠ مع مقدمة الروائي وليم ثاكري.

٦- **إنتاجها الشعري:** إن من يقرأ المقدمات النثرية لقصائد شارلوت، يدرك أنها كانت تعبر شعرياً بطبيعتها عندما تكتب نثراً فقط، أما قصائدها فتقسم إلى قسمين:

القسم الأول: هو قصائد ''**انجريا**'' التي نظمتها في رحلة مبكرة، وهي من أبطال انجريا وأوضاعهم، وشعرها فيها شعر روائي تغلب عليه العناية بالأحداث أكثر من القوة الغنائية، مثل قصيدة: زامورنا.

أما القسم الثاني: فهو عن تجاربها الشخصية، وتشعر بشيء من الامتنان للسيد م. هيجر الذي أثار فيها عواطفها وأخرجها عن صمتها، فنظمت عن تجاربها الشخصية أفضل قصائدها مثل: مناجاة الأستاذ، لقد رأى محنة قلبي.

وفي عام ١٨٥٤ تقدم آرثر نيكولاس ـ مساعد أبيها ـ طالباً يد شارلوت ـ رغم أنه كان قد رُفض من قبل ـ وكان هذا رابع شخص يتقدم إليها، وتم الزواج في ٢٩ حزيران، وارتحل بها زوجها إلى بلاده إيرلندا لقضاء شهر العسل، وكان زواجاً سعيداً كما وصفته شارلوت في رسائلها، رغم أن زوجها لم يكن ليقارن بها موهبة وإبداعاً.

وفي شهر تشرين الثاني من العام ذاته، وبينما كان الزوجان في مشوار على الأقدام في البراري هطل المطر بغزارة، واضطرا للسير مسافة ثلاثة أميال تحت المطر عائدين إلى البيت، فأصيبت شارلوت بالبرد ومرضت، وفي الشهر الأول من عام ١٨٥٥ بدت عليها أعراض الحمل وأمراضه مصحوباً بالسل الرئوي العدو القديم لآل برونتي، واستدعى لها زوجها الطبيب ''مك تورك'' كبير أطباء المنطقة الذي صرح بأن مرضها قد يطول ولكنه ليس خطيراً، ولكنها توفيت ليلة السبت ٣١ آذار عام ١٨٥٥.

وبقي زوجها مع أبيها مدة ست سنوات زار خلالها الكثيرون من الناس بيت آل برونتي ، يدفعهم إلى ذلك الإعجاب بالكاتبات الثلاث ، والفضول لكشف الغموض الذي أحاط بحياتهن ـ وبالذات شارلوت ـ ونظراً لازدياد هؤلاء الزوار اقترح بعض الأصدقاء على السيد برونتي أن يضع حداً لفضول الزائرين ـ الذين بدأوا ينسجون الأساطير عن حياة شارلوت ـ بأن يعهد لأديب بوضع كتاب عن شارلوت يسرد حياتها بتفاصيلها، ووقع الاختيار على الروائية اليزابيث جاسكل

صديقة شارلوت في آخر خمس سنوات من حياتها، فألفت كتاباً مميزاً باسم ‘‘حياة شارلوت برونتي‘‘ وصدر عام ١٨٥٧، إلا أن نجاح الكتاب ونجاح مؤلفات الأخوات برونتي قد زاد من أعداد الزوار إلى أطلال آل برونتي.

وبقي نيكولاس مع الأب برونتي حتى وفاة الأب برونتي في السابع من حزيران ١٨٦١، ثم عاد إلى بلاده إيرلندا.

من شعر شارلوت برونتي

الغروب[1]

جلست تحت شجرة ظليلة
ومن خلالها، مضى بريق رائع
أشعة شمس ترتحل
ترسل نورها في لمعانه الذهبي
وبين أغصانها الخضراء الظليلة
برق لون قرمزي
زخرف زمردي جميل
مثل لمعان زمردة
كان المشهد ساكناً هادئاً
والصوت يلف المكان
إلا موسيقى جدول هامس
وصوته الناعم
كان الوادي الظليل حيث جلست
تملأه موسيقى مع العندليب

(1)The Pofessor + selection of poetry by the Bronties 1954 p. 389

والنسيم العليل يئن

وأخيراً انتشر غطاء الشفق

على الأرض التي بدأت تظلم

وظلت أصوات الحزن والطرب

ساكنة مسالمة

وأطلت النجوم الصغيرة بصمت

من السماء الزرقاء الصافية

بينما كان طوق الجوزاء الذهبي

يلمع في بهاء في الأعالي

٨ تشرين ثان ١٨٢٩

١٣ـ إميلي برونتي
(١٨١٨ ـ ١٨٤٨ م)

ولدت الروائية الشاعرة إميلي برونتي في ٣٠ تموز ١٨٦٨، وكانت وسطاً بين أختيها الأديبتين، فهي أصغر بسنتين من شارلوت وأكبر بسنة ونصف من آن ، وقد ولدت مثلهما في تورنتن في يوركشير، وأمضت طفولتها ،بقية حياتها في هاورث.

وقد سردنا في الحديث عن أسرتها تفاصيل حياتها حتى عام ١٨٤٥ حين شرعت إميلي في كتابة روايتها الوحيدة التي خلدت اسمها في عالم الأدب ورفعتها إلى مصاف أعلام الأدب العالمي شرقاً وغرباً إنها ''**مرتفعات وذرنج**''.

والقصة باختصار: يزور السيد ''لوكوود'' الساكن الجديد في ضيعة ''جرانج'' جاره السيد هيثكلف الذي يستقبله بخشونة حتى أنه لا يهب لنجدته عندما تهاجمه كلابه، ويلاحظ لوكوود خلال حديثه مع مضيفه أن هيثكلف لا يطلعه على كل شيء، وأن هناك أسراراً تقوم عليها ''المرتفعات''، وعندما عاد إلى بيته طلب من خادمته السيدة ''دين'' وهي التي عاشت في المرتفعات اثني عشر عاماً، أن تقص عليه أخبار ساكنيها، فترويها له:

يعود السيد ايرنشو ـ مالك المرتفعات ـ ذات ليلة من سفر بعيد ومعه طفل لقيط هو هيثكلف، فيغار منه ولده هندلي، ويعامله معاملة سيئة، في حين تحبه أخته ''كاثرين''، ولما مات ايرنشو أصبح هندلي هو السيد الآمر، فيستمر في معاملة هيثكلف تلك المعاملة التي تقارب معاملة الأسياد للعبيد، وبينما يكون هيثكلف وكاثرين يلعبان في البراري، يصلان إلى أملاك السيد ''لينتون'' ويلتقيان بادجار وإيزابيلا اللذين يحبان كاثرين ويتجنبان صديقها، ويتطور ميل أدجار إلى كاثرين إلى الحب، فيخطبها من أخيها الذي زوجها له عنوة، وأمام هذا الواقع لا يجد هيثكلف محيصاً عن الرحيل، فيغيب ثلاث سنوات يعود بعدها رجلاً قوياً ثرياً واثقاً بنفسه،

ولحسن حظه تموت زوجة هندلي التي كانت قد أنجبت له هيرتون، ومن فرط حزنه عليها، يغرق هندلي نفسه في الخمر والقمار، فيلاعبه هيثكلف الورق ويتغلب عليه حتى يكسب منه أموال أبيه وأملاكه، ولما مات هندلي أصبح هيثكلف مالك كل شيء، المرتفعات وكل ما فيها.

وبقي هيثكلف على حبه لكاثرين، ويحاول دائماً لقاءها وهو يعلم أن ذلك يغيظ زوجها المهمل من قبلها، بل ويذهب هيثكلف بعيداً وينصب شباكه لإيزابيلا فتقع فيها، وتتعلق به رغم اعتراض أخيها، وهو لا يفعل هذا كله إلا من أجل الانتقام، فتهرب إيزابيلا إلى منزله وتتزوجه، فيعاملها معاملة الخدم.

وتمرض كاثرين وهي في المخاض، وتموت بعد ساعتين من إنجابها بنتاً سميت "كاثرين" أيضاً، ويحصل أن تهرب إيزابيلا من منزل زوجها، وبعد عشر سنوات ترسل لأخيها ادجار لتخبره أنها على فراش الموت، ولما زارها ادجار ماتت بين يديه، فيعود إلى المرتفعات ومعه ابنها لينتون، ولما علم هيثكلف بحضور ولده ضمه إليه بالقوة، ويأخذ في محاولة عقد علاقة بين ولده وكاثرين الصغيرة ابنة حبيبته، ويتم له ما يريد، وذات يوم يستدرج كاثرين إلى منزله ـ وهي في الرابعة عشرة ـ ويعقد قرانها على ولده لكي يغيظ والدها ادجار الذي يموت بعد ذلك بشهور، ولا يلبث أن يدركه ولد هيثكلف.

ولما زار لوكوود منزل هيثكلف بعد غياب، وجد أن هيثكلف قد مات، إثناء تجواله في الغابات مناجياً كاثرين باحثاً عن روحها، فتخلو الأجواء لكاثرين وابن خالها هيرتون ابن هندلي، فيتزوجان، وتعود السيدة دين للإشراف على المنزل الذي تعود إليه السعادة والحب بعد حرمان طويل.

لا شك أن رواية إميلي "**مرتفعات وذرنج**" تفوق أي رواية أخرى لأختيها، فهي تدل على معرفة عميقة بأسرار الحياة وخفاياها حتى لتكاد تقول أن كاتبتها كهلة في الستين ، وقد تمرست بحلو الحياة ومرها، ونكاد نضيف أن صاحبتها قد أنتجت

دزينة من الروايات قبل هذه فتمرست بأصول الفن الروائي، فتعمقت تجربتها، ونضجت مهاراتها، لتكون هذه الرواية قمة أعمالها.

ولكن ماذا نقول إذا كانت كاتبتها قد كتبتها ولما تبلغ التاسعة والعشرين من العمر، ولم تكتب أية رواية قبلها ؟، نقول مع الناقد ''جيوفري مور'' : ''ونحن حين نتساءل من أين لهذه الفتاة الغرة كل هذه المعرفة العميقة في الحياة، بحيث توحي لها بكتابة هذه الرواية الرائعة، نجد أنفسنا أمام جواب واحد، ألا أنه قلبها الشاعري، فالخبرة ليست ضرورية عندما يكون القلب حساساً عميق الإدراك''.

نعم إنه القلب الشاعري، نضيف إليه عناد صاحبته وقوة شخصيتها.

لقد كانت إميلي كثيرة الصمت، عنيدة، متحفظة ومنطوية، قد انعكست شكواها العامة من الحياة على أبطال قصتها ـ ومنهم هيثكلف ـ فقد عانت طوال حياتها من الفراغ العاطفي، إذ لم تستطع منح أو تلقي الحب، وربما كان كبرياؤها وراء ذلك، فجاءت روايتها لا توصف، مثل صاحبتها.

إنتاجها الشعري: لا شك أن إميلي كشاعرة قد تجاوزت أختيها، وإذا كان شعرها ـ وكذلك روايتها ـ لم يلقيا النجاح والاهتمام اللائق خلال حياتها، فقد لقيتا الاعتبار والاهتمام البالغين لاحقاً، ووضع أدبها في مكانه الصحيح بين أنبل ما أنتج في الأدب الإنجليزي.

هناك عنصران في شعر إميلي يشكل اندماجهما الخاصية الشخصية لشعرها، الأول منهما محلي، وهو وصفها للطبيعة المحيطة بها وتصويرها لها بأثر عاطفي عميق، أما العنصر الثاني فهو عالمي وهو في تعاملها مع القضايا الإنسانية الكبيرة كالصوفية والشجاعة والحنو والشفقة، مما يصلح أن نسميه في هذه الأيام بالالتزام بما في العالم من قضايا.

ويظهر في أسلوبها تأثرها بالشاعر وولتر سكوت وبالأغاني الشعبية.

مرضها ووفاتها: توفي أخوها برانويل بالسل في الرابع والعشرين من أيلول عام ١٨٤٨، فحزن والده عليه حزناً شديداً وكذلك أخواته اللائي سامحنه بذنوبه، وأصيبت إميلي بالبرد أثناء تشييع جنازته، وتحول هذا البرد إلى التهاب في الرئة، وهناك شكوك فيما إذا كان لديها رغبة في العيش، فقد رفضت مراجعة الأطباء أو تناول أي دواء، بل وأبدت الامتعاض من أي شخص يظهر شفقة عليها، واستمرت في أعمالها البيتية رافضة الخلود إلى الراحة، وتوفيت في التاسع عشر من كانون أول عام ١٨٤٨.

ترى هل كان سبب استسلام إميلي للمرض ورغبتها في الموت حزنها على أخيها؟ أم عدم نجاح ''مرتفعات وذرنج'' التي حققت نجاحاً كبيراً فيما بعد، لقد قالت أختها شارلوت: ''كم قلل من فرحي بنجاح أعمالي رؤيتي أختي إميلي لا تبدي أي حزن على فشل روايتها''.

من شعر إميلي برونتي

ريح الليل (1)

في منتصف ليلة صيفية رقيقة
كان القمر يشرق صافياً
من خلال نافذة ردهتنا
وأشجار الورد رطبة بالندى
جلست صامتة متأملة
والهواء العليل يعبث بشعري
فأخبرني أن السماء مجيدة
وأن الأرض النائمة عادلة

(1) Norton Anthology . page 1320.

لم أكن بحاجة إلى أنفاسه
ليجلب لي تلك الأفكار
ولكنه همس لي
كم ستكون الغابة مظلمة
الأوراق السميكة في همسها
تحف مثل حلم
وكل الأصوات الكثيرة
بدت لي مفعمة بالحيوية
فقلت: اذهب أيها الغني الطيب
صوتك الودود لطيف
ولكن لا تظن أن موسيقاك
لها القوة لتصل إلى عقلي
ألعب مع الزهرة المعطرة
وغصن الشجرة الصغيرة الطري
وأترك مشاعري الإنسانية
في مجراها تسير
لكن المتجول لم يدعني
لقد أصبحت قبلته أكثر دفئاً
''تعالي'' تنهد بكل عذوبة
سوف أغنمك رغم إرادتك
ألم نكن أصدقاء منذ طفولتنا
ألم أحبك منذ زمن بعيد
منذ أن أحببت الليل

الذي صمته أيقظ أغنيتي
ولما استسلم قلبي للراحة
تحت حجر فناء الكنيسة
سيكون لدي وقت كاف للندب
وأنت تبقى وحدك

عام ١٨٥٠

******

١٤- آن برونتي
(١٨٢٠ ـ ١٨٤٩م)

ولدت آن برونتي في السابع عشر من كانون الثاني عام ١٨٢٠، ويعدها النقاد أقل من أختيها موهبة واهتماماً من قبل النقاد والدارسين، ولكنها كانت أكثرهن دماثة وسهولة خلق، وكأختيها فقد تلقت تعليماً بسيطاً لعدة شهور في مدرسة السيدة وولر في روهو عام ١٨٣٥، وفي عام ١٨٣٩ عملت مربية في بيت الجهام، ثم في بيت روبنسن ما بين ٤١ ـ ١٨٤٥، وبعد اكتشاف أمر أخيها برانويل استقالت وعادت إلى بيتها لتتفرغ للكتابة، وفيما يلي نستعرض أعمالها بشيء من الإيجاز.

١- **أجنس جري:** وهي روايتها الأولى، وقد كتبت في الشتاء ما بين عامي ٤٥ ـ ١٨٤٦، بينما كانت أختها شاروت تكتب رواية ''الأستاذ'' وإميلي تكتب رواية ''مرتفعات وذرنج''، أما روايتها فهي بعيدة عن الزخرفة في الوصف، فهي تتحدث عن أجنس الابنة الصغرى لقسيس تعمل مربية في منزلين، في الأول تعمل مع محدثي نعمة لهم أولاد مشاغبون يحاولون دائماً إزعاج المربية، وفي الثاني تعمل مع أناس أرستقراطيين غير متعلمين، وعليها أن تكافح ضد فتاة مغناج غلامية،

وعندما تلتقي بشاب يعمل مساعداً للقسيس وتحبه، تتدخل هذه الفتاة وتفرق بينهما، ولكنها في النهاية تلتقي برجل دين آخر وتتزوجه.هـذه الأحداث ترويها آن بأسلوب واقعي مع ملاحظة تصرفات تلك المربية وبالذات بالنسبة للأطفال، وكل الأحداث تـروى بأسـلوب المتحـدث الأول ببساطة واختصار في فصول معنونة مثل: الكنيسة، سكان الكوخ، وابل من المطر... الخ.وواضح أن آن متـأثـرة في هـذه الروايـة ببيئتهـا الخاصة، وربما تحدثت عن نفسها في معظم فصول الرواية.

٢- **ساكن وايلدفيل هول**: كتبت هذه الرواية لتظهر شرور تعاطي الخمور، مستوية ذلك من انغماس أخيها برانويل في تعاطيها، فهي تصف بدقة السكير آرثر هنتنجتن وصفاً يحمل الإدانة، وضحية هـذا كلـه زوجتـه هيلين التي تصف في مفكرتها زواجها البائس، ولكنها أخـيراً تفـر مـع ابنها.

٣- **شعرها:** لم تكـن آن شـاعرة كـبيرة، فأفكارهـا تنقـصها سـعة الأفـق والوضوح، وألفاظها تفتقر إلى الحيوية، ولكن أفكارها وألفاظها تتسم بالتلازم والدقة والاعتدال وإن كان يشوبها العناد، مثل مطـر خفيـف متواصل، فألفاظها تعبر عن شعور مكبوت، وثبـات في الغـرض، أمـا خيالها فهو محدود بخبراتها، فقد كان طموحها الأدبي الرغبة في توظيف هذه الخبرات لهدف مواعظي، فقالـت: ''إن مـواهبي المتواضـعة الـتي منحني الله سوف أسعى لجعلها ذات فائدة عظيمة''.وعلى عكس أختها إميلي، فقصائدها عن ''جوندال'' بسيطة عادية، ولكن تلك القصائد التي نظمتها عن تجاربها الشخصية تلفت الانتباه، ومن ذلك أشـعارها الحزينة في رثاء حبيبها السيد ويتمان (الذي عين مساعداً لوالدها عـام ١٨٤٠، وقد مات بالسل عام ١٨٤٢) ويـشوب قـصائدها اسـتغراق

ديني، ولما كان الاكتئاب عميقاً في كل آل برونتي، فهو في آن يأخذ الطابع الديني.لم تقم آن بأية رحلات بعيدة سوى سفرها مع إميلي إلى يورك، وسفر آخر مع أختيها إلى لندن لتثبت للناشرين أن كرر واليس وآكتن بل ليسوا شخصاً واحداً، أما عملها كمربية فلم يكن بعيداً سوى عدة أميال عن بيتها.ويبدو أن نوع السل الذي أصيبت به آن كان قديم العهد، فقد قلقت أختها شارلوت على صحة آن منذ طفولتها (بل وتشاجرت مع السيدة وولر مديرة المدرسة الداخلية التي كانتا فيها قلقاً على أختها) فطبيعتها الهادئة وشعرها الغزير وعيناها البنفسجيتان اللامعتان أثارت الشكوك بإصابتها بالسل منذ طفولتها، وبدا عليها الضعف بعد وفاة إميلي في كانون الأول عام ١٨٤٨، وماتت بعيداً عن بيتها، فقد أصرت على أن تؤخذ إلى مكاربورو من أجل الهواء البحري هناك، فعاشت يومين فقط بعد وصولها مع أختها شارلوت، وكانت وفاتها في ٢٨ أيار عام ١٨٤٩.

من شعر آن برونتي

الوطن[1]

متلألئة لامعة تحت الشمس

تتلاعب شجرة اللبلاب

بينما خشب الزان من لحائها

يعكس الأشعة الفضية

تمسح الشمس المنظر الجميل

بابتسامات السماء الرفيقة

ويتنهد ريح الشتاء

(1) Norton Anthology . page 1320.

بوحشية بين الأشجار اللامعدودة
وترعد الدنيا بقوة فوق رأسي
ثم يموت الرعد بعيداً
ولكنه يعيد لي تلالي القاحلة
حيث يهب النسيم البارد
حيث تناثرت الأشجار الصغيرة النادرة
وبإمكانها أن تعطي جواباً مزهواً
وحيث المرج البري
يعيد الصوت بالطريقة نفسها
حيث الحديقة البعيدة جميلة عريضة
بكرومها وطرقها الطويلة المتعرجة الخضراء
تزين الحدود
والمروج المخملية وسطها
أعد لي تلك البقعة الصغيرة
بجدرانها الرمادية التي تطوق المكان
حيث يجثم العشب الملتف المهمل
والأعشاب الضارة تحتل الأرض
ورغم ما يحيط ذلك المنزل العالي
الذي يدعو القدم إلى التجوال
ورغم جدرانه الجميلة
آه ، أعد لي وطني

٢٠ أيار ١٨٤٥

١٥ـ ماثيو أرنولد
(١٨٢٢ـ ١٨٨٨م)

ولد الشاعر والناقد الإنجليزي ماثيو أرنولد في ٢٤ كانون أول عام ١٨٢٢ في ليلهام على نهر التايمز، أي بعد عشرة أعوام من ميلاد الشاعر براوننج، وبعد ثلاثة عشر عاماً من ميلاد الشاعر تنيسون، أما والده فهو المؤرخ توماس أرنولد مدير مدرسة رجبي، والذي حصل على الدكتوراه عام ١٨٢٨، وكان له تسعة أولاد أكبرهم ماثيو، أما والدته فهي ماري بروز وهي على جانب جيد من الثقافة، وكان ولدها ماثيو يحاورها ويشرح لها أفكاره وآراءه في رسائله إليها، مما يدل على إدراكها لنواحي ثقافة العصر.

تلقى ماثيو علومه الأولى في ''رجبي''، ثم أرسل وهو في الثالثة عشرة إلى ونشستر حيث قضى عاماً، ثم أعاده والده إلى مدرسة رجبي ليكون تحت إشرافه، وفي هذه المدينة حصل على جائزة في الشعر، وفي عام ١٨٤١، التحق بجامعة أكسفورد وقضى فيها ثلاث سنوات أثبت فيها وجوده كشاعر لا كطالب، وحصل فيها على جائزة عن قصيدته ''كرومويل'' وقد وصف أخوه الأصغر حياة أخيه في أكسفورد في كتابه ''دروب في حياة التجوال'' ، فقال :

'' في تلك الأعوام، كان أخي يرعى موهبته الشعرية بحرص وعناية، ولكن طبيعته المرحة المتحمسة تطلبت إرضاء أكثر، فأسلوبه المازح في الحديث مع الآخرين جعله قريباً من الوصف ـ الأسد الاجتماعي ـ بين رجال أكسفورد، وكان يعتني بهندامه وأناقته''.

وتخرج ماثيو بمرتبة الشرف الثانية عام ١٨٤٤، وانتخب عضواً في جمعية أوريل عام ١٨٤٥.

ويكتنف الغموض الفترة التالية من حياته، فلا نكاد نعلم فيها سوى ولاءه لفرنسا وزيارته باريس والتقاءه بالروائية جورج ساند، ولكن يبدو من قصائده التي كتبها إلى المجهولة مارغريت، ومن رسائله إلى صديقه الحميم هيوج كلاف أن ولاءه لفرنسا كان قد نما برابط عقلي غير قوي.

ويعود إلى مدرسة ''رجبي'' ليدرس الأدب المدرسي، وليبدأ علاقته بالتربية، هذه العلاقة التي استمرت حتى عام ١٨٨٦، أي قبل وفاته بعامين وفي عام ١٨٤٧، أصبح سكرتيراً للورد لانزداون الذي لعب دوراً مهماً في تاريخ بريطانيا، وقد أتاحت هذه العلاقة لماثيو أرنولد الفرصة للتعرف بمناهج التربية الوطنية، وقد شجعه لانزداون وأخذ بيده، وقد كان مشجعاً للأدباء الشباب محباً لهم.

وفي عام ١٨٥١ ـ أي وهو في التاسعة والعشرين ـ عينه لانزداون مفتشاً للمدارس، فبقي في وظيفته هذه خمسة وثلاثين عاماً حتى تقاعده، وقد كان محباً لعمله هذا، مقبلاً عليه، غير عابئ بمردوده المالي القليل غير مكترث لكثرة التنقل في الطقس المتقلب إلى أماكن كثيرة، فقد كان التعليم يسري في دمه، وكان محباً للأطفال عطوفاً عليهم، هذا إلى جانب دراسته لعلم التربية وتبحره فيه، فاجتمعت له عوامل المعلم والموجه الناجح، وفي نفس السنة تزوج فرانسيس لويس ويتمان ابنة السير وليم ويتمان قاضي منطقة كوينز بيتش.

ويمكن تقسيم حياة أرنولد الأدبية إلى عقود، ففي عام ١٨٤٩، ـ بغض النظر عن الجائزتين المذكورتين سابقاً ـ انتج مجموعته الشعرية ''**المعربد الضال وقصائد أخرى**'' فلقيت اهتماماً ضئيلاً رغم احتوائها على قصيدته ''**الغرانق المنبوذ**''[1] والتي تعد أصفى قصائده، ثم أتبعها مجموعته ''**امبيدوكليس**'' فلقيت نفس المصير.

---

(١) الغرانق: مخلوق بحري خرافي له جسد رجل وذيل سمكة.

أما أعماله النقدية فقد بدأت بمقدمته لمجموعته ''**قصائد**'' عام ١٨٥٣، والتي اشتملت على قصائد من مجموعات أقدم، ومن هذه القصائد ''**سهراب ورستم**'' و''**الطالب الغجري**'' ولكنه حذف قصيدة ''**أمبيدوكليس**''، وواضح في هذه المجموعة تأثره بالشاعر الألماني جوته، والشاعر الإنجليزي ووردزورث (١٧٧٠ م - ١٨٥٠م) الذي كان صديقاً لعائلته، واحتفظ أرنولد بإعجابه به طوال حياته، فكتب بعد وفاته ''**قصائد تذكارية إلى ووردزورث**'' عام ١٨٥٠ ، ومقالاً تحت عنوان ''ووردزورث''، كما أصدر مجموعته الشعرية الثانية عام ١٨٥٥ بعنوان ''**قصائد السلسلة الثانية**''.

أما عمله النقدي محترفاً، فقد بدأه بعد تعيينه أستاذاً للشعر في جامعة أكسفورد عام ١٨٥٧، واستمر في عمله هذا حتى عام ١٨٦٧، وقد كان هذا التعيين خير اعتراف بعلمه وفضله، فاستغل منصبه الجديد كمنبر لتطوير مذهبه، ولممارسة أوسع لمفهومه للنقد، وخلال تلك الأعوام كتب مأساته ''**ميروب**'' عام ١٨٥٨، وفي عام ١٨٦١ ظهر له ''**ترجمة هومر**'' اتبعها عام ١٨٦٢ بكتابه ''**الكلمات الأخيرة في ترجمة هومر**'' وكلا الكتابين متميز في أسلوبه وغني في مادته، وأن أخذ عليه أحياناً افتراضات اعتباطية يخرج بها إلى نتائج ونهايات واهية الأساس.

وظهر له مجموعة شعرية أخرى عام ١٨٦٧ بعنوان ''**قصائد جديدة**'' بعد ذلك ظهرت طبعات من أشعاره القديمة ، ولم يكتب منذ هذا التاريخ إلا القليل من الشعر حتى وفاته.

وإذا كان النقاد يعدون أرنولد أحد الشعراء الفيكتوريين العظام، ويضعونه إلى جانب براوننج وتينيسون، فقد كتب أرنولد يوماً إلى أمه يقول عن شعره :

''إن قصائدي إجمالاً تقدم حركة العقل في الربع الأخير من القرن، لذا سوف تصل قصائدي إلى وقتها حين يبدأ الناس يعون ويفهمون حركة العقل، ويهتمون

بالأدب الذي يعكس ذلك، وقد يكون هناك جدل أني أقل في العاطفة الشعرية من تينيسون، وأقل من قوة براونتج العقلية وغزارته، لأني أقوى من الاثنين معاً في الدمج بين هاتين الخصلتين''.

وترسله حكومته عدة مرات إلى البلدان المجاورة مثل فرنسا وألمانيا وهولندا وسويسرا كمندوب عنها لدراسة أحوال التعليم ومستوياته في هذه الدول، فيكتب عدة كتب في هذا المجال منها ''التعليم الشعبي في فرنسا وملاحظات عليه في سويسرا وهولندا'' عام ١٨٦٠، و''التعليم الثانوي في البلاد الأجنبية'' عام ١٨٦٦.

النقد: خلال عمله محاضراً جامعياً صدر كتابه المهم ''**مقالات في النقد**'' عام ١٨٦٧، وفيه يعرف النقد على أنه ''مسعى محايد لتعليم وزيادة أفضل ما هو معروف من فكر، ومسؤولية الناقد هي تأسيس نظام للأفكار كوسيلة بناء طريق نحو جهد مثمر خلاق '' ، وفي هذا الكتاب يستعمل كلمة ''فلسطيني''[1] لأول مرة، وأخذ يستعملها في كل كتاباته، فقسم الناس إلى مثقفين، وهم القادرون على تقبل الأفكار الجديدة والقيم العقلية السامية، والفلسطينيين الذين يعادون ذلك ويتمسكون بكل ما هو قديم من عادات وتقاليد أكل عليها الزمان وأصبحت بحاجة إلى تطوير وتحسين.

وفي هذا الكتاب يتحدث عن الشاعر الألماني ''هايني'' ويعده أعظم شاعر خلف ''جوته'' وسار على نهجه، ويرى الشاعرين قد سارا على درب تحرير الشعب الألماني من العادات والتقاليد الموروثة التي لا تلائم الحياة الحديثة، ويغلب على هذا الكتاب النقد الاجتماعي، ويتضح فيه تأثير الناقد الفرنسي سانت بوف شكلاً ومضموناً، وهو لا ينكر هذا التأثير، فقد ذكر ذات مرة أسماء أربعة أثروا في تشكيل

(١) الكلمة التي استعملها أرنولد هي **Philistine**، ومعناها: شخص مادي النزعة، أو محافظ متعلق بكل ما هو قديم، ولا علاقة لما يقصده أرنولد بكلمة **Palestinian** بمعناها المعروف المعاصر.

فكره: سانت بوف، جوته، ووردزورث، ونيومان، أما في بناء شخصيته فيظهر التأثير الحاسم لشخصية والده القوية.

وفي عام ١٨٦٨ صدر كتابه ''**مقالات في دراسة الأدب السلتي**'' وهو رحلات وهمية ممتعة إلى عوالم من فقه اللغة والأنثروبولجيا (تاريخ الجنس البشري) ويتضح في ذلك تأثير الفيلسوف الفرنسي ''رينان''.

وبعد هذا الكتاب ينصرف أرنولد إلى النقد الاجتماعي والديني والسياسي، فصدر له عام ١٨٦٩ ''**الثقافة والفوضى**'' الذي كرر فيه عبارات وشعارات ارتبطت باسمه مثل ''الجمال والنور'' وهو مأخوذ من سويفت أو أن سويفت سبقه إليه، وكلمة ''فلسطيني'' التي ذكرناها آنفاً، وفيه يعرف الثقافة بأنها ''متابعة الكمال التام برغبة في إدراك أفضل القول والفكر في القضايا التي تهمنا'' ، ونعى في هذا الكتاب على الإنجليز ضيق أفقهم وضحالة ثقافتهم، وهذا يقودهم إلى أخطاء سياسية ودينية، ويضيع جهودهم وقدراتهم العقلية.

ولعل المسائل الدينية السائدة في سبعينيات هذا القرن قد استحوذت على تفكيره في هذه الفترة، فوضع فيها أربعة مجلدات أهمها ''**الأدب والعقيدة**'' عام ١٨٧٣.

وفي العقد الأخير من حياته عاد إلى النقد الأدبي فصدر له ما يعد أكثر كتبه تأثيراً وهو ''**دراسة الشعر**'' دافع وحاول فيه عن فكرة ''أن الشعر هو نقد الحياة''، وقدر له أن يأخذ مكان الدين كمرشد عقلي للإنسان، لذا كان جوهرياً أن نؤسس مقاييس ومعايير للحقيقة والجدية السامية''.

ويرتحل أرنولد إلى الولايات المتحدة، فيلقي هناك عدة محاضرات منها ''الإعداد'' و''الأدب والعلم'' و''إمرسون'' الشاعر الأمريكي، وقد طبعت هذه المحاضرات في كتاب باسم ''**أحاديث في أمريكا**'' عام ١٨٨٥، وقد عده أرنولد أفضل

ما يستحق أن يتذكره من كتاباته النثرية.وفي عام ١٨٨٦، زار الولايات المتحدة مرة أخرى لزيارة أبنته المتزوجة من رجل أمريكي، ولما ردت الزيارة عام ١٨٨٨ ذهب إلى ليفربول لاستقبالها، وهناك وبينما كان يعدو لإدراك عربة ترام، سقط ميتاً.

لقد ترك أرنولد بصمات واضحة في النقد ظلت معايير نقدية إلى ما بعد الربع الأول من القرن العشرين، وإن ظهرَ من نقد ونقض آراءه تلك أمثال ت س. اليوت، كما بقيت آراؤه في الشعر وعلاقته بقرائنه التاريخية والدينية مقبولة بشكل واسع ، كذلك آراؤه في النقد والثقافة وتعريفه لهما.أعمال رئيسية أخرى: **كتابات في اللاهوت** (١٨٥٩م) ، **القديس بول والبروتستنتية** ـ (١٨٧٠م)**حلقة الصداقة** (١٨٧١م) ، **الله والإنجيل** (١٨٧٥م) **مقالات إيرلندية** (١٨٨٢م) **التعليم العالي والجامعات في ألمانيا** (١٨٧٥م) ، **رسائل أرنولد إلى آرثر كلف** (١٩٣٢م) .

من شعره

شاطئ دوفر[1]

البحر هادئ الليلة
والمد والجزر في كمالهما
والقمر على المضائق
على الساحل الفرنسي
يومض ثم يذهب بعيداً
وتلال إنجلترا واقفة
لامعة واسعة على الخليج الهادئ
فقط، على الخط الطويل للرذاذ

(1) Great poems.P 352

حيث البحر يلتقي مع الأرض المضاءة بالقمر
أصغ ، سوف تسمع هديراً مزعجاً
للحصى الذي يرده البحر، فيندفع عائداً
عالياً على الشاطئ العالي
يبدأ، ثم يتوقف، ثم يبدأ ثانية
بإيقاع مرتجف، جالباً
نغمة حزينة لا تنتهي.
لقد سمع سوفوكليس هذه النغمة
على بحر ايجه
وجلبت له مداً عكراً ثم جرت
من الحزن الإنساني نجد أيضاً في الصوت فكرة
نسمعها على البحر الشمالي البعيد

١٦ـ صامويل وليم بتلر
(١٨٣٥ ـ ١٩٠٢م)

ولد الروائي والكاتب الإنجليزي صامويل وليم بتلر في الرابع من كانون أول عام ١٨٣٥م في بلدة لانجر في مقاطعة نوتنغهامشير، لأب قسيس هو توماس بتلر (١٨٠٦ م ـ ١٨٨٦م) ، أما أمه فهي فاني ابنة فيليب ور سلي، وكان والدها يعمل في تكرير السكر، وقد تلقى صامويل تعليمه الأولي في مدرسة ''ألسلي'' الإعدادية مدة عامين، ثم انتقل إلى مدرسة شروز بري التي كان يديرها جده صامويل بتلر، وفي عام ١٨٥٤م انتقل إلى كلية القديس جون في كامبردج وتخرج منها عام ١٨٥٨م في الدراسات الكلاسيكية.

وقبل تخرجه كان قد كتب عدداً من المقالات التي تعد بدايات بسيطة، ومنها مقالان بعنوان ''درع آخيل'' و''صورة هومرية للحياة في كامبردج'' وظهرت في الجامعة بدايات شكوكه الدينية بتساؤله عن جدوى تعميد الأطفال، وأدت هذه الشكوك إلى مراسلات غاضبة بينه وبين والده رغم اعتماده على والده مالياً.

وفي الوقت الذي رأت فيه الأسرة أمراً طبيعياً أن يتقدم ولدها لامتحان الرسامة (لكي يصبح كاهناً) نراه يرفض ذلك، لاهتزاز ثقته بكل شيء يحكم عقليته العملية، فقد رأى أن زملاءه المعمدين ليسوا أفضل من غير المعمدين في أخلاقهم وسلوكهم، وقد سبب هذا الموقف لوالده الصدمة والحزن.

ويبدو أن هذه الأجواء مجتمعة قد دفعت صامويل إلى الهجرة إلى نيوزيلندا عام ١٨٥٩ حيث عمل في تجارة الأغنام، وأقام في منطقة ''رانجتاتا'' في جزيرة كانتربري، وهناك حقق نجاحاً مالياً ملموساً، فقد تمكن من أن يضاعف المبلغ الذي بدأ به وهو أربعة آلاف جنيه أمده بها والده، وقد عبر عن نجاحه هذا في رسائل كتبها إلى صحيفة The Eagle في كامبردج، وكانت هذه الرسائل نواة لكتابه ''العام الأول في

مستوطنة كانتربري'' الذي أعده والده للنشر عام ١٨٦٣م، والكتاب مليء بالتفاصيل الهزلية، وأسلوبه بسيط إلى حد الجفاف.

وخلال وجوده في مهجره زود الصحافة النيوزلندية بمقالات متنوعة: منها ''داروين وأصل الأنواع'' (١٨٦٢م) ''وداروين بين الآلات'' (١٨٦٣م) ، وهذان المقالان كانا بذرة كتابه الشهير: ''ايروين''.

وفي عام ١٨٦٤م عاد بتلر إلى إنجلترا، واستأجر ثلاث غرف في الطابق الثاني من فندق كليفورد وبقي فيها حتى وفاته، وكانت علاقاته بأهله سيئة، فلم يصل إلى تفاهم مع والده المحافظ، وكره أخواته، ونظراً لفقده أمواله في مضاربات مالية، لم يمد والده له العون سوى جزء بسيط من ثروة الأسرة، فازدادت علاقتهما سوءاً.

وفي هذه الفترة، وبالذات عام ١٨٦٥م، أصدر بتلر كراسة بعنوان ''**إثبات بعث المسيح كما ورد عند مؤلفي الأناجيل الأربعة**'' خلص فيها إلى أن المسيح لم يمت ولكنه أغمي عليه ، ثم عاد إلى الحياة بواسطة يوسف ارماثا، وقد أرسل نسخة من هذه الكراسة إلى تشارلز داروين، فكانت بداية مراسلة ودية بينهما.

ويوزع بتلر جهوده بين الرسم والكتابة والتأليف الموسيقي، فالتحق بكلية (هيذرلي) الشهيرة ليدرس الرسم، وأحرز في هذا المجال نجاحاً معتدلاً، ففي الفترة بين عامي ٦٨ ـ ١٨٧٦م، علقت دزينة من رسوماته في الأكاديمية الملكية.

وفي الموسيقى كان مغرماً بهاندل[١]، فاشترك مع صديقه هنري جونز في تأليف بعض الأعمال الموسيقية مثل: رقصات ودقائق ومقطوعات قصيرة على البيانو (١٨٨٥م) ونارسيس: رقصة من الشكل الهاندلي (١٨٨٨م) عوليس و ارتاريو (١٩٠٤م) .

---

(١) جورج هاندل (١٦٨٥ ـ ١٧٥٩) موسيقي إنجليزي، وضع أكثر من ٤٠ أوبرا (المورد).

ويبدو أن بتلر كان يدرك أنه في مجالي الرسم والموسيقى ما هو إلا هاو، لذا كان تركيز جهوده على مؤلفاته الأدبية، فكان اشهرها ‘‘**ايروين**’’ **Erewhon** الصادرة عام (١٨٧٢م) التي لفتت إليه الانتباه، وحققت نجاحاً شعبياً، وقد تأثر فيها بيوتوبيا للكاتب توماس مور، وهذه الرواية عبارة عن زيارة يتخيلها الكاتب إلى بلاد خيالية، فالاسم **Erewhon** إعادة ترتيب لكلمة **Nowhere**، وفيها يهاجم بتلر سيطرة الآلة على الإنسان، لذا قام أهالي ايروين بإلغاء الآلات كي لا تصبح أسيادهم، على عكس الأوضاع السائدة في إنجلترا، كذلك اعتبر أهل ايروين المرض جريمة يعاقب عليها القانون ـ وهنا يظهر تفضيل بتلر الصحة الجسمية على الصحة العقلية ـ فأنتج أهل ايروين جيلاً قوياً بدنياً وجمالياً، ويظهر فيها ـ الرواية ـ سخريته من جدية الآباء ووقارهم الزائف، وتجريمه الانتقال غير الواعي للعادات والتقاليد من جيل لآخر، وتركيزه على الأهمية الكبيرة للأخلاق، والسلوك على المعتقدات، لذا عدت هذه الرواية أعظم عمل ساخر منذ سلفه ‘‘سويفت ١٦٦٧م ـ ١٧٤٥م’’، وكم هو محزن أن ينشر بتلر هذا العمل المميز بدون ذكر اسم مؤلفه الحقيقي!!.

وفي عام ١٨٧٣م أصدر كتابه ‘‘**السماء العادلة**’’ الذي قبل بشكل واسع كتمرين على أدب الاعتذار، وقرأه ذوو الاتجاه الديني كونه اعتراف لعقل تهاجمه شكوكه الدينية بعنف، إلا أنه في النهاية ينتصر على هذه الشكوك، وبطبيعة الحال، فإن هذا أرضى أتقياء الناس الذين وجدوا فيه إيماناً بحكمة الله في رعاية عباده ومخلوقاته، وقد طبع هذا الكتاب بدون ذكر اسمه، خشية إثارة خلافات جديدة مع والده، إلا أنه في الطبعة الثانية صرح باسمه، وكذلك في الطبعة الثانية لإريوين.

وفي العام ذاته، يحول بتلر رصيده وهو ثمانية آلاف جنيه من نيوزلندا ليستغله في أعمال تجارية متنوعة مع شخص يدعى ‘‘هنري هور’’، إلا أن هنري هذا عقد عدة صفقات خاسرة، فخسر بتلر معظم أمواله في العام التالي، فقام برحلتين إلى كندا

لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، ولكن بدون جدوى، ولكن وفاة والده عام ١٨٨٦ حسنت أوضاعه المالية.

أما خط الجدال الذي بدأه في نيوزلندا ضد استبداد نظرية الانتخاب الطبيعي لداروين، فقد اكتمل في دراساته "**الحياة والعادة**" (١٨٧٧م) ، "**التطور قديمه وجديده**" (١٨٧٩م) ، "**ذاكرة غير واعية**" (١٨٨٠م) ، "**الحظ أو البراعة**" (١٨٨٦م) ، "**إخفاق الداروينية**" (١٨٩٠م) ، هذه الدراسات كانت ثورة ضد ما اعتبره بتلر مؤامرة داروين لإبعاد العقل عن العالم، وأن الداروينية تعتمد على حصول التغيير، أو الرياضة التي تترك مظهراً غامضاً بحاجة إلى شرح طويل، وضد هذا الاتجاه يرى بتلر أن التغيير لا يحصل بالحظ، بل بكفاح الفرد وتعبه للتكيف مع بيئته المحيطة به.

أما روايته "**مصير البشرية**" فقد أعدها ما بين ٧٣ ـ ١٨٨٣م، وهي تكاد تكون سيرته الذاتية تماماً، فهي عمل واقعي ساخر ناقد للطبقة الوسطى الإنجليزية، والحياة الأسرية السائدة آنذاك، واتهام قاس لقصور التعصب الديني وللنفاق الذي عرفه بتلر وأدركه في صباه، وهجوم على المادية الماكرة للطبقة الوسطى في العصر الفكتوري، فبطل الرواية "إيرنست بونتفكس" يحكمه أبوه الكاهن بتعصبه الخشن، أما أمه فتلجأ للعاطفية الخادعة، والاثنان يبرران كذبهما وخيانتهما بأنهما لمصلحة أطفالهما، وتحت هذا الإدعاء يتخفى الخداع والمسيحية المتعصبة، والأنانية المطبقة، "لكن القيمة الشفائية لـ "مصير البشرية" للجيل الذي قرأها عند ظهورها أول مرة، واضحة، فلا بد وأنها قد أدخلت السرور على نفوسهم مثل أيام "شو" الأولى، فقد شاهدوا فيها المفاهيم التقليدية عن المؤسسات التقليدية والسلوك القديم

تنهار مثل قطع الخشب التسع أمام هجو بتلر''[1]، لذا يرى بعض النقاد أن هذه الرواية كانت عمله الأعظم.

وفي سنواته الأخيرة، يرى بتلر نفسه منجذباً نحو قضية مختلفة عن قضاياه السابقة، إنها القضية الهومرية، فترك عليها بصمته الحية غير التقليدية، فعدا عن تركه ترجمات نثرية للإلياذة والأوديسة، نراه يصرح بأنهما إنتاج كاتبين مختلفين، فهو يرى أن مسرح أحداث الأوديسة في جبل ''ايركس'' في جزيرة صقلية، ونشر رأيه هذا في كتابه ''مؤلفة الأوديسة'' قائلاً إن هذه المؤلفة قد عاشت في مدينة تراباني في صقلية، وإن أحداث القصة تدل على أنها من إنتاج امرأة طروادية أخفت تعاطفها الحقيقي لتكسب جمهوراً أعرض، ويستبعد بتلر أن يكون المؤلف رجلاً لأنه لا يمكن أن يجهل الرجل أمور الزراعة وصناعة البحر بهذا القدر، ولكنه خبير في الشؤون المنزلية، وكان قبل ذلك قد ألقى محاضرة بعنوان ''**فكاهة هومر**''.

ويجذبه الغموض أيضاً إلى الأدب الإنجليزي القديم، فيؤلف: ''**إعادة النظر في سونيتات شكسبير**'' (١٨٩٩م) وفي هذا الكتاب يعيد ترتيب هذه السونيتات لتؤلف قصة حب مترابطة متماسكة، وزعم أن شكسبير فيها يخاطب رجلاً ذا أصل متواضع، وهو تخمين لم يجد إلا قلة من المؤيدين آنذاك ، في حين ظهرت دراسة لاحقة أيدت ذلك بقوة.[2] .

ويعود بتلر إلى موضوع نجاحه الأول في رواية ''ايروين'' ويكتب ''**ايروين الزيارة الثانية**'' وفيها يطور أفكاره وغاياته التي أذاعها في عمله الأول ذاك، خاصة الهجوم على المعتقدات الدينية، ولكن الهجاء هنا أقوى وأعنف، فهو هنا يمتحن الجانب الديني عند الأيروينيين الذين عرفوا بالدين بواسطة مكتشفهم الذي هبط

---

(١) الرواية الإنجليزية ـ والتر الن ـ ترجمة صفوت جرجس ص ٣٠٨.

(٢) راجع: البحث عن شكسبير . لويس عوض، طبعة دار المعارف ١٩٦٨ ص ١٩٨ وما بعدها.

عليهم في بالون، وقد تميز هذا العمل بالترابط والتماسك بشكل أفضل مـن سـابقه، وإن فقد بعض جماليته الغريبة.وكانت صحة بتلر قد تدهورت لدى مغادرته إلى صقلية في يوم الجمعة الحزينة عام ١٩٠٢م، فعاد إلى منزله في فندق كليفـورد، ثـم حمـل إلى المستشفى حيـث تـوفي في الشـامن عـشر مـن حزيـران ١٩٠٢م، وحـرق جثمانـه في ‘‘ووكنج‘‘ بناء على وصيته، ونثر رماده.

وطبع إثنان من كتبه بعد وفاته وهما: مصير البـشرية ١٩٠٣ م و‘‘**مقالات في العلم والفن**‘‘ مع مقدمات للسيد ستريت فيلد، ثم طبعا عدة مرات لاحقاً، وفي عام ١٩١٢م نشر صديقه فستنج جونز مختارات من مذكراته الساخرة.

١٧ـ توماس هاردي
(١٨٤٠ ـ ١٩٢٨م)

ولد الروائي والشاعر الإنجليزي توماس هاردي في الثاني من حزيران عام ١٨٤٠م في قرية هاير بوكهامبتن في منطقة دورسيت الواقعة في مقاطعة وسكس، حيث قضى طفولته التي أهم ما يذكر عنها أنه كان عليلاً ضئيل الجسم، وأنه تعلم القراءة قبل أن يتعلم المشي، كما تعلم العزف على القيثارة قبل التحاقه بالمدرسة التي دخلها وهو في الثامنة، وفيها أحب الحساب والجغرافيا وتفوق فيهما، وقرأ ''تاريخ الحروب'' عن حروب نابليون، وفي طفولته أيضاً تلقى تعليماً خاصاً في الفرنسية واللاتينية، كما تلقى لاحقاً بعض الدروس المسائية في كلية ''الملك'' في لندن.

وفي سن الثانية عشرة شرع يدرس الأجرومية اللاتينية لأيتون، وقرأ أتريبوس وقيصر، كما تعلم الألمانية وحده بواسطة دورية كانت أمه تبتاعها له تشجيعاً لأبنها الموهوب.

وفي عام ١٨٥٦م عمل هاردي مع معماري كنسي ثم أصبح مساعداً لسير بلومفيلد وعمل معه في ترميم الكنائس، ثم رحل إلى لندن حيث أبدع في صناعته وأبدى تفوقاً فيها، فقد حصل على جائزة المجمع الملكي للعمارة عام ١٨٦٣م، وجائزة أخرى من جمعية العمارة.

ولكن عمله هذا لم يحل دون شغفه بالأدب، فقد كان يكب على دراسة الآداب الكلاسيكية في الفجر قبل ساعات العمل، وزامل في المكتب شاباً شاركه هوايته هو هوراس مل الذي تخرج من جامعة كمبريدج متخصصاً في الآداب القديمة، وكان هاردي يعرض أشعاره عليه فيجد منه تشجيعاً، كما قدم مل لزميله المتعطش للمعرفة عدداً من الكتب المهمة في الفكر والفلسفة فقرأها هاردي بنهم لتفتح أمامه آفاقاً واسعة من الفكر وإرادة البحث ، فقد قرأ ستيوارت مل ودرس كتابه ''عن الحرية''

واستمع لمحاضرات توماس هكسلي في تفسير نظريات داروين، كما تعمق في الآداب القديمة المألوفة لكتاب معروفين مثل هوراس وفرجيل وأوفيد وهومر، وأخذ يتعلم اليونانية معتمداً على نفسه، ومن الطريف أنه كان هناك مدرسة بجوار مكتبه الهندسي يديرها قسيس محب للغة، فإذا حدث خلاف بينه وبين المعلمين في اللاتينية، هرع هاردي إليهم وفض الخلاف بإدلائه برأيه الحاسم.

ونتيجة لقراءاته المتواصلة، حدث له صراع داخلي بين عقيدته العميقة والأفكار الجديدة التي آمن بها، حتى أن هذا الصراع أثر على صحته بعد أن قضى خمس سنوات باحثاً مفكراً معذباً بالعقائد والأفكار الجديدة، فقرر ترك لندن التي كرهها وعاد إلى الريف حيث الحياة البسيطة ، وحيث الناس مترابطون بتقاليد وقيم متوارثة منذ القدم، وأخذ يرافق والده الموسيقي مع فرقته لإحياء الأمسيات الجميلة بين أهل الريف.

وفي هذه المرحلة تعرض هاردي للمشكلة الكبيرة التي تواجه الأديب الفقير، بين أن يتفرغ لأدبه أو يزاول عملاً آخر يعيش منه، ويبدو أنه اختار الأمر الأول بدون تردد، فبدأ حياته شاعراً، ملبياً دواعي نفسه الشاعرية المتقدة، وما أن حل عام ١٨٦٥ حتى بدأ بإرسال أشعاره إلى المجلات التي لم تنشرها، فدفعه هذا إلى إجراء تعديلات عليها بحذف ألفاظ أو إعادة صياغة السطور، ولم ينشر له شيء إلا مقالة بعنوان ''كيف ابني لي بيتاً'' نشرته صحيفة شامبرز.

وقرر التحول إلى النثر لتعود إليه موهبته كمعماري، فكتب النقد الفني، ولكن فكره كان ما يزال مشغولاً بأسئلة هكسلي وداروين وسواهما، وأخذ يفكر بعمق في مسألة العلاقة بن الرجل والمرأة ، ولما قرر أن الحياة من وراء القلم لن تكون إلا إذا أصبح روائياً شعبياً كتب رواية ''**الفقير والسيدة**'' التي وصف فيها حياته الخاصة شأنه في ذلك شأن معظم الروائيين في بداية حياتهم الأدبية، فهاجم نظام الطبقات البرجوازية، ولما نصحه الروائي جورج ميريدث ببعض التعديلات على روايته عدل

عنها ونشر غيرها تحت عنوان ''**العلاج المستميت**'' عام ١٨٧١ م التي ساهم فها مع الناشر ''دار تنسلي'' بمبلغ ٧٥ جنيهاً من أصل ١٢٣ جنيهاً هي تكاليف النشر، فظهرت في ثلاثة مجلدات، وقد تناولتها مجلة ''الأثينيوم'' بالمدح، وعلقت صحيفة المورننج بوست بأنها نجاح كبير لمؤلفها، ولكن الاسبكتاتور هاجمتها بعنف، والسبب جرأة مؤلفها الذي افترض إنجاب سيدة طفلاً وهي غير متزوجة.

ولكن رفض الرافضين لم يفت من عضد هاردي، فكتب رواية أخرى هي ''**تحت الشجرة الخضراء**'' التي رفضتها دار مكميلان، فكاد هاردي أن يعتزل الأدب حزناً ويأساً، ولكن صديقته جيفورد ـ التي تعرف عليها في جولاته الريفية للعمل في العمارة ـ شجعته على المضي في عمله الأدبي.

ولما استرد مبلغ ٦٠ جنيهاً مما دفعه على نشر ''الفقير والسيدة'' بعد أن باع منها ناشرها ٣٧٠ نسخة من ٥٠٠، دفع روايته الجديدة لنفس الناشر ''تنسلي'' الذي دفع لهاردي ٣٠ جنيهاً مقابل حقوق النشر، وصدرت الرواية في أيام ١٨٧٢م، ورحبت بها الأثينيوم، ووصفتها ''البول جازيت'' بالجدية والأصالة، وتوالى كيل المديح لها مما دفع تنسلي إلى الطلب من هاردي أن يكتب رواية مسلسلة في مجلته، وأن ينشرها لاحقاً في كتاب، ووقعا عقداً بذلك فكانت رواية ''عينان زرقاوان'' التي نشرت في مايو ١٨٧٣م، وعدتها السبتردي رفيو أفضل روايات عصرها، كما أحبها القراء في فرنسا، وقد استمد موضوع روايته هذه من قصته مع إيما جيفورد التي تزوجها عام ١٨٧٤م.

ويطلب منه محرر مجلية ''كورنهل'' رواية لمجلته، فكتب ''**في معزل عن الزحام**'' التي لفتت إليه الانتباه، فقد دلت على أنه متمكن من فنه وقادر على نسج الخيوط الدرامية وإيجاد الشخصيات وتصويرها بشكل يدل على إدراكه وفهمه للنفس البشرية، وبذا تجمعت لديه عناصر البناء الروائي في سن مبكرة، وقرأه الشاعر الكبير تنيسون والناقد ماثيو ارنولد، وأصبح له معجبون في بريطانيا وأميركا، وأصبح مطلوباً

لكتابة القصص المسلسلة في المجلات، مما وفر له دخلاً جيداً ثابتاً، وكما فعل مارك توين، عاد هاردي إلى تراثه الحقيقي الذي يعرفه جيداً في مقاطعة وسكس فكتب ''**يد البرئنا**'' عام ١٨٧٦م بعد إلحاح من ناشري مجلة ''كورنهيل'' والتي كتبها بجو كوميدي فلم تلق النجاح المطلوب لأنه كان ترجيدياً أكثر منه كوميدي.

وفي أيار ١٨٧٦م قام برحلة وزوجته إلى هولندا، فزار روتردام وأعجب بجدتها ونظافتها، ثم زار لاهاي وإيمارسن، وانتقد الأسلوب القوطي في بناء الكنائس، وارتحل إلى ألمانيا وزار بون وكارلسرو وبادن وستراسبورج، وعادا عن طريق بروكسل، ووقف هاردي طويلاً على المكان الذي وقعت في معركة واترلو قبل ستين عاماً، ولعله كان يعد لعمل أدبي يتعلق بنابليون، وقد ظهر هذا العمل لاحقاً.

وفي عام ١٨٧٨م ظهرت روايته ''**عودة المواطن**'' التي يعالج فيها الصراع بين الغايات المادية والمثل العليا: فتاة تهوى حياة المدنية ويذخها فتترك زوجها المعلم المثقف بعد نزاع طويل، ولكنها تموت في ليلة عاصفة أثناء هروبها إلى الحياة التي تهوى، وهو هنا يعكس حياته الخاصة، فقد بدأ الخلاف يدب بينه وبين زوجته لنفس الأسباب.

وبعد أن نشر رواية ''**نافخ البوق**'' اعتل ولزم الفراش مدة ستة شهور، كتب بعدها مباشرة رواية ''لودسيان'' التي نشرت عام ١٨٨١م، ثم كتبه ''**اثنان على برج**'' عام ١٨٨٢م في ثلاثة مجلدات.

وكان هاردي في عام ١٨٨٠م قد التقى على حفل عشاء أقامه الناشر سميث الشاعر الناقد ماثيو ارنولد الذي كان يكبر هاردي بثمانية عشر عاماً، وكان على العشاء هنري جيمس والكاتب الناشر ريتشارد جيفرس، وناقش هاردي أرنولد في مواضيع أدبية، فوجد هاردي أن أرنولد يحمل آراء منذ زمن بعيد تخالف آراءه ولا داعي للجدال فيها لأن هذا سيكون نوعاً من العبث.

وفي عـام ١٨٨٢م اصـطحب زوجتـه إلى بـاريس حيـث زار متحـف اللـوفر واللوكسمبرج، كما اشترى قطعة أرض وبنى عليها بيتـه، ''مـاكس جيـت'' الـذي صممه بنفسه وأصبح منزله حتى وفاته، وفيـه أتم روايـة ''**عمدة كاستربرج**'' تلـك الرائعة التي رفعته إلى مرتبة أعظم روائيي العصر الفيكتوري، وفيها يصور الصراع بين عالم الزراعة البسيط والغزو الآلي الذي ظهر بعد الثـورة الـصناعية، وضـحية هـذا الصراع هو هنشارد بطل الرواية الذي باع زوجته في بداية الرواية، ولكنه أصبح من علية القوم عندما عمل في التجارة ، ولكن ظروفاً عدة أحاطت به وردته إلى سـيرته الأولى فمات معانياً الفراغ العاطفي بعد فقده لكل من أحب أكثر مما عانى من الفشل والفقر.ويستمر في نشاطه وعطائه فيكتب عام ١٨٨٧ م روايـة ''**أهل الغابة**'' الـتي تحكي قصة فتاة داست على حب ابن قريتها لهـا لتتـزوج طبيبـاً مـن المدينـة فتفقـد سعادتها، وتلا ذلك بروايته ''**تس سليلة دربرفيل**'' قمة أعماله، ولكنها ـ مع الأسف ـ كانت بداية النهاية لنشاطه في مجال الرواية، وهي قـصة فتـاة تلاعبـت بهـا الأقـدار والصدف لتعدم أخيراً جزاء لها لقتلها شاباً غرر بها، وهي قصة لا تخلو من سخرية القدر من الإنسان، هذا القدر الذي آمن به هاردي إيماناً قوياً حتى كاد يجعله بطلاً من أبطال رواياته يتلاعب ببقية الأبطال والشخصيات ويقسو عليهـا ويحـول دون كـل سعادة يرجونها، ومع أن ''تس'' قد سرت الكثيرين، إلا أنها أغضبت غيرهم لوجود الفحش والإلحاد فيها، الإلحاد الذي لا يصرح به هاردي، ولكن هذا ما رآه نقاده من محاربة الأقدار للإنسان في روايته التي حققت مردوداً مالياً ممتازاً.

ويعود ويغضب الكنيسة مرة أخـرى بروايتـه '' **جود المغمور**'' عـام ١٨٩٥م والتي عندما قرأها أسقف ووكفيلد ألقاها في النار، وهي تعرض الصراع بين العقائد الدينية ونظريات العلم الحديث، فجود يعمل في قطع الحجارة، ويحاول أن يثقف نفسه الطامحة، ولكنه عاطفي تقوده عواطفه، وعندما يفشل زواجه، يتعـرف علـى معلمـة شابة، إلا أن الأقدار تكون له بالمرصاد فيموت أولادهمـا، فيلجـأ للخمـر لينـسى،

ويموت وهو في أشد حالات الشقاء، وكان هاردي يرد على الذي يهاجمونه قائلاً: إن العمل الروائي يجب أن يكون أسمى من أن يكون لتسلية الجماهير، بل هـو تعليـق شامل على حياة الإنـسان والظـروف الـتي تـتحكم فيهـا .وبعـد أن أصـدر روايتـه ''**المحبوبة جداً**'' عام ١٨٩٧م، وهي عبارة عن مراجعة لرواية نشرت في حلقات قبل عدة سنوات، بعد ذلك توقف عـن كتابـة الروايـة تمامـاً، وقـرر العـودة إلى الـشعر والانقطاع له، فأصـدر ''قـصائد وسـكس'' ثـم ''**قصائد الماضي والحاضر**'' عـام ١٩٠١م الـتي عكـست جديتـه في الكتابـة ولكـن الـبعض رآهـا مجـرد انعطـاف في الأسلوب.

ولكن عمله الشعري الأكبر كان خلاصة ما سمعه مـن أهـل وعـشيرته عـن أساطير الحرب البرية والبحرية خلال حروب نابليون، فزار مواقع تلك الحروب مثل: ترافيلد واسترلتز وبرنديو وواترلو، ووقف على أسبابها وظروفها، وجعـل همـه أن ينتج عملاً يخلد أعمال أبطال أمته أمثال بيت ونلسون وولنجتون، فأصدر ملحمتـه الشعرية ''**العواهل**'' في ثلاثة مجلدات بين عامي ١٩٠٤ ـ ١٩٠٨ م وقد حوت ١٣٠ مشهداً بداية من مولد نابليون، وقد عدها النقاد أفضل قصائد القرن في متانتها وقوة تعبيرها.وتموت زوجته في السابع والعشرين من تشرين الثاني ١٩١٢م، ورغم أنهما لم يكونا على وفاق إلا أن وفاتها أثرت فيه كثيراً، فعاد إلى المكان الذي التقى فيـه بهـا والذي لم يزره منذ زواجهما ونظم مجموعته ''**قصائد** ١٢ ـ١٩١٣ ''مصوراً علاقته الأولى بها قبل الزواج، وطبعت ضمن مجموعة ''**هجاء الحوادث**'' عام ١٩١٤.

وفي شباط ١٩١٤ م وهو في الرابعة والسبعين، تـزوج فلـورنس دجـديل وكانت في الخامسة والثلاثين، وقد جردت من نفسها زوجة وسكرتيرة ومساعدة له في أعمال الأدبية التي تفرغ لها تماماً في حياة هادئة في منزلـه مـاكس جيـت، فـصدر لـه المجوعات الـشعرية، ''**لحظات الرؤيـا**'' ١٩١٧ م''**قصائد غنائية مبكرة ومتـاخرة**''

١٩٢٢م، مسرحية شعرية بعنوان ''**المأساة الشهيرة للملكة كورنوول**''١٩٢٣م، وصدر بعد وفاته ''**كلمات الشتاء**'' ١٩٢٨م.وكانت مشكلة هاردي الوحيدة هي قول الناس عنه أنه متشائم، فكان يرد أنه على العكس من ذلك، فهو يرى العالم يسير على التحسن، وفي هذه الفترة كان هاردي في قمة مجده الأدبي، فكان الملك جورج يتابع كتبه، وفي عام ١٩٠٩م خلف ميريدث في رئاسة رابطة الكتاب الإنجليز، وفي عام ١٩١٣م منح دكتوراه الآداب الفخرية من كامبريدج، ولما بلغ الحادية والثمانين احتفل الأدباء بعيد ميلاده ذاك، وزاره ولي العهد عام ١٩٢٣م، ونال وسام الاستحقاق ومنصب قاضي الصلح، ولكن هذا كله لم يؤثر على بساطة هاردي الذي جعل همه أن يكون مفيداً لكل من يحتاج إليه من الإنسان والحيوان على السواء، ومن ضمن خطته تلك أخذ يساعد محرري المجلات القدماء والجدد.

وأصيب بالبرد في مطلع كانون الثاني عام ١٩٢٨م رغم كل العناية التي كان محاطاً بها، وتوفي في الحادي عشر من الشهر ذاته، وأخرج قلبه ودفن في قبر زوجته إيما، ودفن جثمانه في مقبرة العظماء وستمنستر في ١٦ كانون الثاني ١٩٢٨م.ومن الذين أحبوا هاردي في بلادنا، الكاتب العظيم عباس محمود العقاد، الذي مدحه وأثنى على أعماله في العام الذي توفي فيه هاردي، ودافع عنه دفاعاً مجيداً لدى قراءته نقد النقاد الإنجليز لبعض آثاره، يقول العقاد:

''والذي نراه نحن أن المارد المقيد في الأغلال هو عصر الشك والحيرة والاضطراب لا أسلوب هاردي وطريقته في التعبير، فإذا سألنا، هل كان هاردي أصدق شعراء عصره في الترجمة عن روح الزمن الذي عاش فيه، أو هو لم يكن كذلك؟ فنحن لا نستطيع إلا أن نعترف له بالتفرد في هذه الترجمة الأمينة الوافية، والتفوق على جميع الشعراء في أداء الرسالة التي توحيها طبيعة القلق ووساوس الارتياب، فكيف يكون مقيد الفن إذاً وهذه عبقرية حرة لم تحجب من صورة الزمن كثيراً ولا قليلاً، ولم يعقها عائق أن تنطق بأسلوبها الذي لا ينطق الوحي العصري

بأسلوب سواه''[1] . لقد كنا نتمنى لو أن العقاد أفرد كتاباً كاملاً عـن هـاردي مـن ضمن التراجم الغربية الكثيرة التي أثرى بها المكتبة العربية مثـل: شكـسبير، جوتـه، برناردشو وغيرهم.

من شعر هاردي

''هل تحفر على قبري؟'' [2]

آه، هل تحفر على قبري

يا زوجي العزيز، تزرع ورداً

لا.. بالأمس ذهب ليتزوج

إحدى الفتيات الجميلات

وقال: '' لن يؤذيك الآن

أن أكون غير صادق في حبي''

إذن، من يحفر على قبري

هل هو قريبي الأعز

آه. لا.. لقد اجتمعوا وفكروا. ما الفائدة؟

ماذا ستفيدك زراعة الأزهار

إذ لا عناية برفاتها

سوف تنقذ روحها من مصيدة الموت.

لكن شخصاً ما يحفر على قبري

هل هو عدوتي! الماكرة الهمازة

لا.. عندما سمعت أنك عبرت تلك البوابة

التي ستغلق على كل الأحياء، عاجلاً أم آجلاً

---

(١) ساعات بين الكتب للعقاد ص. (٢٧١) طبعة دار الفكر القاهرة ١٩٧٩.

(2) Literature of England . p 634

اعتقدت أنه لا داعي لأن تعاديك
ولم تكترث حتى لمكان قبرك
قل إذن .. إني لم أحزر
آه.. إنه أنا يا سيدتي العزيزة
كلبك الصغير الذي لا يزال يعيش هنا
وكم أتمنى أن حركاتي هنا
لم تقلق راحتك
آه.. أنت تحفر على قبري
لماذا لا تضيئه علي
ذلك القلب المخلص الذي تركته خلفي
ما الشعور الذي سوف نجده
عند بني الإنسان
يساوي إخلاص الكلب
سيدتي، أنا أحفر على قبرك
لأدفن عظمة، فإذا حدث
وكنت جائعاً قرب هذه البقعة
خلال مروري في نزهتي اليومية
أنا آسف، لقد نسيت
لقد كان مكان استراحتك

(١٩١٤م)

القرن العشرون

السمات العامة

اتسم القرن العشرون بالسمات التالية :

١- اتساع الثورة الصناعية ، فظهر البترول والكهرباء ، والصناعات الحديثة كالمذياع والهاتف والتلفاز والسينما والاتصال اللاسلكي والسيارة والطائرة ، إضافة إلى الآلات المتطورة في المصانع.

٢- الاستعمار: تواصل الاستعمار من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، وتبعه ضم الدول المستعمرة دولاً أخرى خاصة الدول التي كانت تحت الحكم العثماني كسوريا ولبنان والأردن وفلسطين وليبيا ، ودولاً أخرى في آسيا كالهند والباكستان وإندونيسيا وكوريا الجنوبية وبورما وسيلان والفلبين، وقد انسحب المستعمرون من هذه الدول بعد الحرب العالمية الثانية.

٣- حصول الحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين أزهقتا أرواح ثمانية عشر مليوناً وتزيد، ولعل أهم أسبابها هو الرغبة والطمع في استعمار دول جديدة ، مما أدى إلى التصادم بين الدول الكبرى، وقد غذى هذا الاتجاه التسابق إلى التسلح والتزاحم على المصالح الاقتصادية للدول الرأسمالية الاستعمارية وفي مقدمتها بالطبع بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا.

٤- انحطاط الحضارة الغربية وتضاؤل الإمبراطورية البريطانية، وظهور القوتين العظميين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة كعملاقين مسيطرين يوجهان سياسة العالم ، وتراجع دور أوروبا التي أنهكتها الحروب.

٥- ظهور النزاعات العقائدية وفي الأخص بين الاشتراكية والرأسمالية.

وقد كان لذلك كله الأثر الأكبر في الأدب المعاصر فجعله مختلفاً عن العصور السابقة، فقد تراجعت النزعة إلى التقليد، وتعززت النزعة إلى الفوضوية التي ظهرت بشكل واضح في الشعر حتى أن بعض الكتاب ألقى بعيداً الأشكال القديمة ، وحاولوا كتابة أشعار لا قواعد ثابتة لها تحت اسم''الشعر الحر ''، وفي النثر سيطرت النزعة الانطباعية، فكانت الأعمال الأخيرة محبطة لأولئك الذين تعودوا على بيان الأعمال السابقة وبلاغتها ومنطقيتها المرتبطة بتسلسل المثل العليا.

وفي بداية القرن كان التقدم والتمدن الإنجليزي قد وصلا أقصى مداهما، ومنذ ذلك الحين صار كل أدب عن الحياة الريفية بتفاصيلها أدب مراثٍ وحزن وبكاء على ما فات ، مثل القصائد المتأخرة لتوماس هاردي، أو شعر عواطف وحنين كما هو عند الشعراء الجورجيين مثل **روبرت بروك** (١٨٨٧ م ـ ١٩١٥م) ، وكذلك كان الشعر المكتوب خارج إنجلترا كالمسرحيات الشعرية عن غرب إيرلندا للشاعر جون ملنغتون سنغ (١٨٧١م ـ ١٩٠٩م) أو القصائد الملحمية الويلزية لديلان توماس (١٩١٤ م ـ ١٩٥٣م) .

كما أنتجت الحربان الكونيتان شعراً نستطيع أن نطلق عليه ''**شعر الحرب**'' كانت مواضيعه تمجيد الوطن والتضحية من أجله ، أو رثاء القتلى من الجنود ، وأحياناً هجاء الساسة والقواد والحرب ورفض تلك المعاني السامية مثل المجد والتضحية والشرف التي لم تعد تعني شيئاً عندهم ، ومن هؤلاء الشعراء روبرت بروك وادجل ركورد وسيجفريد ساسون وولفرداون.

ولا ننس موضوعاً لا يقل خطورة عن كل ما سلف، فالصراع بين الدين والعلم أسس علاقة مميزة لأواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وبالنسبة لمعظم الكتاب لم تعد المسيحية قوة يحسب لها حساب، فبدلاً من معارضتها، نجد هؤلاء الكتاب يهملونها، وكان هناك استثناءات من هذا الاتجاه لكنها لم تكن ذات وزن يشار إليه.

أعلام الشعر

١- **رديارد كبلنج** (١٨٦٥م ـ ١٩٣٦م) شاعر الإمبراطورية ونصير الاستعمار، سجل إعجابه بكبار مجرمي بريطانيا أمثال كرومر ورودس لأنهما كانا إنجليزيين استعماريين، من أعماله ‘‘قصائد غرفة باراك‘‘ وفي القصص القصيرة ‘‘كيم‘‘ و‘‘كتاب الغابة‘‘ وكلاهما عن الهند وحيواناتها والجيش البريطاني وسلاحه البحري.

٢- **وليم بتلر ييتس:** (١٨٦٥م ـ ١٩٣٩م) قاد مجموعة من الشعراء المسرحيين الأيرلنديين الذين أحيوا الأدب الأيرلندي ، لفت إليه الانتباه بقصيدته السردية ‘‘جولات أوسن‘‘ المستوحاة من دراسته العميقة للميثولوجيا والتراث، بدأ الكتابة عن أمته الأيرلندية وتقاليدها وتاريخها، ثم تحول إنسانياً لتصبح قضيته الأولى انقسام العالم وتشتت شعوبه والطريقة للجمع بين هذا الشتات، شعره متنوع ما بين الشعر الغنائي والشعر الرمزي المعقد كمجموعاته الأخيرة ‘‘**الدرج المتعرج**‘‘ ‘‘**وقصائد أخيرة**‘‘ ومسرحياته مثل ‘‘**الكونتسية كاتلن**‘‘ ، حصل على جائزة نوبل عام ١٩٢٣م.

٣- **ت. س. اليوت** (١٨٨٨ م ـ ١٩٦٥م) ولد في أمريكا وقضى معظم حياته في إنجلترا، عاش بعمق مآسي الحربين العالميتين فظهر ذلك واضحاً في أدبه إلى جانب المرجعية المسيحية، قصيدته الأشهر ‘‘**الأرض اليباب**‘‘ (١٩٢٢م) التي اعتمد فيها تقنية شعرية حديثة عارضاً عجز الإنسان المعاصر في زمن مادي عن الإيمان بشيء مهملاً خلفيته الدينية والثقافية فأدى هذا إلى بؤس إنساني عام، من أعماله المسرحية ‘‘موت ائتلاف

العائلة'' ''**حفل الكوكتيل**'' ''**الكاتب المؤتمن**'' نـال جـائزة نوبـل في الآداب عام ١٩٤٨م.

٤- **ازرا باوند:** (١٨٨٥ م - ١٩٧٢م) أمريكي المولد، تنقل في دول أوروبا واستقر في إيطاليا، هاجم الرأسمالية وأيد فاشية موسوليني، مما أدى إلى سـجنه عنـد دخـول الأميركـيين رومـا، مـن أشـهر أعمالـه: مـوبرلي والأناشيد.

٥- **أودن:** (١٩٠٧ - ١٩٧٣) تخرج من اكسفورد، ارتحل إلى ألمانيا والصين وإسبانيا قبل أن يستقر في أمريكا عام ١٩٣٩، عاد إلى وطنه قبل وفاته بعام واحد، استوعب الأفكار والمبادئ الدينية والفلسفية والنفسية مع اهتمام واضح بالأحداث الاجتماعية والسياسية وتأثيرها على المجتمع، استخدم العامية في شعره، من أشهر أعماله: رسالة العام الجديد، عصر القلق، من أجل الزمن الكائن.

شعراء آخرون: ديلن توماس (١٩١٤ - ١٩٥٣) تد هوجس، لويس ماكنيس، سيسل دي لويس.

أعلام الرواية

١- **جيمس جويس:** (١٨٨٢ ـ ١٩٤١) روائي إيرلندي، طبع أول أعماله ''الدبلنيون'' عام ١٩٠٤ ثم ترجمته الذاتية ''صورة الفنان شاباً'' أشهر أعماله ''يوليسيس'' التي تصف أحداث يوم واحد في دبلن، من أعماله الأخرى: موسيقى الغرفة، صحوة فيننجان، البطل ستيفن (راجع سيرته الكاملة في هذا الكتاب) .

٢- **جورج أورويل** (١٩٠٣ ـ ١٩٥٠) بالرغم من بيئته الثرية أصبح اشتراكياً وعاش بين العمال الفقراء والمشردين، وقد سجل ذلك في رواية ''التسكع في باريس ولندن'' حارب مع الشيوعيين ضد النظام الديكتاتوري في إسبانيا، ثم هجرها إلى فرنسا، مرض بالسل في أواخر حياته ومات به، أشهر أعماله رواية ''١٩٨٤'' و''مزرعة الحيوان''.

٣- **د. هـ. لورنس** (١٨٨٥ ـ ١٩٣٠) كتب إضافة إلى الرواية المقالة والقصة القصيرة والشعر، من أعماله: أبناء وعشاق، قوس قزح، نساء في الحب، مشاهد الجنس، أثارت أعماله الجدل فمنعت له في بريطانيا روايته ''عشيق السيدة شاترلي'' ثم أفرج عنها عام ١٩٧١، اهتم في أعماله بالغرائز والعلاقة بين الرجل والمرأة، أشاد بوضوح بالحب الجسدي.

٤- **هـ. ج، ويلز** (١٨٦٦ ـ ١٩٤٦) كسب شهرة كبيرة من كتابته في الخيال العلمي ، بالذات رواية ''آلة الزمن'' وهي آلة تسافر في الزمان بدلاً من المكان.. على النهج ذاته كتب ''حرب العوالم'' وتصف هجوماً يقوم به سكان المريخ على كوكب الأرض و''أول بشر على سطح القمر'' وهي عن رجال يرتحلون إلى القمر ، اهتم بالقضايا الاجتماعية والسياسية وعبر

عنها في روايات كوميدية مثل: تاريخ السيد بولي، وفي أعمال نظرية لاحقة مثل خلاصة التاريخ و''أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم''.

٥- **الدوس هكسلي** (١٨٩٤ - ١٩٦٣) كتب المقالة إلى جانب الرواية، رسم صورة قاتمة لمجتمع المستقبل حيث تسيطر الآلة على العالم، وبالتالي تنتفي صفة الإنسانية عنه فيصبح عالماً لا يطاق، واتضح ذلك في روايات ''عالم جديد شجاع'' ''القش الغريب'' ''نقطة بنقطة''، ونظراً لأنه عاصر الحربين العالميتين وشاهد ويلاتهما فقد نادى بالعلاقات الأخوية بين الناس كما في رواية ''أعمى في غزة'' و''الوقت يجب أن يتوقف''.

المسرحية

بعد أكثر من مئة عام من الانحدار، عاد المسرح الإنجليزي إلى النهوض ثانية، وقد بدأ ذلك في العقد الأخير من القرن التاسع عشر بالكوميديات الهجائية للسير أرثر بنيرو (١٨٥٥م - ١٩٣٤م) الذي هجر عمله في القانون وكسب شهرته ككاتب مسرحيات هزلية ساخرة مثل ''دندي دك'' و''السيدة ثانكوري الثانية''.

ولا ننس هنا من ذكر أثر المسرحي النرويجي الكبير هنريك أبسن (١٨٢٨م - ١٩٠٦م) على المسرح الإنجليزي والأوروبي شكلاً ومضموناً وذلك بتعامله مع المواضيع التي تخص المرأة والرجل العاديين واهتمامه بالعواطف والمشاعر الإنسانية والممارسات الاجتماعية الخاطئة في زمنه.

ومن أهم أعلام المسرح في هذا القرن إلى جانب من له ترجمة كاملة في هذا الكتاب:

١- **سين أوكاسي** (١٨٨٤ م - ١٩٦٤م) مسرحي أيرلندي، عاش طفولته في دبلن، وعاصر كفاح أبناء وطنه في سبيل الاستقلال، لذا تناولت أعماله الأحداث

العظمى في إيرلندا في بدايات القرن العشرين مثل: ''ظل رجل البندقية''، التي أظهرت الآثار السلبية للحرب على الناس وضحاياها من الناس العاديين الأبرياء ومن أعماله الأخرى: ''جونو والطاووس'' و''الحراث والنجوم''.

٢- **جون جالزورثي** (١٨٦٧م ـ ١٩٣٣م) تناول في أعماله المسرحية انكباب الطبقة الوسطى على جمع المال وإهمال الآداب والفنون، ورأى أن النجاح المادي والاجتماعي يصاحبه خلل بيتي وأخلاقي، لذا كان عطوفاً على المظلومين والفقراء، من أبرز أعماله ''النزاع'' تناول فيها إضراب العمال ومعاناتهم وأسرهم جراء الإضراب، و''العدالة'' عن عامل قام بتزوير شيك للخروج من مآسي فقره فألقي القبض عليه وأودع السجن، وقد وصف السجن ببراعة مما أدى إلى قيام الدولة بإصلاح السجون.

٣- **جون أوسبرن** (١٩٢٩م ـ .) ''انظر خلفك في غضب'' كانت أولى أعماله وفيها عبر عن حنين الشباب البريطاني إلى رومانسية إنجلترا في العصور الماضية والساخطين على فساد الدولة والكنيسة معاً، وفي مسرحية ''راقبه يتهاوى'' مرثاة للقيم الطيبة التي كانت سائدة في الماضي ثم تهاوت تحت هجوم قيم جديدة، فالعالم كله يتهاوى، وقد كانت أعماله بمثابة ثورة اجتماعية سياسية في مسرح ما بعد الحرب.

٤- **أرنولد وسكر** (١٩٣٢ م ـ .) مسرحي يساري واقعي، اهتم بالطبقة الكادحة من حرفيين وعمال وريفيين من خلال وصف حياتهم اليومية، وخير ما يمثل ذلك مسرحية ''المطبخ'' أما مسرحيته ''شرائح بطاطا في كل شيء'' فموضوعها الطبقية، والتحريض على الثورة على النظام الطبقي واضح فيها ، وفي مسرحياته: ''حساء دجاج بالشعير'' ''أتحدث عن القدس'' ''الجذور'' يتناول عائلة يهودية في لندن وتأثرها بالأحداث السياسية والاجتماعية في خمسينيات هذا القرن.

١٨- برنارد شو
(١٨٥٦ - ١٩٥٠ م)

نظرة واحدة منا نلقيها على قائمة المسرحيين البريطانيين بعد شكسبير، لن تكلفنا جهداً في العثور على الكاتب المسرحي الأكبر خلال القرون الأربعة التي تلته، إنه برنارد شو الذي انتقد شكسبير وحمل عليه، ولكنه أحب الكاتب المسرحي النرويجي ''إبسن'' ومدحه وحاول تقليده.

ولد الكاتب المسرحي والروائي والناقد الأيرلندي جورج برناردو شو في ٢٦ تموز عام ١٨٥٦م في دبلن عاصمة إيرلندا لعائلة فقيرة، وهو الثالث والأخير لوالديه، فقد كان له أختان تكبرانه، أما والده فقد كان سكيراً متهالكاً على الشراب، وقد فشل في كل عمل مارسه، أما والدته فقد كانت موسيقية تحسن الغناء، وقد تركت زوجها عام ١٨٧٢م وارتحلت إلى لندن مع ابنتيها لتلحق بأستاذها في الموسيقى ''جورج لي'' الذي كان يسكن مع الأسرة منذ عام ١٨٦٦م، وقد عملت معلمة للغناء هناك.

وقد التحق شو بالمدرسة عدة سنوات ثم تركها ليثقف نفسه بنفسه، وكان يقول أنه لا يذكر متى كان لا يعرف القراءة، ولكنه بدأ المطالعة وفي الخامسة وأصبح الإنجيل وشكسبير جزءاً مهماً من حياته وهو في العاشرة، وقرأ أعمال ديكنز وهو في الثانية عشرة، وقال فيما بعد ''إن أعظم عمل قمت به في حياتي هو تركي المدرسة، لأنها تعرض علينا دروساً لا نحبها، أما التثقيف الذاتي فهو يترك لنا الحرية لنختار من صنوف الثقافة''

عمل شو محصلاً للإيجارات في أحد المكاتب، ثم غادر دبلن وهو في العشرين من عمره ملتحقاً بأمه وأختيه ، حيث مكث عشر سنوات عاطلاً عن العمل، معتمداً على أمه، وفي هذه الفترة قرر الانقطاع عن شرب الشاي والقهوة والخمور، وأصبح نباتياً، إلا أن هذه السنين العجاف لم تذهب هدراً، فقد استغلها في القراءة المستمرة في

مكتبة المتحف البريطاني حيث يوجد أربعة ملايين كتاب، وفي الأمسيات كان يواصل تثقيف نفسه بحضور الندوات و المحاضرات والنقاشات التي كانت تميز النشاط الثقافي للطبقة الوسطى من الشعب البريطاني، كذلك كتب خمس روايات إلا أنها لم تجد ناشراً، وظل شو يكره تذكيره بها لأنها تذكره بسني فشله في مرحلته الأولى، إلا أن هذه الروايات تشكل في مضمونها بذرة فكره وفلسفته.

ورغم هذا الفشل الأدبي، فقد وجد شو لنفسه مكاناً في الجمعية الفابية، تلك الجمعية الاشتراكية التي كانت تهدف إلى تحويل المجتمع البريطاني عن طريق اختراقه بالمبادئ الشيوعية ـ وليس بالثورة ـ وقد شارك شو بقوة في نشاطات الجمعية، وكتب فصلين في كتاب ''مقالات فابية عن الإشتراكية'' المنشور عام ١٨٨٩.

وخلال هذه الفترة بدأ شو يكسب من قلمه، فقد سعى له صديقه الناقد الدرامي وليم أرثر وعينه ناقداً أدبياً في صحيفة ''بال جازيت'' وناقداً فنياً في صحيفة ''العالم'' ولكن اسمه لم يلمع حتى كتب النقد الموسيقي في صحيفة ''النجم'' ما بين عامي ٨٨م ـ ١٨٩٠م، ثم عاد رئيس تحرير ''العالم'' وعينه ناقداً موسيقياً في صحيفته، فأثار شو النقاد بتمجيده فاجنر الذي عدوه مجنوناً، ولكن نقده هذا لقي استحسان الخارجين على التقاليد.

وفي الفترة التي بدأ فيها شو الكتابة للمسرح الإنجليزي، كان هناك كاتبان مسرحيان بارزان هما: السير ''أ. و. بنيرو'' و'' هـ. أ. جونز'' وكلاهما حاول تطوير المسرحية الحديثة، إلا أنهما لم يمتلكا القوة للتخلص من العقدة المصطنعة، والنوعية التقليدية للشخصيات المسرحية، فجاء شو رافضاً الانحناء للتقاليد والكتابة من أجل الذوق السائد.

وشرع في إصدار أعماله المسرحية، فأصدر أولاً ''**منازل الأرامل**'' (١٨٩٢م) ويتعامل فيها بأسلوب استفزازي مع مشكلة حي فقير يتعامل بالرذيلة، فهو ـ شو ـ يجعل من الأمور السلبية إيجابية، وما يراه الناس إيجابياً يثبت سلبيته، وهذا الأسلوب

يكشف أسباب المشكلة ومظاهرها، لذا بدلاً من أن يهاجم الجمهور ''المومس'' يهاجم الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي تدفعها إلى امتهان هذه المهنة، ورغم أن المسرحية قوبلت بعاصفة من الرفض إلا أنها كانت سبباً في ذيوع اسمه ككاتب مسرحي، فالاشتراكيون موجودون في بريطانيا، لذا ناصروا المسرحية وشجعوا صاحبها لأنها تؤيد مبادئهم وفلسفتهم.

وبعد مسرحية ''**الرجل الذي تحبه النساء**'' الصادرة عام ١٨٩٣ م والتي منعت السلطة تنفيذها، ألف مسرحية ''**مهنة السيدة وارن**'' التي تتناول اتخاذ بعض النساء الانحلال الخلقي مهنة يعشن منها، والدافع لذلك هو الفقر الذي يكاد يكون الموضوع الرئيس لمعظم أعماله إن لم يكن كلها، وقد منع الرقيب في لندن تمثيل هذه المسرحية كونها تخدش الذوق العام، ولكنه عاد وأجازها، ويظهر جلياً تأثر شو بإبسن الكاتب المسرحي المجدد، وكلاهما جعل من المسرح منبراً للتنوير الاجتماعي وإفادة المشاهدين وتعليمهم ، وكأنهم يتلقون العلم والأدب في الجامعة.

وقد دعا شو مسرحياته الثلاث السابقة بالمسرحيات غير السارة، ونصحه بعض أصدقائه باعتزال الدراما ، إلا أنه رفض ذلك بشدة بإصداره مسرحيات أفضل ، بادئاً بـ ''**الإنسان والسلاح**'' عام ١٨٩٤، وقد سخر فيها من الطبقة البرجوازية التي يحكمها عشق المظاهر والزيف الخادع ، وادعاء أولئك البرجوازيين حب الفروسية والشجاعة والإغراق في الرومانسية في علاقة الرجل بالمرأة، ويضع شو شخصياته في مواقف مضحكة تكشف حقيقة طبائعهم وما تحمله نفوسهم من رياء ونفاق.

وفي عام ١٨٩٤م أصدر مسرحية ''كانديدا'' التي تبدو للوهلة الأولى قصة هزيلة، فمحورها حب ماركيناكر لكانديدا وهو يرى نفسه أفضل من زوجها القس، لكن كانديدا تتخذ القرار الأخير بالوقوف الرائع إلى جانب زوجها الذي تراه الأضعف بين الاثنين، وواضح هنا أيضاً تأثر شو بإبسن، وقد تكون ''**كانديدا**'' معارضة لمسرحية إبسن الشهيرة ''بيت الدمية''.

وفي عام ١٨٩٦م كتب مسرحية ‘‘**تلميذ الشيطان**’’ وفيها يقدم رجلاً يسيء المجتمع الظن به فيحسبه شريراً سيئ الطوية، ولكن جوهره الناصع يتضح حين يستعد للتضحية بنفسه في سبيل الآخرين، وفي العام ذاته أصدر ‘‘**لن تستطيع قول شيء**’’ متبعاً فيها نفس النهج في نقد الوضع الأخلاقي والاجتماعي السائد في عصره، وقد لاقت هذه المسرحيات نجاحاً كبيراً في بريطانيا وأمريكا.

وبين عامي ١٨٩٧م ـ ١٩٠٣م، عمل شو في المجلس الكنسي، فخصص أوقات المساء لمتابعة الخدمات العامة مثل الإضاءة والأرصفة والنظافة وشبكة المياه وتجارة الرقيق، وفي الوقت نفسه كان مرتبطاً بمحاضرات لا تحصى، ولكنه رغم ذلك وجد الوقت ليجسد عقيدته في كتبه اللاحقة، فبدأ بمسرحية ‘‘ **الإنسان والسوبرمان**’’ مفرغاً فيها فلسفته القائلة بأن الإنسانية هي أعلى مراحل التطور البشري وأسمى غاياته، وعني فيها بالسوبرمان الإنسان الذي يجب أن نستولده من الإنسان الحاضر تدريجياً، وذلك بالرقي بجسمه وعقله وغرائزه حتى نحصل على خصائص عالية فيه كالصحة والذكاء والعمر الأطول، وهو يومئ إلى الطريق الصحيح للحصول على هذا الإنسان بدون أن يوضح أو يفصل في ذلك.

وبين عامي ٤ ـ ١٩٠٧م أصدر ‘‘**جزيرة جون بل الأخرى**’’ التي ساهم فيها بتميز في النقاش الدائر حول شكوى الإيرلنديين ضد الإنجليز، ومسرحية ‘‘**الرائد بربارة**’’ التي أظهرت مقدرته على تناول المواضيع السياسية، وجوهر المسرحية ماركس، إذ يصرح فيها أن الأخلاق أساسها مادي اقتصادي، مهملاً ـ مع الأسف ـ العامل الديني، وأتبعهما بمسرحية ‘‘**معضلة الطبيب**’’ وهي عبارة عن هجوم على مهنة الطب قبل أن تؤممها بريطانيا، وتعد هذه المسرحيات الثلاث بداية لعصر الذخائر في بريطانيا، وهي التي أرست القواعد لشهرة شو العالمية، كما رفعت من شأن المسرح البريطاني الذي كان شبه مجهول منذ شكسبير.

وفي بداية الحرب عام ١٩١٤م، كانت شهرة شو قد طبقت الآفاق شرقاً وغرباً، وقد تأثرت شعبيته قليلاً بموقفه غير المتحيز من الحرب مخالفاً رأي الأغلبية، إلا أنـه استعاد شعبيته بعد انتهاء الحرب بإصداره أروع مسرحياته "**اندروكليس والأسد**" وهي صورة جادة للمسيحية المبكرة بأسلوب ساخر يؤكد فيها أن إرادة الفرد مهما كانت قوية غير كافية إلا حدثت تغييرات جذرية في المجتمع ونظمه لتزيل المعيقات أمام تلك الإرادة.

كما أصدر مسرحية "**بيجماليون**" وهي قصة شاب متخصص في الصوتيات، يلتقي بفتاة بسيطة جميلة مشوهة النطق، فينجح في إصـلاح لكنتهـا، ويخـرج بهـا إلى المجتمعات التي تلاقيها بالترحاب، ولكن الفتاة تكتشف أنها لم تكن في حياة رفيقها إلا مجرد اختبار مما يثير لديها اضطراباً نفسياً وعاطفياً، وأخيراً تلجأ إلى أم الفتـى الـذي يقبل أن تكون رفيقة له ـ لا زوجة ـ مدى الحياة.

وكانت الحرب العالمية الأولى نبعاً ثراً لشو في عمله الأدبي، مع أنه توقف قليلاً عن الكتابة المسرحية ليؤلـف "**الشعور العام نحو الحرب**" ألحى فيه باللائمة على بلاده وحلفائها بنفس الدرجة الـتي لام بهـا الألمـان، ودعـا كافـة الأطـراف إلى الجلـوس لمباحثات سلام تنهي الصراع الذي أودى بحيـاة الملاييـن، كـذلك ألقـى الكـثير مـن الخطابات التي حملت أفكاره هذه مما جلب له الشهرة ونقد المعارضين معاً.

وفي عام ١٩٢١ م ألف مسرحية "**العودة إلى متشالح**" ومتشالح هو جد النبي نوح عليه السلام، وقد احتاج عرض أجزائها الخمسة إلى أربعة أيام، والفترات بـين أجزائها تصل إلى آلاف السنين، إذ بدأها بآدم وحواء في الجنة وأنهاها عـام ٣١٩٢٠ ميلادي، ويطور فيها نظريته التي طرحها في مسرحية "**الإنسان والسوبرمان**" ويزعم في هذه أن الإنسان بإمكانه أن يطيل حياته حتى ٣٠٠ سنة حتى يستفيد مـن مقامـه

على الأرض بأكبر قدر ممكن، ومع أنه عدها أفضل أعماله إلا أنها جاءت مملة فلم تحقق نجاحاً يذكر.

حقاً لقد كان شو متأثراً بتجربته الذاتية في الحياة، فقد كان نباتياً ممتنعاً عن التدخين والمسكرات، فكان يقول أنه يمتلك قوة كبيرة كامنة، وصحة ممتازة بسبب عاداته الحميدة، فكان ينتقد آكلي اللحوم قائلاً: أعلنها صراحة أن الرجل الذي يتعاطى الويسكي ويأكل الأجسام الميتة (يقصد اللحوم) لا يستطيع أداء عمل جيد، ثم ينتقد المدخنين فيقول: منذ صغري أدركت أنه من السخف أن ندفع للكناسين كي ينظفوا مداخن بيوتنا بينما نملأ غرفنا بالدخان القذر الناتج عن أعشاب مؤذية.

ويمنح جائزة نوبل عام ١٩٢٥م فيتبرع بها لإنشاء جمعية تعنى بالروابط بين الأدباء البريطانيين والسويديين، ويتوقف عن الكتابة للمسرح مدة خمس سنوات ثم يعود ويكتب عدة مسرحيات منها: ''**عربة التفاح**'' ١٩٢٩م، ''**حقيقي جداً أن تكون طبيباً**'' ١٩٣٢م، ''**على الصخور**'' ١٩٣٣م، ''**سيملتون وجزر غير متوقعة**'' ١٩٣٥م، ''**المليونيرة**'' ١٩٣٦ م''**جنيف**'' ١٩٣٨م، ''**أيام الملك تشارلز الذهبية**'' ١٩٣٩م.

وفي غير المسرح كتب'' **دليل المرأة الذكية إلى الاشتراكية والرأسمالية**'' ١٩٢٨م، ''**ما كتبته عن الحرب** ''١٩٣١م، ''**أوهام الأطباء** ''١٩٣٢م،'' **بيت المجانين السياسي في أمريكا**'' ١٩٣٣م، ''**وليم موريس كما عرفته**'' ١٩٣٩م، ''**ما هو**'' في السياسة ١٩٤٤م.

وتمنحه دولته لقب نبيل ووسام الاستحقاق فرفضهما، إذ لم يرغب في الجلوس في مجلس اللوردات، وقال أنه قد منح نفسه وسام الاستحقاق بتقديمه لأعظم الممثلين أعمالاً مسرحية عظيمة لا تقارن إلا بأعمال شكسبير.

وبعد وفاة زوجته شارلوت عام ١٩٤٣م، ولشعوره بالضعف وبآثار الحرب العالمية الثانية قرر الرحيل عن لندن وعاد إلى منزله الريفي في قرية هيرتفوردشير،

وكان وهو في سن التسعين ما يزال نشيطاً يمارس المشي والتجوال في الحقول والعناية بالأشجار بل وتسلقها، كذلك وضع وهو في التسعينيات من عمره كتابه ''**ست عشر صورة واقعية**'' متحدثاً فيه عن حياته، كما وضع كتاباً آخر هو ''**أساطير مستغربة أو مستبعدة**''.

وحدث وهو في الرابعة والتسعين، وبالذات في شهر تشرين أول أن انزلق عن شجرة كان يحاول تشذيبها، فسقط وكسرت ساقه، ونقل إلى المستشفى ليكتشف الأطباء أن لديه فشلاً كلوياً، وساءت حالته، وطلب العودة إلى منزله حيث عاش عدة أيام ومات في الثاني من تشرين ثاني ١٩٥٠م، وترك تركة قدرها ٧٦٧٣٢٣ جنيهاً حصلت الدولة على حوالي نصفها كضرائب، وأوصى ببعضها للمسنين من أقاربه ورفاقه، وقسم لإصلاح الهجاء الإنجليزي، وآخر للمتحف الوطني في دبلن والمتحف البريطاني في لندن والمجتمع الملكي للفن المسرحي.

١٩ـ جيمس جويس
(١٨٨٢ ـ ١٩٤١)

كان للدراسات الفرويدية على العقل الباطن، وخفاياه وأسراره، أثرها الكبير على كتابات أعلام الفكر والأدب في القرن العشرين، هذا القرن الحافل بالصراعات والمشاكل والتناقضات، يتصدرها الصراع السياسي بين الرأسمالية والشيوعية، ويزيد عن هذا، الصراع الروحي للإنسان الذي ولد ونشأ ليجد أمامه ما قاله العلماء النفسيون عن نفسه من دوافع وغايات وآمال، كل هذا وذاك أنتج نتاجاً جديداً من الأعمال الفكرية والأدبية والفنية والموسيقية جاءت كلها معبرة عن خبرات الإنسان في هذا القرن، وقد كان جيمس جويس من أبرز الكتاب الذين تشربوا ثقافة العصر وعبروا عن روحه وقضاياه.

ولد الكاتب الروائي جيمس أوغستين جويس في الثاني من شباط عام ١٨٨٢م في حي راثجر في مدينة دبلن، وكان الأكبر بين عشرة أطفال أنجبهم والداه، أما والده جون ستانسيلاس فقد كان جابياً للضرائب، كما كان على جانب من الغنى في مطلع حياته، إلا أن إسرافه في شرب الخمر قاد أسرته إلى الفقر، وكان جون يتباهى بإبنه جيمس ويدعوه ''الشيطان ذو الصوت الصادح الجميل''، أما والدته فهي ماري جين، وكانت على جانب من الجمال، وتجيد العزف على البيانو، وكانت متمسكة بدينها، مما خلق فجوة بينها وبين ابنها جيمس عندما كبر وامتنع عن الذهاب إلى الكنيسة وأداء فرائضه الدينية.

ولما بلغ جيمس السادسة من عمره، أرسل إلى أفضل المدارس الكاثوليكية في إيرلندا، ألا وهي كلية كلونجوزورد الداخلية التي قضى فيها ثلاث سنوات، ولأسباب مادية أخرجه أبوه منها فمكث في البيت عامين، ثم ألحقه وأخاه ستانسيلاس بكلية بليفرد الكاثوليكية، وتدبر أمر إعفائهما من الأقساط، وتعلم في هذه المدرسة مدة أربع

سنوات كان خلالها طالباً مجداً، وقارئاً نهماً، كما كسب عدة جوائز في كتابة المقالات، وليس غريباً أن نعرف أن أحد مقالاته الذي كان بعنوان ''بطلي المفضل'' كان عن ''يوليسس''[1].

والتحق بجامعة دبلن عام ١٨٩٨م وقضى فيها أربع سنوات متخصصاً في اللغات الحديثة الإيطالية والفرنسية إلى جانب اللاتينية، وجشم نفسه عناء تعلم اللغة النرويجية لكي يقرأ أعمال المسرحي الشهير ''إبسن'' بلغتها الأصلية، وبلغ به هذا الاهتمام أن كتب مقالاً بعنوان ''المسرح الجديد'' مراجعة لمسرحية إبسن ''عندما نستيقظ بين الموتى'' الصادرة عام ١٨٩٩م، ونشر المقال في صحيفة ''فورتنايتلي ريفيو'' بعد بلوغه الثامنة عشرة بأيام، وقرأ إبسن المقال، فكتب إليه رسالة يشكره فيها، فابتهج جويس لهذا الرد، ورد بكتاب شكر مماثل على الكاتب الكبير قال فيه أن كلمات إبسن ستبقى منقوشة في فؤاده، ولعل هذا النجاح الأولي كان دافعاً لجويس لاحتراف الكتابة، فهيأ نفسه لذلك وهو طالب، وكان لديه مجموعة طيبة من القصائد والمقالات قبل تخرجه في الحادي والثلاثين من شهر تشرين أول ١٩٠٢م.

وليكسب عيشه أثناء ممارسته الكتابة قرر دراسة الطب في باريس، فارتحل إليها والتحق بكلية الطب، ولكنه سرعان ما تركها عندما علم أن الرسوم ستدفع مسبقاً، وبعد تفكير طويل قرر أن يكرس حياته للأدب، ولكي يفي بمتطلبات المعيشة في باريس، أخذ يكتب المقالات للصحف، وشرع في تدريس اللغة الإنجليزية لأبناء الأسر الغنية.

وفي نيسان عام ١٩٠٣م استدعاه ذووه إلى دبلن بسبب مرض والدته، فسافر إليها وبقي إلى جانبها أربعة شهور حتى فارقت الحياة، فغادر منزله وعاش عيش المشردين فترة التقى خلالها '' نور بارنكل'' وذلك في العاشر من حزيران ١٩٠٤م،

---

(١)يوليسس: هو والد تليماك في الملحمة الشعرية" الاوديسه " للشاعر اليوناني هوميروس.

والتقى بها ثانية يوم السادس عشر من حزيران ١٩٠٤م وهو اليوم الذي جرت فيه أحداث روايته الشهيرة ''يوليسس'' ، وفي شهر تشرين أول تزوجا وغادرا إلى إيطاليا حيث عمل جويس معلماً للغة الإنجليزية في مدينة بولا، وفي العام التالي انتقلا إلى تريستا في النمسا حيث علم الإنجليزية في مدرسة بولتز مقابل ثمانين جنيهاً سنوياً، وفي هذه المدينة أنجبت زوجته ولده جورج وابنته لوشيا.

وفي عام ١٩٠٧م طبع جويس ديوانه الشعري الوحيد ''**موسيقى الغرفة**'' الذي كان صدى لشعراء العصر اليزابيثي، إلا أنه كان تجربة شعرية مبتدئة لا تدل على نضج رغم موسيقيته وجماليته، وقد امتدحته الصحافة، ولحن خمسة ملحنين بعض قصائده.

ولما لم يجد ناشراً لمجموعته القصصية ''**سكان دبلن**'' اضطر لنشرها على نفقته في بلاده، ولكن شخصاً مجهولاً اشترى كل النسخ من الدار الناشرة وقام بإحراقها، ولعل السبب هو ذكر جويس لأماكن وأشخاص بأسمائهم في القصص، ويتعرض فيها بالإساءة للملك إدوارد السابع والملكة فيكتوريا، فعاد إلى تريستا ومعه ثمن نسخ كتابه المحروقة مقرراً عدم العودة إلى وطنه أبداً، معتقداً أن هناك أعداء يتربصون له ويحاولون تحطيمه.

وفي تريستا كتب روايته ''**ستيفن بطلاً**'' ونشرها في إحدى المجلات الأدبية، وهي تمثل المرحلة الأولى المبكرة من حياته كمبدع، وقد أعاد كتابتها بعد تنقيح شامل، وقد لفتت هذه الرواية الانتباه إليه، وتلقى مساعدة من الشاعر الأمريكي ازرا باوند لنشر هذه الرواية، ولإعادة طباعة ''سكان دبلن''.

وبعد أن أعلنت إيطاليا الحرب عام ١٩١٥م واعتقال أخيه ستانسيلاس، ارتحل وأسرته إلى مدينة زيوريخ حيث بدأ يكسب قوته بإعطاء دروس في اللغة الإنجليزية، واستحث ازرا باوند كلاً من جورج مور وأدموند جوس للتوسط لدى رئيس الوزراء البريطاني لمساعدة جويس فتلقى عوناً من الصندوق الأدبي الملكي، وصندوق اللائحة

الدينية، كما قدمت له أديث مكرمريك منحة كبيرة، إضافة إلى مساعدات عديدة قدمتها ماريت ويفر محررة مجلة ''اجوست'' وقد بلغ مجموعها ثلاثاً وعشرين ألف جنيه عام ١٩٣٠م.

أما روايته ''**صورة الفنان شاباً**'' فتكاد تمثل سيرته الذاتية خير تمثيل، إذ يعرض فيها جويس مراحل تطور شاب وتنقله باحثاً عن غاية في الحياة إلى أن يجد الفن يحقق به ذاته وطموحه، لذا نراه هنا يضاعف تركيزه على البطل مهمشاً الشخصيات الأخرى حتى يكاد لا يذكر أسماءها، فهمه الأول الاهتمام بالبطل نفسياً وعقلياً، ولم لا ؟ أليس هو بطلها الحقيقي!، وقد تطوعت هاريت ويفر بنشرها، يدفعها لذلك إعجابها بالكاتب المبدع، فظهرت الرواية في كانون أول عام ١٩١٦م بعد أن استغرق تأليفها سبع سنين.

وكان جويس يعاني من عدة أمراض في عينيه كالتهاب القزحية، والزرق (الجلوكوما) وإعتام عدسة العين، وأجريت له حوالي ٢٥ عملية جراحية، ولكن الجدوى كانت قليلة، فكان أحياناً يصاب بالعمى التام، ولكن ذلك لم يفت من عضده، فانكب على عمله بروح معنوية عالية.

وكان قد بدأ عام ١٩١٤م بكتابة روايته التي اشتهر بها ''**يوليسس**'' فبدأت مجلة الايجوست بنشر الحلقات التي وافقت السلطات عليها، أما في أمريكا، فقد نشرتها مجلة ''ليتل ريفيو''، وقد صادرت بعض أعدادها شرطة البريد لفحشها، وحكمت المحكمة على المجلة بغرامة مئة دولار بعد أن ادعت عليها ''جماعة محاربة الرذيلة'' لخروج الرواية على الآداب العامة، وفي الثاني من شباط ١٩٢٢م أنجزت السيدة سيلفيا بيش صاحبة شركة شكسبير للنشر طباعة ''يوليسيس'' (٢ شباط كان يوم ميلاد جويس الأربعين) التي دوت شهرتها بسبب مشاكلها مع دوائر الرقابة، أما في إنجلترا فقد كان أمر نشرها غير وارد مطلقاً للأسباب المذكورة، ومع ذلك ظهرت لها طبعة في لندن سرعان ما صودرت، وكانت دوائر الجمارك في بريطانيا وأمريكا

تفتش المسافرين بحثاً عن نسخ من ''يوليسس''، وهذا بالطبع زاد من فضول القراء وإقبالهم عليها.

ولما طبعت للمرة الثانية في باريس في الف نسخة، أحرق منها ٥٠٠ في نيويورك، وصادرت الجمارك ٤٩٩ نسخة من ٥٠٠ هي كل ما طبع منها في الطبعة الثانية في لندن، ولم يسمح بقانونيتها في أمريكا إلا عام ١٩٣٤ عندما أعلنت المحكمة أن يوليسس لم يقصد بها إثارة الشهوات، فتولت دار راندوم هاوس نشرها في أول طبعة مرخصة، وسرعان ما اختفت من الأسواق جميع النسخ وعددها ٣٥ ألفاً.

و''يوليسس'' ليست قصة بالمعنى المعروف شرقاً وغرباً، فلا يجد القارئ فيها أي تسلسل زمني أو تتابع للحوادث يجذب القارئ ويشجعه على المضي في القراءة كما هو معهود في القصص، بل هي رواية تهكمية تقوم على الترميز والإشارات والارتباطات المتقاطعة، وتتوافق فصولها بشكل واضح مع فصول ''الأوديسة'' لهومر، وأحداث الرواية تدور في يوم واحد فقط هو السادس عشر من حزيران ١٩٠٤م، والمكان هو مدينة دبلن، وارتبط كل فصل فيها بفن معين أو علم أو رمز أو لون أو مهارة أو عضو في الجسم، ويتخذ مكاناً في زمن معين، ويتلاقى في كل ذلك علوم شتى من تاريخ وفلك ونقد وملاحم وقصص وأوبرا ومآسٍ وموسيقى جمعت جميعاً في أساليب شتى، فصيحة وعامية، مما استدعى النقاد أن يضعوا الأدلة للقراء لتفسيرها.

أما أبطالها فهم ثلاثة: اليهودي ليو بولر بلوم بائع الإعلانات، والشاعر ستيفن ديدالوس، وماريون زوجة بلوم.

يخرج ديدالوس الساعة الثامنة صباحاً من بيته في دبلن، ويلقي درساً في الموسيقى والتاريخ الروماني الساعة التاسعة، وفي الساعة الحادية عشرة يعود إلى المدينة، وفي الوقت ذاته يغادر بلوم منزله لإحضار فطور لزوجته، ويدخل غرف منزله ثم يقرأ الصحف، ثم يعثر على خطاب وجهه رجل إلى زوجته يحدد فيه الساعة ٤

موعداً لزيارتها، وبعد ذلك يخرج إلى الشارع ليشتري قطعة صابون ويضعها في جيبه ثم يذهب إلى الكنيسة، وبعدها إلى مطعم حيث يتناول غذاءه، ثـم ينطلـق إلى البـار حيث يسمع الناس يطعنون في عرضه وشرفه، وينطلق إلى الشاطئ ومنه إلى إحـدى دور اللهو حيث يلتقي ديدالوس فيشربان حتى الثمالة، ويعود بلوم إلى منزله وهو في حالة سكر تام ليجد زوجته تحاور نفسها بكلام يدل على خيانتها لزوجها، ويستغرق هذا الحوار ٤٤ صفحة من الرواية، ثم تضطجع وتنام وتنطق بكلمة ''نعم'' تنتهي بها الرواية التي تقع في ٧٥٠ صفحة زادت كلماتها على الربع مليون.

واضح إذن من كل ذلك أن مأرب جويس هو كشف خواء حياة الإنسان ـ هذا رأيه بـالطبع ـ وإلا، فمـا معنـى هـذه التـصرفات اليوميـة المعاديـة المليئـة بـالرموز والإشارات ـ العبثية أحياناً ـ وهذه الثرثرة لها مغزى كبير فسرها النقاد بطرق شتى، وخلقوا لها غايات كـثيرة، جعلـت مـن يوليـسس عمـلاً عظيمـاً يـستحق الدراسـة والتحليل، ويقول الناقد الكبير كولن ولسن عنها:

''هل يوليسس رواية عظيمة؟ ربما تكون الإجابة بنعم، فقـد ملـك جـويس الموهبة وصب فيها جهداً أكبر من الجهد الذي صـبه فلـوبير في ''مـدام بوفـاري''، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت واحدة من أكثر التأثيرات ضرراً بالقرن العشرين، إذ أن يوليسس هي التي دفعت النقاد إلى الإعلان أن الرواية وصلت نهايتها الآن، وأنه من المستحيل المضي إلى أبعد مما ذهب إليه''(١).

وإذا كانت يوليسس تجري في يوم واحد بأسلوب ''تيار الوعي'' فـإن روايـة ''يقظة فنينجان'' تستغرق ليلة واحدة بأسلوب اللاوعـي، وقـد كتبهـا في بـاريس، واستغرق إعدادها سبعة عشر عاماً، وهي تفوق يوليسس صعوبة وغموضاً، لذا ليس من السهل على القارئ غير المتخصص قراءتها واستيعاب ما فيها، فهي خلـيط مـن

---

(١) كولن ولسن، فن الرواية ، ترجمة محمود درويش، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٤٩.

التوريات المعقدة من اللغة الإنجليزية وثلاثين لغة أخرى ـ بما فيها لغة الإسكيمو ـ ناهيك عن الألفاظ التي تحمل معاني كثيرة، وأحداثها تخلط بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتمر بمراحل التاريخ كله بواسطة حلم يحلمه ''ايرويكر'' وهو صاحب فندق في دبلن، وخلال ذلك كله لا ينسى جويس نفسه، فيظهر بين الفينة والأخرى مداعباً ساخراً من نقاده، مدافعاً عن أفكاره ونظرياته.

وقد ظهرت الطبعة الأولى من ''يقظة فنيجان'' عام ١٩٣٦م في ألف نسخة فقط، وذلك توقعاً لأية اعتراضات قانونية تثيرها السلطات، ثم ظهرت الطبعة الشعبية بعد ذلك بعام، ولم تحقق النجاح الذي حققته يوليسس ولا ما هو قريب منه، مما خيب أمل كاتبها وأحزنه، وعلق على ذلك بقوله ''إن يوليسس كتاب النهار المشرق، أما يقظة فنيجان فهو كتاب الليل المظلم'' وكان يعني غموض الثاني وصعوبته.

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، ارتحل جويس عن باريس بعد غزو الألمان إلى مدينة زيوريخ في سويسرا قرب المصح الذي كانت تعالج فيه ابنته لوشيا التي كانت قد أصيبت في عقلها عام ١٩٣٢م، وأنفق عليها أكثر من ثلثي ثروته التي جناها من مؤلفاته.

وبعد وصوله إلى زيوريخ بأربعة أسابيع، أصيب بنزف في معدته فأجريت له عملية جراحية إلا أنه فارق الحياة وذلك في ١٣ كانون الثاني ١٩٢١م، أما زوجته نورا فقد توفيت عام ١٩٥١م.

ونختتم هذه السيرة بشهادتين لكاتبين كبيرين، أحدهما شرقي، والآخر غربي، أما الأول فهو الكاتب المصري سلامة موسى[1] :

''وجميع الأدباء الذين درسوا ''سيكولوجية الأعماق'' التي كشف عنها ''فرويد'' قد أعطوا الشؤون الجنسية حظاً كبيراً في قصصهم، وهذا أحدهم ''جيمس

---

(١) سلامة موسى (١٨٨٨ ـ ١٩٥٨) كاتب مصري ، من كتبه "اليوم والغد"، "الأدب والحياة"، "تربية سلامة موسى".

جويس‘‘ قد ابتدع طريقة جديدة في القصص لأنه جعل موضوعه درس خفايا النفس معتمداً على السيكولوجية الحديثة، فهو في قصة ‘‘أوليس‘‘ لا ينقل إليك ما يقوله أشخاص القصة، بل يصف لك خواطرهم، وهو يصفها بإخلاص، لا يهمل الشيء لأنه مستكره، ولا يسهب في الآخر لأنه محبوب، وقد قال هو عن الفن أنه يجب أن يكون حراً بعيداً عما نكره وعما نحب، وكأنه يصف العلم بهذا القول‘‘[1] .

ويقول الناقد الإنجليزي والتر ألن:

‘‘وأول ما نحتاج إلى توكيده، فيما يبدو لي، هو أنه أيا كانت الأشياء التي لا تنطبق على جويس، فهو كاتب بالغ العظمة، كاتب فكاهي له قدرات رابليه[2] وستيرن[3] ، وهذا في رأيي أكثر نقاط الاختلاف فائدة والتي نستطيع تناوله منها، وقد كتب جويس في ‘‘يوليسس‘‘، أكثر مما فعل فيلدنج[4] أبداً، والمساحة الفكاهية، بل إن الأساس الملحمي كان أكثر لزومية له منه لفيلدنج، كان لزومياً، في البداية، لأنه أمده ببناء لروايته، وهو يفعل شيئاً آخر أيضاً، رغماً عنه أن مدى نجاحه ما زال سؤالاً لم يبت فيه‘‘[5].

(١) الأدب الإنجليزي الحديث، ط٣، سلامة موسى للنشر والتوزيع، ١٩٧٨، ص ١٣٥.

(٢) فرانسوا رابليه (١٤٩٣ ـ ١٥٥٣) كاتب فرنسي

(٣) لورنس ستيرن (١٧١٣ ـ ١٧٦٨) روائي بريطاني.

(٤) هنري فيلدنج (١٧٠٧ ـ ١٧٥٤) روائي إنجليزي.

(٥) الرواية الإنجليزية، ترجمة صفوت جرجس، دار الشؤون الثقافية، بغداد، بلا تاريخ، ص ٣٦٢.

٢٠ـ صمويل بيكيت
(١٩٠٦ ـ ١٩٨٩م)

ولد الشاعر والناقد والروائي والكاتب المسرحي صمويل بيكيت في ١٣ نيسان عام ١٩٠٦ في مدينة دبلن في إيرلندا، ومثل سابقيه من أعلام الأدب، برنارد شو وأوسكار وايلد ووليم بتلر بيتس، فقد جاء من عائلة بروتستنتية.

وكان صمويل الابن الثاني لوليم بيكيت من بين ثلاثة أبناء وابنة، وقد تلقى صمويل علومه الأولى على يد معلمة، ثم نقل عام ١٩١٣ إلى مدينة ايرلسفورد هاوس، ثم انتقل عام ١٩١٨ إلى مدرسة برتورا رويال حيث تلقى المبادئ الأولى للغة الفرنسية، وقد تخرج من هذه المدرسة عام ١٩٢٣ ليدخل كلية ترنتي حيث حصل عام ١٩٢٧ على البكالوريوس بتفوق في اللغتين الفرنسية والإيطالية، وقد خوله تفوقه لتختاره الجامعة، لتدريس اللغة الفرنسية في معهد ايكول نورمال لإعداد المعلمين في باريس حيث قضى عامين تعرف خلالهما على الكاتب الإيرلندي جيمس جويس ـ الذي كان يكبر بيكيت بأربع وعشرين عاماً ـ وأصبح صديقاً له وسكرتيراً.

أما كتابه الأول فقد كان ''**شاشة رادار**'' وهو قصيدة طويلة طبعت في باريس التي تركها عائداً إلى كلية ترنتي حيث عمل محاضراً في اللغة الفرنسية لمدة ثلاث سنوات حصل خلالها على الماجستير عام ١٩٣١ في الأدب الفرنسي، وكان موضوع رسالته ''**الكاتب الفرنسي مارسيل بروست**''.

ويقضي بيكيت الأعوام الأربعة التالية متنقلاً في بلدان القارة مع إقامات طويلة في كل من ألمانيا ولندن وباريس، وكان خلال ذلك ينظم الشعر ويكتب القصص، ونشر في هذه الفترة قصيدته ''**خريطة البروج**'' والتي نال بها جائزة أدبية مقدارها عشر جنيهات في مسابقة أدبية لأفضل قصيدة، وكان موضوعها الفيلسوف الفرنسي

ديكارت، وقد طبعت القصيدة في ٣٠٠ نسخة وبيعت في باريس، ثم اتبعها بمجموعته الشعرية ''**عظام الصدى**'' ومجموعته القصصية ''**وخزات أكثر منها ركلات**''، وهي مكونة من عشر قصص تعكس وتصور حياة المثقفين المفلسين في دبلن، وبطلها بلاكوا يشبه صمويل بيكيت نفسه إلى حد بعيد ، فهو يعاني مرضاً عصبياً عانى منه بيكيت وتحدث عنه رفاقه وكاتبو سيرته.

وإلى جانب تلك المجموعة، كتب بعض الترجمات عن الشاعرين الفرنسيين بول ايلوار وبريتون كردفيل.

وفي عام ١٩٣٧م قرر أن يستقر في باريس، ونشر في العام التالي رواية ''مورفي'' والتي تحوي جميع عناصر أعماله اللاحقة، وهي تشبه حياة بيكيت نفسه، ومورفي شاب إيرلندي يحاول نسيان ماضيه وتجديد هويته بالنزوح إلى لندن (كنزوح بيكيت إلى باريس)، ويفشل رفاقه في ثنيه عن عزمه هذا، ولكن صديقته سيليا تنجح في ذلك وتقنعه بأن يتخذ لنفسه مهنة ما، فيعمل ممرضاً في مستشفى للأمراض العقلية حيث يعاشر المرضى فيأنس بهم ويخرج بنتيجة غريبة وهي أن العقلاء هم نزلاء المستشفى وأن المجانين هم الذين خارجه، وقد طبعت هذه الرواية في العام التالي ولم يبع منها سوى سبع عشرة نسخة، فسببت صدمة لكاتبها.

في الأعمال السابقة كان بيكيت يكتب بالأسلوب التقليدي: بداية ووسط ونهاية، بأحداث متسلسلة وحبكة وشخصيات واضحة يترجمها الروائي ويكشفها بدون عناء يبذله القارئ، ولكن بيكيت في الروايات ابتعد عن الخط التقليدي وعمد إلى تكتيك تيار الشعور، وهو تناول الذات الداخلي للشخوص ومعالجتها.

وعندما احتل الألمان فرنسا، انضم بيكيت على حركة المقاومة فقدم لأعضائها خدمات جلّى من نقل بريد وتصوير وثائق وسندات، ولما شعر أن الألمان على وشك اكتشاف أمره ـ بعد أسر رفاقه في المقاومة ـ فر مع صديقته سوزان إلى منطقة غير

محتلة، حيث عمل عامل مزرعة إلى أن وضعت الحرب أوزارها، وانهزم الألمان، وخلال هذه الفترة كتب روايته ''**وات**''.

و''وات'' كهل يعمل خادماً عند السيد نوت الغامض المتقلب ذي الأطوار الغريبة، والذي يدير أمور منزله بنظام صارم يتغير حسب مزاجه المتقلب، وحين يرضى عن ''وات'' يرقيه ثم يطرده حسب نظام الترقيات لديه.

وفي عام ١٩٤٥م عاد إلى إيرلندا وتطوع في الصليب الأحمر الأيرلندي، ثم عاد إلى فرنسا ليعمل مترجماً في مستشفى عسكري في سانت لو في نورمانديا، وفي شتاء ذلك العام عاد نهائياً إلى باريس واستقر بها، وقرر هجر لغته الأم والانقطاع للكتابة باللغة الفرنسية، وقد عانى من العسر المادي ورفض الناشرين نشر أعماله وترجماته رغم أن هذه الفترة كانت أخصب فتراته فكتب مقالين نقديين عن صديقه جيمس جويس، والروائي الفرنسي مارسيل بروست، ثم أنجز ثلاثيته الروائية الشهيرة ''**مولي**'' و''**مالوني يموت**'' و''**اللامسمى**'' التي دخل بها طوره الجديد ''تيار الشعور'' المختلف كلياً عن طوره السابق.

ففي الجزء الأول من الثلاثية، يخرج البطل ''مولوي'' للبحث عن أمه التي لا يعرف إن كانت حية أم ميتة، ولا يدري إن كانت رغبته في البحث عنها صادقة أم لا، كما أنه يؤدي هذه المهمة بناءً على رغبة منظمة غامضة ، وطوال الطريق طرح مولوي الأسئلة على نفسه عن طبيعة رحلته وغاياتها ودوافعها.

أما الجزء الثاني فإن البطل ''موران'' الكسيح المشرد يخرج للبحث عن مولوي، بينما هو ـ موران ـ يشك في كل شيء حوله، كما أنه لا يعرف وصفاًولا عنواناً لمولوي، وينتهي هذا الجزء بعودة مالون ـ الذي هو مولوي ـ ميتاً.

وفي الجزء الثالث ''اللامسمى'' وهو الجزء الأصعب من الثلاثية، يهمل بيكيت وحدتي الزمان والمكان التقليديتين، فراوي القصة مجهول لدينا، ويظهر لنا بطلاً هو ياسيل، ثم يحوله إلى ماهود الذي يستبدله الراوي بالدودة، وكأنه شخص

حقير كحشرة لا تستحق سوى الازدراء والتقزز، حتى أن بيكيت قد حرمه من الساقين والذراعين، وكذلك هم أبطاله معوقون مشوهون دائماً، أو أشباه بشر.

وقد قابل النقاد ''مولوي'' بحماس واهتمام، وحقق نجاحاً تجارياً وأدبياً مما دفع الناشر إلى شراء الجزئين الآخرين من الثلاثية، كما اشترى ''في انتظار جودو''.

ومسرحية ''**في انتظار جودو**'' مسرحية سوداوية متشائمة، مزج فيها بيكيت بين أساليب عدة، رمزية ووجودية وفلسفية، وقد وصفها بأنها كوميدية تراجيدية، أما أبطالها فخمسة، اثنان من المشردين وملاّك وعبد وصبي، أما جودو فلا يظهر أبداً، وتلتقي هذه الشخصيات الخمس على قارعة الطريق حيث يجلس المشردون البائسون بانتظار جودو الغامض المجهول الذي لم يعرفه ولم يره أحد، وهم لا يستطيعون مغادرة مكانهم إلا إذا جاء جودو، وعندما يهمان بالذهاب لا يتحركان، ويعودان إلى نفس المكان ليلة بعد ليلة في انتظار جودو الذي لا يأتي، لتنتهي المسرحية مثلما بدأت.

هذه المسرحية تمثل الفراغ الذي يعيش فيه الإنسان المعاصر، فلا غاية ولا أمل، بل إن الشقاء الإنساني هو السائد في وضع فقد فيه الزمن معناه، فلا مقاطع طويلة فيها ولا انفعالات داخلية أو صور كما شهدنا في المسرح الشكسبيري واليوناني.

وقد نشرت ''في انتظار جودو'' عام ١٩٥٢م، ورغم غموضها وتعقيدها، فقد مثلت على المسرح نفسه ٤٠ مرة، كما ترجمت إلى أكثر من عشرين لغة، وعرضت في حوالي أربعين دولة في أربع قارات، وقد ترجمها بيكيت إلى الإنجليزية ونال بها جائزة نوبل عام ١٩٦٩م ، ولاقت إعجاب النقاد والأدباء وإن اختلفوا في تفسير ما يريده مؤلفها، فقال أدوين كينبك ''لاهي مهذّبة ولا مطهّرة، ولكنها ذات أثر، إنها روعة ويائسة ولكنها ليست مزيفة'' وبعض النقاد جعلها تبلوراً لفن بيكيت وإبداعه، فوضعته إلى جانب جويس وكافكا لأصالة عمله ولأهميته في الأدب الحديث، وبوأته مكانة عالية من الشهرة العالمية.

ويكمل ''في انتظار جودو'' مسرحيتا ''**نهاية اللعبة**'' (١٩٥٧م) و''الشريط الأخير'' ١٩٥٩م، وكلاهما تكملان ما كان عليه أبطال المسرحية الأولى، فتتنامى بهم إلى أسفل، ومنهم من انحط جسدياً ولكنه تنامى واتقد عقلياً، ونكاد نقول أن نهاية اللعبة تمثيل لنهاية الإنسانية كما أرادها بيكيت.

وقد مثلت نهاية اللعبة في باريس والولايات المتحدة وبرلين، وحولت ''الشريط الأخير'' إلى أوبرا.

وفي عام ١٩٦٤ كتب رواية ''**كيف هي**'' التي تقدم صراعاً وسط الظلام والوحل بأسلوب لا يخلو من هزل وتطرف،ولكنه يرفع كاتبه إلى المرتبة الأولى ككاتب كوميدي.

ويظل بيكيت يكتب الرواية والمسرحية خلال إقامته في باريس مع زوجته سوزان، وينال الشهرة الواسعة، فتتحسن أحواله المادية، ويعين المعسرين من أدباء وناشرين إلى أن توفي في باريس في ٢٢ كانون أول عام ١٩٨٩ عن ٨٣ عاماً.

ومن أعماله الأخرى التي لم نتناولها بالبحث:

مسرح: رماد، الأيام السعيدة، تمثيل صامت، كل الذين يسقطون، كاسكاندو، تعال وارجع، روكابي.

روايات: من عمل مهجور، أخبار و نصوص.

المراجع

١- فيليب تيغيم ، المذاهب الأدبية في فرنسا ، ترجمة فريد انطونيوس ، دار عويدات ، بيروت ، ١٩٧٥م .

٢- د. جميل التكريتي ،المذاهب الأدبية ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، ١٩٩٠م.

٣- أرنولد كيتل ، مدخل إلى الرواية الإنجليزية ، ترجمة هاني الراهب، وزارة الثقافة ،دمشق ، ١٩٧٧م .

٤- والتر ألن ، الرواية الإنجليزية ، ترجمة صفوت جرجس ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، بلا تاريخ .

٥- رمسيس عوض ، دراسات تمهيدية في الرواية الإنجليزية المعاصرة ، دار المعارف ، مصر ، بلا تاريخ .

٦- رايموند وليامز ، الثقافة والمجتمع ١٧٨٠م- ١٩٥٠م، ترجمة وجيه سمعان ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، بلا تاريخ .

٧- هنري توماس ، دانالي توماس ، اعلام الفن القصصي ، ترجمة عثمان نوية ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، مصر ، بلا تاريخ .

٨- كامل عبد الجيد ، فؤاد فهمي ، اعلام الأدب الإنجليزي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مصر ، ١٩٦٥م.

٩- جون هالبرين ، نظرية الرواية ، ترجمة محي الدين صبحي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨١ م.

١٠- منير بعلبكي ، قاموس المورد ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٥م.

المراجع باللغة الإنجليزية

1 . The Encyclopedia Britannica .
2 . New Standard Encyclopedia .
3 . The Encyclopedia Americana .
4 . World Book .
5 . The Norton Anthology of English literature .
6 . Dictionary of Nationel Biography.
7 . Readers Digest Great illustrated Dictionary , Oxford University 1960 .
8 . Aconcise Treasury of Great Poems .
9 . The Norton Anhtololgy Of English Literature , Norton Company , New York 1986 .
10. A history Of English Literature . B. P. Chaudhuri , Aarti Book Centre , Delhi , 1988 .
11. Eighteenth Century English Literature , Geoffrey Tillotson , Harcout , Brace and Word , inc , New York .
12.The Penguin Guide to English Literature : Britain And Ireland .
13. Life In English Literature , L. A. G. Strong and Monica Redlich , Methuen co , London 1949 .
14. The peagant of English Poetry , Humphry Milford , Oxford University , 1944 .

تم بحمد الله

المؤلف في سطور

حصل الأستاذ نواف نصار على دبلوم اللغة الإنجليزية من معهد الآداب في عمان. وبكالوريوس الأدب الإنجليزي من كلية تأهيل المعلمين في عمان. ودبلوم اللغة الإنجليزية المتقدمة من المجلس الثقافي البريطاني.وبكالوريوس الأدب العربي من جامعة بيروت ،ودبلوم الدراسات العليا من الجامعة اليسوعية في بيروت

صدر له

١ – ترجمة رواية أفول القمر للكاتب الأميركي جون شتاينبك-المركز العربي للمطبوعات بيروت ١٩٨٨
٢ – ترجمة قصص شكسبير للكاتب هـ.ج.ويت.مكتبة المحتسب-عمان ١٩٩١
٣ – أنشودة الريف . ديوان شعر. دار الينابيع عمان ١٩٩٦
٤ – المنار في قواعد اللغة الإنجليزية . دار الينابيع عمان ١٩٩٨
٥ – عباس محمود العقاد سيرة وتحية وتجسيد للعبقرية . وزارة الثقافة ٢٠٠١
٦ – معجم المصطلحات الأدبية . دار ورد عمان ٢٠٠٦
٧ – حرب السويس وشروق شمس الناصرية .مركز الكتاب الأكاديمي عمان ٢٠٠٨
٨ – قنبلتان على اليابان – صورة عن أخلاق أميركا . دار المعتز عمان ٢٠٠٨
٩ – ترجمة كتاب المشهد الانطباعي للفنان شيبان السامرائي الى الإنجليزية دار الأديب عمان ٢٠٠٨
١٠ – مجمع رغدان قصص – دار المعتز عمان ٢٠٠٩
١١ – أعلام الأدب الإنجليزي-دار المعتز عمان ٢٠٠٩



يصدر قريباً

- بريد الأشواق . ديوان شعر.
- صدى القوافل . قصص .
- ترجمة رواية عمدة كاستربردج لتوماس هاردي .
- مدارس بلا تعليم – مذكرات .
- الطريق إلى الله .

عمان – وسط البلد – مجمع الفحيص التجاري
تلفاكس: ٤٦٢٠٩٩٠ ٦ ٩٦٢+ ص.ب: ١٨٤٠٣٤ عمان: ١١١١٨ الأردن
e-mail:daralmuotaz@yahoo.com